مارکس انجلس

مختارات

Marx, Karl, 1818-1883.

ماركس انجلس

مختارات

في اربعة اجزاء

الجزء الرابع

Y 4

دار التقدم

موسكو

1975

HX39
5
.A212
1975
vol.4
Qu.en
Arab

К. МАРКС и Ф. ЭНГЕЛЬС

ИЗБРАННЫЕ ПРОИЗВЕДЕНИЯ

Часть IV

На арабском языке

L
2 - AUG - 7
Copy 1975

208117*

الجلس

لودفيغ فورباخ
ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية (١)

مقدمة لطبعة عام ١٨٨٨

روى كارل ماركس في مقدمة لكتابه «مساهمـــة في نقد الاقتصاد السياسي» ، المطبوع في برلين عام ١٨٥٩ ، كيف اننا ، نحن الاثنين ، قررنا في بروكسل عام ١٨٤٥ ، ان «نصوغ نظراتنا معاً» ــ اي الفهم المادي للتاريخ ، الذي صاغه ماركس على الاخص ــ «خلافاً للنظرات الايديولوجية للفلسفة الالمانية ، وان نحاسب ، من حيث جوهر الامر ، وجداننا الفلسفي السابق . وقد حققنا هذه النية بشكل انتقاد للفلسفة التي ظهرت بعد فلسفة هيغل . وكانت المخطوطة ــ وهي عبارة عن مجلدين ضخمين بحجم قطع الثمن ــ قد وصلت من زمان الى مكان الطبع في وستفاليا عندما ابلغونـــا ان الظروف التي تغيرت قد جعلت من المستحيل طبعها . وبما اننا كنا قد بلغنا هدفنا الرئيسي ، ــ وهو توضيح الامور لانفسنـــا ــ فقد قدمنـــا المخطوطة بمزيد من الارتياح لنقد الفئران القارض» *

ومنذ ذلك الحين ، مر اكثر من اربعين سنة ووافت المنيـــة ماركس . ولم تسنح الفرصة لاحدنا ان يعود الى هذا الموضوع . لقد شرحنا موقفنا من هيغل في عدة مناسبات ولكننا لم نشرحه بشكل

---

* راجع هذه الطبعة ، الجزء الثاني ، ص ٩ــ١٠ . الناشر .

كامل في اي مؤلف كان . اما فيما يتعلق بفورباخ الذي يشكل ، مع ذلك ، من بعض النواحي ، حلقة اتصال بين هيغل ونظريتنا نحن ، فاننا لم نعد اليه مطلقا

وفي خلال ذلك ، لقي مفهوم ماركس عن العالم انصاراً فيما وراء حدود المانيا واوروبا ، وفي جميع لغات العالم الادبية ومن ناحية اخرى ، تعرف الفلسفة الالمانية الكلاسيكية في الخارج نوعاً من الانبعاث ، وخاصة في انجلترا والبلدان السكندينافية . وحتى في المانيا ، على ما يبدو ، اخذ الجميع يملون الحساء الاختياري الهزيل الذي يقدم اليهم في الجامعات باسم الفلسفة .

ونظراً لذلك بدا لي اكثر فاكثر ان الوقت قد حان لكي اعرض موقفنا من الفلسفة الهيغلية عرضاً موجزاً منهجياً كيف انطلقنا منها ، وكيف عدلنا عنها كذلك حسبت ان علينـــا دين شرف لم نوفه ، هو الاعتراف الكامل بالتاثير الذي أثره فينـــا فورباخ في مرحلتنا ، مرحلة الزوبعة والهجمة ، اكثر من اي فيلسوف آخر بعد هيغـــل . ولذلك قبلت عن طيبة خاطر اقتراح هيئة تحرير مجلة "Neue Zeit"،(«نوي زايت») (٢) بان اقوم بنقد كتاب شتاركه عن فورباخ . وصدر تاليفي في العددين ، الرابع والخامس ، لعام ١٨٨٦ من هذه المجلة ، وهو ينشر الآن بطبعة على حدة نقحتها

وقبل ارسال هذه السطور الى المطبعة ، فتشت عن المخطوطة القديمة لعامي ١٨٤٥ـ١٨٤٦ • وراجعتها مرة اخرى . في هذه المخطوطة فصل عن فورباخ لم ينته . والقسم الجاهز يتضمن عرضاً عن الفهم المادي للتاريخ ؛ وهذا العرض يظهر فقط لاية درجة كانت

• كارل ماركس وفريدريك انجلس . «الايديولوجية الالمانية» . الناشر .

معارفنا في حقل التاريخ الاقتصادي ناقصة في تلك الحقبة . وبما ان نقد نظرية فورباخ نفسها لم يرد في المخطوطة ، فلم يكن في مستطاعي ان استعين بها لهذه الغاية الا انني وجدت في دفتر قديم لماركس الموضوعات الاحدى عشرة عن فورباخ* ، المطبوعة هنا بصورة ملحق . فهي ملاحظات سريعة ، ليست معدة مطلقا للنشر ، وتستلزم اكمال الصياغة ولكن قيمتها تفوق التقدير بوصفها اول وثيقة تحتوي النواة العبقرية للمفهوم الجديد عن العالم .

لندن ، ٢١ شباط (فبراير) ١٨٨٨

فريدريك انجلس

صدر في كتاب :

F. Engels, «Ludwig Feuerbach und der Ausgang der klassischen deutschen Philosophie». Stuttgart, 1888

يصدر حسب نص الكتاب
تمت الترجمة نقلا عن الالمانية

---

* **كارل ماركس** «موضوعات عن فورباخ» (راجع الطبعة الحالية ، الجزء الاول ، ص‌ص ٣٧ـ٤٠) . **الناشر** .

لودفيغ فورباخ
ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية

هذا الكتاب* يعود بنا الى مرحلة منفصلة عنا ، من حيث الزمن ، مدى جيل ، ولكنها غدت غريبة عن الجيل الحاضر في المانيا حتى كانها بعيدة عنه مدى قرن كامل . ومع ذلك كانت تلك المرحلة مرحلة تحضير المانيا لثورة ١٨٤٨ ، وكل ما حدث عندنا مذ ذاك ، لم يكن الا امتداداً لعام ١٨٤٨ ، الا تحقيقاً للوصية التي تركتها الثورة .

ومثلما جرى في فرنسا في القرن الثامن عشر ، كانت الثورة الفلسفية في المانيا ، في القرن التاسع عشر ، مقدمة للانقلاب السياسي . ولكن ما اكبر الفرق بين هاتين الثورتين الفلسفيتين ! فالفرنسيون يحاربون على المكشوف كل العلم الرسمي ، والكنيسة ، كما يحاربون الدولة احياناً كثيرة ؛ ومؤلفاتهم تطبع فيما وراء الحدود ، في هولنده او في انجلترا ، ولا يندر لهم بالذات ان يحدق بهم خطر السجن في الباستيل . اما الالمان فهم ، بالعكس ، الاساتذة ، مربو الشبيبة المعينون من قبل الدولة ؛ ومؤلفاتهم

---

*«Ludwig Feuerbach», von C. N. Starcke, Dr. phil. — Stuttgart, Ferd. Encke, 1885 («لودفيغ فورباخ» ، تاليف ك . ن . ستاركه ، الدكتور في الفلسفة ، شتوتغارت ، الناشر ف . انكه ، ١٨٨٥) .

يعترف بها الجميع كتبا للتعليم ، والمنهج الذي يكلل التطور الفلسفي باسره ، منهج هيغل ، مرفوع ، الى حد ما ، الى مصاف الفلسفة الرسمية الملكية البروسية ! ووراء هؤلاء الاساتذة وتعابيرهم المعماة المتحذلقة ، وفي جملهم الثقيلة المضجرة ، كيف كانت الثورة تستطيع ان تكمن ؟ واولئك الذين اعتبروهم في تلك المرحلة ممثلي الثورة ، اي الليبراليون ، ألم يكونوا ألدّ اعداء هذه الفلسفة التي اشاعت الغموض في عقول الناس ؟ ولكن ما لم يره ، لا الحكومات ولا الليبراليون ، رآه شخص واحد على الاقل في ١٨٣٣ ، ولكن هذا الشخص هو هنريخ هينه (٣) .

لناخذ مثلا ان ايــة موضوعة فلسفية لم تستدع اعتراف الحكومات القصيرة البصر وغضب الليبراليين الذين ليسوا اقل قصر بصر ، بقدر ما استدعته موضوعة هيغل الشهيرة القائلة :

«كل ما هو واقع هو معقول ، وكل ما هو معقول هو واقع (٤)

هذه الموضوعة كانت ، في الظاهر ، تبريراً لكل ما هو موجود ، كانت بركة فلسفية للاستبداد ، والدولة البوليسية ، والقضــاء الملكي ، والرقابة . هكذا فكر فريدريك ولهلم الثالث ؛ هكذا فكر رعاياه . ولكن كل ما هو موجود ، ليس على الاطلاق عند هيغل ، واقعاً من كل بد فان ما يميز الواقع لا يطبق عنده الا على ما هو ضروري في الوقت نفسه .

«الواقع في تطوره يتكشف ضرورة»

ولذلك فان هيغل لا يعتبر ، دون اي تحفظ ، هذا التدبير او ذاك من تدابير الحكومة ، بانه شيء واقع ، وهيغل نفسه يورد على سبيل المثال «قانون الضرائب المعروف» . ولكن ما هو ضروري يبدو

اخيراً معقولا ايضا ، وموضوعة هيغل المطبقة على الدولة البروسية القائمة في ذلك الوقت لا تعني ، بالتالي ، الا ما يلي : ان هذه الدولة معقولة وتناسب العقل ، بقدر ما هي ضرورية . واذا كانت مع ذلك ، في نظرنا ، فاسدة ، ولكنها تستمر في الوجود ، بالرغم من فسادها ، ففساد الحكومة يجد تبريراً وتفسيراً في فســـاد الرعايـــا . فان البروسيين في ذلك العهد كانت لهم حكومة يستحقونها .

غير ان الواقع ، تبعا لهيغل ، ليس ابداً صفة تلازم في جميع الظروف وفي كل الازمان نظاماً اجتماعياً او سياسياً معينـا بـل بالعكس ، فالجمهورية الرومانية كانت واقعة ، ولكن الامبراطورية الرومانية التي ازاحتها كانت ايضا كذلك . والملكية الفرنسية قد اصبحت عام ١٧٨٩ غير واقعة لدرجة ، اي اصبحت منزهة عن كل ضرورة ومخالفة لكل عقل لدرجة انه كان لا بدّ لها ان تطيح بها الثورة الكبرى ، التي يتكلم عنها هيغل دوما بحماسة كبرى . وعليه ، كانت المَلَكية هنا غير واقعة والثورة واقعة . والمثل بالمثل ، فان كل شيء ، كان واقعا فيما مضى ، يصبـــح في مجرى التطور غير واقع ، ويفقد ضرورته وحقه في الوجود ، وصفته المعقولة . ومحل الواقع المحتضر يحل واقع جديد صالح للحياة ــ يحل محله سلمياً ، اذا كان القديم عاقلا بحيث يتقبل مصيره دون مقاومة ، وبالعنف اذا عارض القديم هذه الضرورة . وهكذا ، فان موضوعة هيغل هذه تتحول ، بفضل الديالكتيك الهيغلي نفسه ، الى نقيضها : فكل ما هو واقع في مجال التاريخ الانساني يغدو على مرور الزمن منافيـا للعقل ، فهو اذن في طبيعته بالذات غير معقول ، مطبوع مسبقـا بخاتم اللاعقلية ؛ وكل مـا هو معقول في رؤوس الناس ، محكوم عليه بأن يغدو واقعا مهما كان مناقضا للواقع المتصوّر القائم . فالموضوعة التي تقول بأن كل ما هو واقع ، هو معقول ، تتحول

وفقا لجميع قواعد طريقة التفكير الهيغلية ، الى موضوعة اخرى ، هي ان كل ما هو قائم يستحق الزوال* .

اما الاهمية الحقيقية والطابع الثوري للفلسفة الهيغلية (التي ينبغي لنا ان نقصر بحثنا عليها بوصفها المرحلة الختامية لكامل الحركة الفلسفية منذ كانط) ، فيقومان بالضبط ، في ان فلسفة هيغل وضعت حداً نهائياً لكل تصور عن الطابع النهائي لنتائج فكر الانسان وفعله . فالحقيقة التي كان ينبغي ان تعرفها الفلسفة ، لم تبد لهيغل بشكل مجموعة من العقائد الجامدة الجاهزة ، التي ليس على المرء بعد اكتشافها الا ان يحفظها عن ظهر قلب ؛ فالحقيقة قد انحصرت مذ ذاك في مجرى المعرفة نفسه ، في التطور التاريخي الطويل للعلم الذي يصعد من درجات دنيا الى درجات اعلى فاعلى في سلم المعرفة ولكن دون ان يبلغ ابداً نقطة لا يستطيع ان يستمر سيره منها بعد ايجاد ما يسمى الحقيقة المطلقة ، ولم يعد له بتاتاً ان يبقى حيث هو ، مكتوف الايدي ، يتأمل باعجاب الحقيقة المطلقة التي حصل عليها . هكذا يجري سواء أفي ميدان المعرفة الفلسفية ام في ميدان اي معرفة كانت وكذلك في ميدان النشاط العملي . فالتاريخ ، شأنه شأن المعرفة ، لن يكتمل نهائياً في وضع مثالي كامل للانسانية ؛ ان المجتمع الكامل و«الدولة» الكاملة انما هما شيئان لا يمكن لهما وجود الا في المخيلة . بل الامر على النقيض من ذلك ، فان جميع النظم الاجتماعية التي تتعاقب في التاريخ ليست سوى مراحل موقتة لتطور المجتمع الانساني ، الذي لا نهاية له ، من درجة دنيا الى درجة عليا . فكل درجة ضرورية ،

---

* تغيير لكلمات ميفيستو من ماساة غوته «فاوست» ، الجزء الاول ، المشهد الثالث (ومكتب فاوست») . الناشر .

ويبررها بالتالي العصر والظروف التي ترجع اليها بنشاتها . ولكنها تغدو زائلة لا يبررهـــا شيء ازاء ظروف جديدة ، ارقى تتطور شيئاً فشيئاً في احشائها بالذات . فهي مضطرة الى ان تخلي المكان لدرجة اعلى ، تنحط وتزول بدورها . وكما ان البرجوازية تحطم عملياً ، بواسطة الصناعة الكبيرة ، والمزاحمة ، والسوق العالمية ، كل المؤسسات القديمة المثبتة التي قدستها العصور ، كذلك تحطم هذه الفلسفة الديالكتيكية جميع التصورات عن الحقيقة المطلقة النهائية ، وعن اوضاع الانسانية المطلقة المناسبة لهـــا فليس هناك ، بالنسبـة للفلسفة الديالكتيكيـــة ، شيء نهائي ، مطلق ، مقدس . انها ترى حتمية الانهيار في كـل شيء ، ولا يوجد شيء يستطيع الصمود في وجهها الا المجرى المستمر للنشوء والزوال ، للصعود اللامتناهي من ادنى الى اعلى . وهي نفسهـــا ليست سوى انعكاس بسيط لهذا المجرى في الدماغ المفكر . ولها ايضـــاً ، في الحقيقة ، جانبها المحافظ ، فهي تبرر كل مرحلة معنية من مراحل تطور المعرفة والعلاقات الاجتماعية في زمانهما وظروفهما ، لا اكثر . فالصفة المحافظة لهذه الطريقة في الفهم هي نسبية ، وطابعها الثوري هو مطلق ــ وهذا هو الشيء الوحيد المطلق الذي تقبله الفلسفـــة الديالكتيكية .

لسنا بحاجة هنا الى بحث قضية مـا اذا كانت هذه الطريقة للفهم تنسجم كلياً مع الوضع الحاضر للعلوم الطبيعية ، هذه العلوم التي تتنبأ بنهاية ممكنة لوجود الارض نفسها ، وبنهايـــة اكيدة نسبياً للحياة عليها ، وتعلن على هذا الاساس ان تاريخ الانسانية لن يكون حركة صاعدة وحسب ، بل ايضاً حركة نازلة . ولكننا على كل حال ما زلنا بعيدين جداً عن المنعطف الذي يبدأ منه تاريخ المجتمع حركته النازلة ، ولا نستطيع ان نطلب من فلسفة هيغل

ان تهتم بقضية لم تضعها بعد العلوم الطبيعية المعاصرة لها في جدول الاعمال .

ولكن ما يجدر قوله هنا ، هو ان الآراء المعروضة فيما سبق ، لم يبينها هيغل بمثل الوضوح الذي بيناها نحن به . فهي نتيجة تقود اليها طريقته حتما ، ولكنه هو نفسه لم يستخلصها ابداً بمثل هذا الوضوح لسبب بسيط هو انه اضطر الى بناء منهج ، ومنهج فلسفي كان لا بد له تبعا للتقليد الناشئ منذ القدم ، ان ينتهي بهذه الحقيقة المطلقة او تلك . ان هيغل بالذات الذي يشير ، ولا سيما في كتابه «المنطق» ، الى ان هذه الحقيقة الخالدة ليست سوى المجرى المنطقي (resp.* : التاريخي) نفسه ، ان هيغل بالذات يرى نفسه مضطراً الى ان يضع لهذا المجرى نهاية ، لانه كان ينبغي عليه ان ينهي منهجه بشكل من الاشكال . فهو في «المنطق» يستطيع ان يصنع من هذه النهاية بداية جديدة لان النقطة النهائية ، الفكرة المطلقة ــ التي ليست مطلقة ، الا لانه لا يستطيع مطلقاً ان يقول عنها شيئاً ــ «تنقل» هناك نفسها (اي تتحول) الى الطبيعة ، وتعود من جديد الى نفسها في الروح ، اي في الفكر وفي التاريخ ولكن في نهاية كل الفلسفة ، لم يكن لمثل هذه العودة الى نقطة الانطلاق غير طريق واحد ، هو انه كان من الضروري تصوّر نهاية التاريخ على النحو التالي : الانسانية تتعرف الى هذه الفكرة المطلقة بالذات وتعلن ان معرفة الفكرة المطلقة هذه قد بلغتها فلسفة هيغل . ولكن هذا يعني ان كل ما هو عقائدي جامد في منهج هيغل يُعلَن الحقيقة المطلقة ، وهذا ما يناقض طريقته الديالكتيكية التي تنسف كل ما هو عقائدي جامد . وهذا يعني خنق

---

* ــ respective ــ اي . الناشر .

الجانب الثوري بضغط الجانب المحافظ المتضخم الى ما لا نهاية له ، لا في ميدان المعرفة الفلسفية وحسب ، بـل ايضاً في مجال النشاط التاريخي . فالانسانية التي توصلت بشخص هيغل الى الفكرة المطلقة ، كان ينبغي عليها ان تتقدم في الميدان العملي ايضاً الى درجة تستطيع معها ان تحقق هذه الفكرة المطلقة . وهذا يعني انه لم يكن يترتب على الفكرة المطلقة ان تقدم لمعاصريها متطلبات سياسية كبيرة جداً . ولهذا السبب ، نعرف في نهاية «فلسفة الحقوق» ان الفكرة المطلقة ينبغي عليها ان تتحقق في ظل ملكية مراتبية ، ملكية ، كان فريدريك ولهلم الثالث يعد بهـا رعاياه باصرار ولا يحقق وعده ، اي في ظـــل سيطرة الطبقات المالكـه سيطرة غير مباشرة ، محدودة ، معتدلة ، مكيفة للعلاقات البرجوازية الصغيرة القائمة في المانيا في هذا الزمان . ويراد ايضاً البرهنة لنا اعتبارياً عن ضرورة طبقة النبلاء .

وهكذا فان ضرورات المنهج الداخلية وحدها تفسر بصورة كافية ، كيف ان طريقة للتفكير ثورية لاقصى حد ، قد افضت الى استنتاج سياسي سلمي جداً . والشكـــل الخاص لهذا الاستنتاج يعود ، طبعاً ، الى واقع ان هيغل كان المانيا وكان ، مثل معاصره غوته ، يتسم بقدر كبير من ضيق الافق البرجوازي الصغير . وكان غوته ، مثل هيغل ، كل في ميدانه ، زفس الاولمب حقاً وفعلاً ، ولكنهما ، لا الاول ولا الثاني ، لم يستطيعا ان يتحررا تمامـــاً من ضيق الافق البرجوازي الصغير الالماني .

كل هذا لم يمنع ، مع ذلك ، منهج هيغل من ان يشمل ميداناً اوسع بكثير من اي منهـج سبقه ، ومن ان يعطي في هذا الميدان ثروة من الافكار ما زالت تدهشنا اليوم ايضـاً . وفي نظريـة تطور الروح (التي يمكن تسميتها موازياً لعلم تطور جنين الروح وعلم

احالة الروح ، تصويراً للوعي الفردي في مختلف مراحل تطوره ، التي تعتبر موجزاً للدرجات التي مر بها الوعي الانساني تاريخياً) ، والمنطق ، وفلسفة الطبيعة ، وفلسفة الروح ، وهذه الاخيرة موضحة في فروعها التاريخية المنفصلة : فلسفة التاريخ والحقوق والدين ، وتاريخ الفلسفة ، وعلم الجمال الخ ... في كل ميدان من هذه الميادين التاريخية المختلفة ، يحاول هيغل ان يجد خط التطور الذي يمر عبر هذا الميدان او ذاك وان يشير الى هذا الخط . وبما ان هيغل لم يكن نابغة خلاقاً فحسب بل كان علامة ذا معارف واسعة جداً ، فان عمله ، اينما قام به ، قد كوّن عصراً كاملا . ومن المفهوم ان ضرورات «المنهج» ارغمته كثيراً هنا على اللجوء الى انشاءات قهرية ، لا يزال خصومه الحقراء يطلقون بصددها الزعيق المزعج . غير ان هذه الانشاءات لا تقوم الا بدور اطارات ، صقالات للصرح الذي يبنيه . ومن لا يتوقف هنا طويلا بل يتوغل في اعماق الصرح الجليل ، يجد فيه كنوزاً لا عد لها ، ولا تزال تحتفظ بكل قيمتها حتى ايامنا هذه . ان «المنهج» بالضبط هو الشيء الزائل عند جميع الفلاسفة ، ذلك لان المناهج ناشئة عن حاجة للروح الانساني غير زائلة ، هي حاجة التغلب على جميع التناقضات . ولكن ، لو إن جميع التناقضات كانت قد ازيلت نهائيا ، لكنا وصلنا الى ما يسمى الحقيقة المطلقة ، ـ ولكان انتهى التاريخ العالمي ، ولكنه كان يجب عليه ، في الوقت نفسه ، ان يستمر حتى ولو لم يبق له شيء للعمل . وهكذا يظهر تناقض جديد ، تناقض لا يمكن حله ان الطلب من الفلسفة ان تحل جميع التناقضات ، يعني الطلب من الفيلسوف الواحد ان يفعل فعلا لا يستطيعه الا البشرية جمعاء في تطورها الى الامام . فحين ندرك هذا ـ والفضل في ذلك يعود الى هيغل اكثر مما الى اي شخص آخر ـ تنتهي كل الفلسفة ، بالمعنى القديم لهذه الكلمة .

ونترك «الحقيقة المطلقة» التي لا يمكن ان يدركها بهذا الطريق حتى كل انسان بمفرده ، ونسعى بالمقابل وراء الحقائق النسبية التي يمكننا ان ندركها ، وذلك في طريق العلوم الايجابيـــة ، معممين نتائجها بمساعدة الفكر الديالكتيكي . فمع هيغل تنتهي ، بوجه عام ، الفلسفة لان منهجه هو نتيجة جليلة لتطور الفلسفة السابق كله ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى لانه يرينا ، ولو عن غير ادراك منه ، الطريق الذي يقود من متاه المناهج هذا الى معرفة العالم معرفة حقيقية ، ايجابية .

ولا يصعب على المرء ان يفهم اي تاثير عظيم كان لا بدّ ان يمارسه المنهج الهيغلي في جو المانيا المشبع بالفلسفة . وكان ذلك سيراً مظفراً دام عشرات السنين ولم ينته اطلاقا بموت هيغل . بل على العكس ، فان سيطرة «الهيغلية» المطلقة قد بلغت اوجهـا في الحقبة الممتدة من ١٨٣٠ الى ١٨٤٠ بالضبط ، مسممة الى هذا الحد او ذاك حتى اعداءها . وفي تلك الحقبة بالذات نفذت مفاهيم هيغل بكثرة ، عن عمد ام عن غير عمد ، الى مختلف العلوم ، واعطت خميرة حتى للادب المبسط والصحافة اليوميـة ، من حيث يستمد «الوعي المثقف» المتوسط ، افكاره . ولكن هذا الظفر على طـول الخط لم يكن سوى مقدمة لحرب داخلية .

ان نظرية هيغل في مجموعها قد تركت ، كما راينا ، مجالا واسعا لمفاهيم عملية حزبية مختلفة كل الاختلاف . وفي ذلك العصر كان في الحياة النظرية بالمانيا امران يتسمان ، قبل غيرهما ، باهمية عملية : الدين والسياسة . وان من كانوا يقدرون منهج هيغل على الاخص ، كانوا يستطيعون ان يكونوا محافظين الى حد بعيد في كل من هذين الميدانين . ومن كانوا يعتبرون الطريقة الديالكتيكية شيئا رئيسيا ، كانوا يستطيعون ان ينتسبوا الى المعارضة المتطرفة ،

سواء اني السياسة ام في الدين . وهيغل نفسه بدا ، رغم ومضات الغضب الثوري الكثيرة في مؤلفاته ، انه يميل بوجه عام الى الناحية المحافظة : فمنهجه كلفه «اعمال فكر قاسية» اكثر بكثير مما كلفته طريقته . ونحو نهاية العقد الرابع تجلى الانقسام في المدرسة الهيغلية بشكل اوضح اكثر فاكثر فان من اسموهم بالهيغليين الشباب ـ الجناح اليساري ـ قد تخلوا شيئا فشيئا في النضال ضد البييتيست المؤمنين (٥) والرجعيين الاقطاعيين ، عن الموقف الفلسفي المتعالي من قضايا الساعة الملحة ، هذا الموقف الذي سمحت الحكومة من اجله بنظريتهم وحتى شملتهم بحمايتها . وحين صعد ، في سنة ١٨٤٠ ، النفاق المؤمن والرجعية الاقطاعية الاستبدادية الى العرش في شخص فريدريك ولهلم الرابع ، اقتضى الامر الوقوف علنا وجهاراً الى جانب هذا الحزب او ذاك . واحتدم النضال ، كما في السابق ، بالاسلحة الفلسفية ، ولكن هذه المرة ليس في سبيل اهداف فلسفية مجردة فان الحديث دار مباشرة حول تحطيم الدين الموروث والدولة القائمة واذا كانت الاهداف العملية النهائية تبرز في «Deutsche Jahrbücher» («دوتشه ياهربوخر») (٦) في لباس فلسفي على الاغلب ، فان الهيغلية الفتاة قد برزت في «Rheinische Zeitung» («الجريدة الرينانية») (٧) لعام ١٨٤٢ كفلسفة للبرجوازية الراديكالية الصاعدة ؛ ولم يكن الغطاء الفلسفي بالنسبة لها الا وسيلة لخدع المراقبة

ولكن طريق السياسة كانت آنذاك شائكة جداً ولذلك وجه النضال الرئيسي ضد الدين غير ان النضال ضد الدين في ذلك العصر ، لا سيما منذ ١٨٤٠ ، كان بصورة غير مباشرة ، نضالا سياسيا ايضا . وكان اول ما دفع في هذا الاتجاه ، كتاب شتراوس «حياة يسوع» ، الصادر عام ١٨٣٥ . وفيما

بعد ، قام برونو بـــاور ضد نظريـــة نشوء الخرافـــات الانجيلية المعروضة في هذا الكتاب وبرهن ان عدداً كبيراً من القصص الانجيلية قد وضعت من قبل مؤلفي الاناجيل انفسهم . وقد دارت المناقشة بين شتراوس وباور بشكل نضال فلسفي بين «ادراك الذات» وبين «الذات» . والقضية المتعلقة بكيفية نشوء القصص الانجيلية عن المعجزات ــ انشات في قلب المشاعة عن طريق تشكل الخرافات تشكلا غير واع ، يعتمد على التقليد ، ام اختلقها اولئك الذين الفوا الاناجيل انفسهم ، ــ اصبحت قضية معرفة ما يلي «الذات» ام «ادراك الذات» هو الذي يؤلف القوة الفاعلة الرئيسية في التاريخ العالمي . واخيراً جاء شتيرنر ، نبي الفوضوية الحالية ــ ومنه اخذ باكونين كثيراً ــ وتجاوز «ادراك الذات» ذا السيادة بـ «وحيد» ، ذي السيادة (١) .

ونحن لا نتعمق هنا في تفصيل هذا الجانب من مجرى تفسخ المدرسة الهيغلية . فما يهمنا اكثر هو ما يلي : ان العديدين من الهيغليين الشباب الاكثر حزما قد دفعتهم الضرورات العملية لنضالهم ضد الدين الايجابي ، نحو المادية الانكلو ــ فرنسية . ومد ذاك دخلوا في نزاع مع منهج مدرستهم . فالطبيعة التي تعتبرها المادية الامر الواقعي الوحيد ، ليست في منهج هيغل سوى «نقل» للفكرة المطلقة بمعنى تقهقر الفكرة ؛ وعلى كل حال ، فالتفكير والتاجه الفكري ، وهو الفكرة ، هما في هذا المنهج الشيء الاولي ، والطبيعة هي ما ينجم عنهما ، وهي لا توجد الا لان الفكرة ارادت ذلك . وقد تخبط الهيغليون الشباب باشكال مختلفة في هذا التناقض بالضبط .

في ذلك الوقت ظهر مؤلف فورباخ «جوهر المسيحية» ، فسحق بضربة واحدة هذا التناقض ، معلناً من جديد وبكل صراحة ، انتصار المادية . فالطبيعة توجد مستقلة عن كل فلسفة . فهي

الاساس الذي نمونا عليه نحن ، الناس ، نتاجها ايضاً . وخارج الطبيعة والانسان لا يوجد شيء ، اما الكائنات العلوية التي ولدت من مخيلتنا الدينية فليست سوى انعكاس خيالي لوجودنا نحن وهكذا فان الرقية قد رفعت ، و«المنهج» قد نُسف والقي جانباً ، والتناقض قد حُل بمجرد اكتشاف واقع ان هذا التناقض لا يوجد الا في المخيلة . ــ كان ينبغي ان يجتاز الناس الفعل الشاق لهذا الكتاب لكي يكوّنوا فكرة عن ذلك . فالحماسة كانت عامة : جميعنا غدونا ، بلحظة ، من انصار فورباخ ويمكن للمرء ان يتصور ، بعد قراءة «العائلة المقدسة» ، باية حماسة رحب ماركس بالمفهوم الجديد والى اية درجة ــ رغم كل التحفظات النقدية ــ قد تاثر به .

وحتى نواقص كتاب فورباخ عززت في ذلك الحين تاثيره واسلوبه الادبي الذي كان في بعض المواضع متصنعاً قد جلب له قراء كثيرين ، وعلى كل حال كان ذلك مثل نسمة عليلة بعد سنوات طويلة من سيطرة الهيغلية المجردة والغامضة . ويجب قول الشيء نفسه عن تاليه الحب تاليهاً مفرطاً . ويمكن عذر هذا التاليه ، اذا كان لا يمكن تبريره ، بصفته رد فعل ضد سلطان «التفكير الصرف» الذي غدا لا يطاق ابداً . ولكنه ينبغي لنا الا ننسى ان «الاشتراكية الصحيحة» (٩) قد تعلقت بهذين الجانبين الضعيفين بالضبط في مذهب فورباخ ، هذه «الاشتراكية» التي انتشرت منذ ١٨٤٤ في المانيا في بيئة «المثقفين» مثل الوباء والتي احلت الجملة الادبية محل البحث العلمي ، وتحرير الانسانية بواسطة «الحب» محل تحرير البروليتاريا عن طريق التحويل الاقتصادي للانتاج ، ــ اي ، بكلمة ، انها تورطت في ابشع انواع ادب التسلية وفي الثرثرة الحبية العاطفية . وكان السيد كارل غرون ممثلا نموذجياً لهذا الاتجاه .

وينبغي لنا الاّ ننسى ايضاً ان المدرسة الهيغلية تفسخت ، غير ان النقد لما يتغلب على الفلسفة الهيغليـــة وان شتراوس وباور ، اذ اخذ كل منهما احد مظهريها ، وجهه بوصفه سلاحاً للمناقشة ضد خصمه . ان فورباخ قد حطم المنهج والقى به جانباً بكل بساطة ولكن اعلان الفلسفة المعنية انها فلسفة خاطئة ، لا يعني بعد التغلب عليها . وكان من المستحيل ، بمجرد التجاهل ، اقصاء عمل جبار الى هذا القدر كالفلسفة الهيغلية التي أثرت تاثيراً كبيراً في تطور الامة الروحي . وكان ينبغي «رفعه»ـها في معناها ذاتها ، اي كان على النقد ان يزيل شكلها وان ينقد ما فيها من المحتوى الجديد الذي حصلت عليه . وسنرى فيما بعد كيف حلت هذه المهمة .

ولكن ثورة ١٨٤٨ طرحت جانباً ، في ذلك الوقت ، كل فلسفة بلا تكليف ، كما فعل فورباخ مع هيغل . وفي الوقت نفسه ، اقصي فورباخ نفسه ايضاً الى المؤخرة .

٢

ان المسالة الاساسية الكبرى في كل فلسفة ، ولا سيما في الفلسفة الحديثة ، انما هي العلاقة بين الفكر والكائن . فمنذ اقدم العصور ، حين كان الناس في جهل مطبق عن تكوينهم الجسدي ، وما استطاعوا تفسير الاحلام • فتوصلوا الى هذا الاعتقاد القائل بأن فكرهم ومشاعرهم ليس مصدرهـــا جسدهم نفسه ، بـــل

• حتى الآن يعتقد المتوحشون والهمج الذين هم على ادنى درجة من الحضارة ، اعتقاداً واسعاً ، ان صور الناس التي يرونها في احلامهم هي عبارة عن نفوس قد تركت الجسد لمدة من الزمن ؛ وعليه يعتبر الشخص الواقعي مسؤولا عن جميع الافعال التي رآها النائم في الحلم . وهذا ما لاحظه ، مثلا ، ايم تورن عند الهنود الحمر في غويانا عام ١٨٨٤ .

انه النفس التي تقطن هذا الجسد وتفارقه عند المـــوت ، ــ منذ ذلك الوقت وجب عليهم ان يمعنوا الفكر في العلاقة بين هذه النفس والعالم الخارجي فاذا كانت عند الموت تنفصل عن الجسد وتستمر في الحياة ، فليس هناك اي سبب لابتداع موت خاص لها . وهكذا نشأت فكرة خلودها الذي لم يبد ابداً في تلك الدرجة من التطور بمثابة تعزية بل بدا قدراً لا مرد له ، وغالباً جداً ما اعتبره الناس ومنهم الاغريق ، مثلا ، بلوى حقيقية . فليست الحاجة الدينية الى التعزية هي التي ادت في كل مكان الى الوهم المضجر بخلود الشخص ، بل ادى اليه واقع بسيط هو ان الناس ، اذ اعترفوا بوجود النفس ، لم يعرفوا كيف يفسرون لانفسهم ، بحكم ضيق الفكر العام ، الى اين تذهب هذه النفس بعد موت الجسد . وعلى هذا النحو تماماً ، نشأت عن تشخيص قوى الطبيعة ، الآلهة الاولى التي اتخذت اكثر فاكثر ، في مجرى تطور الدين ، صورة قوى خارج العالم ، حتى نشأ ، آخر الامر ، في رؤوس الناس ، نتيجة لعملية التجريد ــ وكدت اقول عملية التقطير ــ الطبيعية جداً في سير تطور الذهن ، من الآلهة المتعددة التي لها سلطان محدود الى هذه الدرجة اوتلك والتي تحدد بعضها بعضاً ، مفهوم الاله الوحيد ، المطلق للاديان التوحيدية

ان اعلى مسألة في الفلسفـة بكاملها ، مسألة علاقة الفكر بالكائن ، علاقة الروح بالطبيعة ، تمتد جذورها اذن ، بدرجة ليست اقل من درجة اي دين ، الى التصورات المحدودة والغامضة عند الناس في مرحلة الوحشية . ولكنه لم يكن من الممكن ان توضع بكل قوتها ، وان ترتدي كل اهميتها الا حينما استيقظ سكان اوروبـــا مـــن سباتهم الطويـــل في العصـــور الوسطـــى المسيحية ان مسألة علاقة الفكر بالكائن ــ مسألة ما هو الاول ، الروح ام الطبيعة ــ هذه المسألة التي لعبت ، مع ذلك ، دوراً كبيراً

في الفلسفة الكلامية (١٠) في القرون الوسطى ، قد اتخذت في معاكسة الكنيسة شكلا احدّ : أخُلق العالم من قبل الاله ام انه موجود منذ الازل ؟

وقد انقسم الفلاسفة الى معسكرين كبيرين وفقا للجواب الذي يجيبون به عن هذه المسالة . فاولئك الذين اكدوا ان الروح وجدت قبل الطبيعة والذين اعترفوا بالتالي ، في آخر الامر ، بهذه الصورة او تلك ، بخلق العالم ــ وعند الفلاسفة ، عند هيغل مثلا ، يتخذ خلق العالم في غالب الاحيان صورة غامضة خرقاء اكثر مما في المسيحية ــ الفوا معسكر المثالية . اما اولئك الذين اعتبروا الطبيعة هي الاصل فقد انتموا الى مختلف مدارس المادية .

ان هذين التعبيرين : مثالية ومادية ، لا يعنيان ، اصلا ، شيئا آخر ولا يستعملان هنا الا في هذا المعنى . وسنرى فيما بعد اي تشوش ينتج حين يضفى عليهما معنى آخر .

ولكن مسالة علاقة الفكر بالكائن ترتدي ايضا مظهراً آخر ما هي العلاقة بين افكارنا عن العالم المحيط بنا ، وهذا العالم نفسه ؟ وهل يستطيع فكرنا ان يعرف العالم الواقعي وهل نستطيع في تصوراتنا ومفاهيمنا عن العالم الواقعي ان نكوّن انعكاسا صادقا عن الواقع ؟ هذه المسالة تسمى في اللغة الفلسفية مسالة مطابقة الفكر والكائن . ان اكثرية الفلاسفة الكبرى قد اجابوا عنها بالايجاب . فعند هيغل ، مثلا ، يتضح هذا الجواب الايجابي من تلقاء نفسه : ان ما نعرفه في العالم الواقعي ، انما هو بالتدقيق مضمونه الفكري ، هو ما يجعل من العالم تحقيقا تدريجيا للفكرة المطلقة التي وجدت في مكان ما منذ الازل ، مستقلة عن العالم وقبله . فمن البديهي ان الفكر يستطيع ان يعرف ذلك المضمون الذي كان مسبقا مضمونا للفكرة . ومن المفهوم كذلك ان ما ينبغي برهانه هنا ، انما هو موجود بشكل خفي في المقدمة

بالذات . ولكن هذا لا يمنع مطلقاً هيغل من ان يستخلص من برهانه عن مطابقة الفكر والكائن النتيجة التالية : بما ان فكره يقر بصحة فلسفته ، فهذا يعني ان فلسفته هي الفلسفة الصحيحة الوحيدة ، وان الانسانية ، بحكم مطابقة الفكر والكائن ، ينبغي عليها ان تنقل فوراً هذه الفلسفة من حقل النظرية الى حقل التطبيق وتحول العالم بأسره طبقاً للمبادئ الهيغلية . ان هذا الوهم يلازم هيغل والفلاسفة الآخرين جميعهم تقريباً .

ولكن هناك عدداً من الفلاسفة الآخرين ممن يشكّون في امكانية معرفة العالم او ، على الاقل ، معرفته الكاملة . وبين الفلاسفة الحديثين ، تنبغي الاشارة الى هيوم وكانط اللذين قاما بدور على جانب كبير من الاهمية في تطوير الفلسفة . والشيء الحاسم في دحض هذا الرأي قد قاله هيغل ، بقدر ما كانت تسمح ذلك وجهة النظر المثالية . وما اضافه اليه فورباخ من الأعتبارات المادية ساخر اكثر مما هو عميق . ان اعظم دحض حاسم لهذه الاحابيل الفلسفية ولجميع الاحابيل الاخرى هو العمل وعلى الاخص التجربة والصناعة . فاذا استطعنا ان نبرهن على صحة فهمنا لظاهرة طبيعية بخلق هذه الظاهرة بانفسنا ، وباحداثها بمساعدة شروطها ، وباستخدامها ، فوق ذلك ، في سبيل اغراضنا ، ففي ذلك القضاء المبرم على مقولة كانط بشان «الشيء بذاته» والذي لا يمكن ادراكه . فان المواد الكيماوية المتكونة في الاجسام النباتية والحيوانية ، ظلت «اشياء بذاتها» الى ان اخذت الكيمياء العضوية بتحضيرها الواحدة بعد الاخرى ، وبذلك اصبح «الشيء بذاته» شيئاً من اجلنا ، كالاليزارين ، مثلا ، وهي المادة الصباغية في نبات الفوّة ، التي لم نعد نستخرجها من جذور الفوّة المزروعة في الحقول ، بل نسحبها بثمن ارخص وبصورة ابسط

جداً من قطران الفحم الحجري . وقد بقي نظام كوبرنيك الشمسي ، خلال ثلاثمائة سنة ، فرضية محتملة الصحة جداً ، الا انه كان ، رغم كل شيء ، فرضية . ولكن لما اثبت لوفيريه بالاستناد الى ارقام حصل عليها بفضل هذا النظام ، ليس فقط حتمية وجود كوكب مجهول ، بل ايضاً حدد بحساباته المكان الذي يجب ان يكون فيه هذا الكوكب في الفضاء السماوي ، ولما اكتشف غاله هذا الكوكب (١١) فعلا فيما بعد ، حينئذ تم البرهان على صحة نظام كوبرنيك . واذا كان الكانطيون الجدد في المانيا يجهدون انفسهم مع ذلك لاحياء افكار كانط ، وانصار اللادرية (١٢) في انجلترا لاحياء افكار هيوم (حيث لم تختف ابداً) ، رغم دحضها النظري والعملي منذ وقت طويل ، فهذا يعني خطوة الى الوراء من وجهة النظر العلمية ، ويؤلف من وجهة النظر العملية شكلا خجلا لتمرير المادية سراً ، والتبرؤ منها علانية .

ولكن خلال هذه الحقبة الطويلة التي امتدت من ديكارت الى هيغل ، ومن هوبس الى فورباخ ، لم تدفع الفلاسفة الى الامام قوة الفكر المحض وحدها ، كما كانوا يتصورون بل على العكس فان ما دفعهم في الحقيقة الى الامام ، انما كان على الاخص تطور العلوم الطبيعية والصناعة تطوراً قوياً عاصفاً متسارعاً ، وعند الماديين كان ذلك باديا للعيان منذ البداية . ولكن المذاهب المثالية كانت هي ايضاً تمتلىء اكثر فاكثر بمحتوى مادي ، ساهية ، بواسطة مفهوم عن وحدة الوجود ، الى ايجاد حل للتضاد بين الروح والمادة . وفي النهاية ، آل منهج هيغل الى ان اصبح لا يمثل ، من حيث طريقته ومحتواه ، سوى مادية مقلوبة رأساً على عقب مثالي .

يتضح من كل ما سبق ، لماذا اخذ شتاركه ، في وصفه

لفورباخ ، يدرس اولا موقف هذا الاخير من هذه المسألة الاساسية ـ علاقة الفكر بالكائن وبعد مقدمة موجزة ، ـ حيث عرض مفاهيم الفلاسفة الاسبقين وخاصة منذ كانط ، بلغة مشحونة بتعابير فلسفية ثقيلة ، وحيث هيغل لم يحظ بالتقدير الذي يستحقه ، لان شتاركه يتمسك ببعض المقاطع من مؤلفاته بصورة شكلية مفرطة ، ـ نجد عرضا مفصلا عن سير تطور «الميتافيزياء» الفورباخية نفسها ، حسبما انعكس هذا التطور بتتابع في مؤلفات هذا الفيلسوف المتعلقة بهذا الموضوع لقد كتب هذا العرض بعناية وهو يتصف بوضوح التركيب . ولكن ما يضر هذا العرض ، كما يضر كتاب شتاركه كله ، انما هو الثقل الزائد للتعابير الفلسفية التي ليس استعمالها امراً لا مفر منه . ويزداد هذا الثقل الزائد بسبب ان المؤلف لا يتقيد باستعمال تعابير تعود الى مدرسة واحدة ، او تعابير فورباخ نفسه على الاقل ، بل يخلط تعابير ترجع الى تيارات مختلفة ، ولا سيما تلك منها التي تنتشر اليوم مثل الوباء باسم تيارات فلسفية .

ان سير تطور فورباخ هو سير تطور هيغلي ـ وان لم يكن فورباخ ابداً هيغلياً منسجماً تماماً ـ نحو المادية وفي درجة معينة من هذا التطور ، قطع فورباخ كل صلة له مع المنهج المثالي لسالفه . واخيراً استحوذ عليه ، بقوة لا تقهر ، الادراك ان وجود «الفكرة المطلقة» الذي سبق وجود الارض عند هيغل ، «الوجود المسبق للمقولات المنطقية» قبل ظهور العالم ، ليس سوى بقية خيالية من الاعتقاد بخالق من عالم الغيب ؛ وان عالم الاشياء المدرك بالحس والذي ننتمي اليه نحن انفسنا هو العالم الوحيد الواقعي اما ادراكنا وتفكيرنا ، فمهما يبدوا فوق الشعور فانهما نتاج جهاز مادي جسمي هو الدماغ . ليست المادة نتاج الروح ، بل الروح

نفسه ليس سوى اعلى نتاج للمادة . فهذه ، طبعاً ، مادية بحتة . غير ان فورباخ ، حين وصل الى هذه النقطة ، وقف عندها فجاة ، ولم يستطع التغلب على الوهم الفلسفي الشائع ، الوهم الذي لا يتعلق بجوهر الامر ولكن يتعلق بكلمة «المادية» . فهو يقول :

«المادية بالنسبة لي هي اساس بناء الكنه الانساني واساس المعرفة الانسانية ؛ ولكنها ليست بالنسبة لي ، ما هي بالنسبة للعالِم في وظائف الاعضاء والعالِم في الطبيعيات ، بمعنى الكلمة الضيق ، مثلا بالنسبة لموليشوت — وما هي بالضرورة بالنسبة لهم وفقا لوجهة نظرهم واختصاصهم اي ليست هي بالنسبة لي البناء نفسه . فانا متفق تماما مع الماديين فيما يتعلق بالماضي ولست متفقا معهم فيما يتعلق بالمستقبل»

وفورباخ يخلط هنا بين المادية كمفهوم عام عن العالم يقوم على فهم معين للعلاقة بين المادة والروح ، وبين ذلك الشكل الخاص الذي وجد فيه هذا المفهوم عن العالم تعبيراً عنه في مرحلة تاريخية معينة ، هي القرن الثامن عشر . وهو فضلا عن ذلك ، يخلط بين هذه المادية وبين ذلك الشكل المبتذل العامي ، الذي تستمر به مادية القرن الثامن عشر اليوم في عقول علماء الطبيعيات والاطباء ، والذي نادى به في العقد السادس المبشرون المتجولون بوخنر وفوخت وموليشوت . ولكن المادية ، شانها شان المثالية ، قد مرت بعدة مراحل من التطور . فعند كل اكتشاف يفتح عهداً جديداً حتى في ميدان علم تاريخ الطبيعة ، كان ينبغي حتماً على المادية ان تغير شكلها ومنذ ان فُسر التاريخ بدوره تفسيراً مادياً افتتح هنا ايضا طريق جديد لتطور المادية .

ان مادية القرن المنصرم (١٣) كانت في الغالب مادية ميكانيكية

لان الميكانيك ، ولا سيما علم الميكانيك المتعلق بالاجسام الصلبة (الارضية والسماوية) ـ وبالاختصار ـ ميكانيك الجاذبية ، كان العلم الوحيد الذي وصل في ذلك الوقت ، من بين جميع العلوم الطبيعية ، الى درجة معينة من الكمال . فالكيمياء كانت ما تزال ترتدي شكلا ساذجا ونظرية الفلوغيسطون (١٤) كانت ما تزال تسيطر فيها والبيولوجيا كانت ما تزال في القماط : العضوية النباتية والحيوانية لم تدرس الا في خطوطها الكبرى ، وقد عُللت باسباب ميكانيكية بحتة . والانسان ، برأي ماديي القرن الثامن عشر ، كان عبارة عن آلة كما كان الحيوان بنظر ديكارت . فتطبيق اصول الميكانيك بهذا الشكل الوحيد المطلق على العمليات التي هي من طبيعة كيماوية وعضوية ، حيث لا تزال قوانين الميكانيك تفعل فعلها ، ولكنهـــا ابعدت الى الصف الاخير من قبل قوانين اخرى ارفع ، هذا التطبيق انما يؤلف اول نظرة ضيقة خاصة ، ولكن لا مفر منهـا في ذلك الوقت ، في المادية الكلاسيكية الفرنسية .

اما النظرة الضيقة الخاصة الثانية لهـذه الماديـة ، فهـــي عجزها عن فهم العالم بوصفه حركة تطور ، بوصفه مادة تتطور تطوراً تاريخياً متواصلا . وهذا ما كان يتفق ووضع العلوم الطبيعية في ذلك الوقت ، وطريقة التفكير الفلسفي الميتافيزيائية ، اي المنافية للديالكتيك ، المرتبطة بهذا الوضع . ان الطبيعة في حركة دائمة : كان هذا معروفاً في ذلك الحين ايضاً . ولكن هذه الحركة ، حسب المفهوم المنتشر في ذلك العصر ، كانت تدور دائماً ايضاً في حلقة واحدة ، وعلى هذه الصورة ، بقيت من حيث الجوهر ، في مكان واحد : انها كانت تسفر دائماً عن النتائج نفسها . ان هذا المفهوم كان آنئذ لا مفر منه . فنظرية كانط ، الخاصة بنشوء النظام الشمسي ، كانت قد ظهرت للتو ولم تبد بعد الا شيئاً طريفاً . اما تاريخ تطور

الارض ، الجيولوجيا ، فكانت غير معروفة على الاطلاق . وفي ذلك الوقت لم يكن في مستطاع العلم بوجه عام ان يطرح فكرة نشوء الكائنات الحية الحالية عن طريق التطور الطويل الذي يؤدي من البسيط الى المعقد . وعليه ، فالمفهوم اللاتاريخي عن الطبيعة كان لا بد منه . وهذا النقص لا تمكن نسبته الى فلاسفة القرن الثامن عشر ، مع العلم ان هيغل نفسه ، لم يغرب عليه هذا المفهوم . ان الطبيعة عند هيغل ، بوصفها «نقلا» بسيطاً للفكرة ، لا تستطيع ان تتطور في الزمن ؛ فهي لا تستطيع ان توسع تنوعها الا في المكان ، وهي على هذا النحو تظهر ، اذ انها مضطرة الى تكرار حركات التطور نفسها ، جميع درجات التطور التي تحتوي عليها ، في آن واحد وواحدة بجانب الاخرى وهذه الخرافة القائلة بالتطور في المكان وخارج الزمن ــ والزمن هو الشرط الاساسي لكل تطور ــ فرضها هيغل على الطبيعة على وجه الدقة في وقت بلغت فيه الجيولوجيا ، وعلم الاجنّة ، وفيزيولوجيا النباتــات والحيوانات ، والكيميــاء العضوية ، مستوى كافياً ، في وقت ظهرت فيه في كل مكان ، على اساس هذه العلوم الجديدة ، فرضيات عبقرية سبقت نظرية التطور التي ظهرت فيما بعد (مثلا ، غوته ولامارك) . غير ان المنهج هكذا امر ، وارضاء للمنهج كان على الطريقة ان تخون نفسها

وفي ميدان التاريخ ساد نفس انعدام المفهوم التاريخي للاشياء . وهنا استلفت النظر النضال ضد بقايا القرون الوسطى . فالقرون الوسطى اعتبروها انقطاعاً بسيطاً في سير التاريخ ، سببته البربرية العامة التي دامت الف سنة ولم يعر احد انتباهاً الى النجاحات الكبيرة التي تحققت خلال القرون الوسطى الى اتساع الميدان الثقافي في اوروبا ، الى الامم الكبيرة القادرة على الحياة ، التي نشأت هنا بجوار بعضهــا بعضاً ، وأخيراً ، الى النجاحات

التكنيكية الكبرى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وبذلك غدا المفهوم الصحيح عن الصلة التاريخية الكبيرة شيئاً مستحيلا ، فكان التاريخ ، في افضل الاحوال ، مجموعة من الامثال والصور في خدمة الفلاسفة ، لا اكثر .

ان المبتذلين الذين اخذوا على عاتقهم في العقد السادس دور مروجي المادية في المانيا ، لم يتجاوزوا في شيء حدود تعاليم معلميهم . والنجاحات الجديدة والجديدة التي حققتها العلوم الطبيعية لم تفدهم بشيء اللهم الا في تقديم براهين جديدة ضد وجود خالق الكون . ولم تكن في افكارهم حتى نية الاستمرار في تطوير النظرية . ان المثالية التي نضبت حكمتها في ذلك الحين نهائياً والتي اصيبت بجرح مميت من قبل ثورة ١٨٤٨ ، انما سرّها ان ترى المادية تسقط في ذلك الحين الى درك اسفل . وكان فورباخ على حق تماماً حين نفى عنه كل مسؤولية بصدد هذه المادية ؛ ولكنه لم يكن من حقه ان يخلط بين تعليم المبشرين المتجولين وبين المادية على العموم .

ومع ذلك ، هنا حالتان ينبغي الا تغيبا عن البال . من ناحية ، ان العلوم الطبيعية في عهد فورباخ كانت تمر بعملية اختمار شديد ، لم تلق تكاملها النسبي الموضّح الا خلال السنوات الخمس عشرة الاخيرة . وقد جمعت آنذاك كمية عظيمة لا سابق لها من المواد الجديدة للمعرفة ، ولكنه لم يصبح بالامكان الا في الازمنة الاخيرة ، اكتشاف العلاقة وبالتالي اقامة الانتظام في هذه الفوضى من المكتشفات التي تتراكم بسرعة فائقة بعضها فوق بعض . والحقيقة ان فورباخ كان معاصراً لثلاثة اكتشافات فائقة الاهمية ، وهي اكتشاف الخلية ، ونظرية تحول الطاقة ، ونظرية التطور المسماة باسم داروين . ولكن كيف تم للفيلسوف الذي كان يعيش منعزلا

في الريف ان يتتبع بدقة تقدم العلم حتى يتمكن من تقدير مثل هذه المكتشفات حق قدرها ، في حين ان علماء الطبيعيات انفسهم كانوا يشكون في ذاك العصر فيما او انهم كانوا لا يعرفون كيفية استخدامها ؟ الذنب في ذلك انما مرده فقط الى اوضاع المانيا المؤسفة التي كانت تجعل كراسي تدريس الفلسفة يحتلها التافهون الاختياريون المتفلسفون وحدهم ، في حين ان فورباخ ، الذي كان ارفع من جميع هؤلاء التافهين الى ما لا حد له ، كان عليه ان يحيا حياة الفلاحين وان يقبع في قرية نائية . اذن ليس الذنب ذنب فورباخ اذا كان المفهوم التاريخي عن الطبيعة الذي غدا الآن ممكناً والذي قضى على كل ما اتسمت به المادية الفرنسية من ضيق ، قد بقي في غير متناوله

ومن ناحية ثانية ، كان فورباخ على حق تماماً حين قال ان المادية العلمية الطبيعية وحدها دون غيرها «تؤلف اساس بناء المعرفة الانسانية ولكن ليس البناء نفسه» ، لاننا لا نحيا في الطبيعة وحدها ، ولكن في المجتمع الانساني ايضاً ، وهذا الاخير له ، كما للطبيعة ، تاريخه في التطور وعلمه فالمهمة ، اذن ، توفيق علم المجتمع ، اي مجموع العلوم المسماة بالعلوم التاريخية والفلسفية ، مع الاساس المادي واعادة بنائه على هذا الاساس غير انه لم يكتب لفورباخ انجاز هذه المهمة فقد ظل هنا ، رغم «الاساس» ، غير طليق من اغلال المثالية القديمة ، وقد اقر هو نفسه بذلك حين قال «انا متفق تماماً مع الماديين فيما يتعلق بالماضي ولست متفقاً معهم فيما يتعلق بالمستقبل» . وهنا بالضبط ، في المجال الاجتماعي ، لم «يتقدم» فورباخ نفسه ولم يتجاوز وجهة نظره لعام ١٨٤٠ او لعام ١٨٤٤ ، وهذه المرة ايضاً ، كان ذلك على الاخص بسبب انعزاله الذي اضطره

الى ان يضع افكاره في عزلة كاملة ــ وهو الذي كان يحتاج من حيث طابعه اكثر من اي فيلسوف آخر الى ان يتصل بالمجتمع ــ بدلا من ان يبدعها في لقاءات ودية او عدائية مع من هم من منزلته . اما الى اية درجة عالية بقي مثاليا في هذا المجال ، فهذا ما سنتحدث عنه بالتفصيل فيما بعد

لنلاحظ هنا ايضا ان شتاركه يرى مثالية فورباخ حيث لا وجود لها .

«فورباخ مثالي ؛ انه يؤمن بتقدم الانسانية» (ص ١٩) . «ومع ذلك ، تبقى المثالية اساسا ، قاعدة لكل شيء . ان الواقعية فقط تقينا من الضلال حين نتابع مساعينا المثالية اليست الشفقة ، والحب ، وخدمة الحقيقة والحق قوى مثالية ؟» (ص ٨)

اولا ، تُطلَق المثالية هنا على شيء لا يعني سوى السعي الى اهداف مثلى ولكن هذه الاهداف لا ترتبط بالضرورة الا بمثالية كانط و «حكمه القاطع» . الا ان كانط نفسه كان قد اسمى فلسفته «المثالية السابقة للتجربة» لا لانها تقول ، فيما تقول ، بالمثل الاخلاقية ايضا ، ولكن لاسباب اخرى يعرفها شتاركه طبعا ان الوهم القائل بان جوهر المثالية الفلسفية يتألف من الايمان بمثل اخلاقية ، اي اجتماعية ، قد ولد خارج الفلسفة ، عند التافهين الضيقي الافق الالمان الذين التقطوا فتات المعرفة الفلسفية الضرورية لهم من اشعار شيلر . ان احدا لم ينتقد ، باشد مما انتقد هيغل ، «الحكم القاطع» العاجز الذي جاء به كانط (عاجز لانه يطلب المستحيل ولا ينتهي بالتالي الى اي شيء واقعي) ، ولم يهزأ احد بصورة اشد مما هزأ هيغل من ميل التافه الضيق الافق الى احلام حول المثل التي لا تتحقق ، هذا الميل الذي نشره

شيلر (راجـــع ، مثلا ، كتـــاب «الفينومينولوجيـــا» اي «علم الظاهرات الشاذة»). ومع ذلك ، كان هيغل مثالياً كاملا

ثانياً ، لا يمكن في حال من الاحوال تجنب واقع ان كل ما يحفز الانسان للنشاط ، انما يجب ان يمر بدماغه : حتى الأكـل والشرب يبدأهما الانسان بتاثير الشعور بالجـــوع والعطش الذي ينعكس في دماغه ، ويكف عن الأكل والشرب عندما ينعكس في دماغه الشعور بالشبع ان تاثيرات العالم الخارجي على الانسان تنطبع في دماغه ، وتنعكس فيه على شكل احاسيس ، وافكار ، واندفاعات ، ورغبات ، وبالاختصار ، على شكل «المساعي المثلى» ، وتغدو على هذا الشكل «القوى المثلى» . واذا كان هذا الشخص «يتابع المساعي المثلى» ويعترف بتاثير «القوى المثلى» فيه ، وكان هذا كافياً من اجل ان يجعل منه مثالياً ، فان كـــل شخص متطور تطوراً عادياً الى حد ما ، انما هو مثالي بحكم الطبيعة ، ويبقى من غير المفهوم شيء واحد ، هو كيف يمكن ان يكون هناك ماديون ؟

ثالثا ، ان الاعتقاد بان الانسانية – في الوقت الحاضر على الاقل – تسير بوجه عام الى الامام ، لا يمت بصلة على الاطلاق الى التضاد بين المادية والمثالية . ان الماديين الفرنسيين قد تمسكوا تقريباً تمسك المتعصبين بهذا الاعتقاد – ولا اقل من فولتير وروسو المؤمنين بوجود الله بوصفه خالق العالم (١٥) – وقدموا له في غالب الاحيان اكبر التضحيات الشخصية . واذا كان احد قد كرس حياته كلها لاجل «خدمة الحقيقة والحق» – بمعنى الكلمة الجيد – فهو ديدرو مثلا . وحين يسمي شتاركه كل ذلك مثالية ، فانه لا يبين الا ان كلمة المادية ، ومعها كل التضاد بين الاتجاهين الاثنين ، قد فقدت عنده كل معنى .

ان شتاركه يتراجع هنا في الواقع ـ ولـو عن غير ادراك ـ تراجعاً لا يغفر ، امام الوهم الملازم للتافه الضيق الافق ضد اسم المادية ، هذا الوهم الذي تاصل في التافه الضيق الافق بتاثير افتراء الكهنة على المادية تاثيراً دام سنوات طويلة ان التافه الضيق الافق يفهم من الماديـة الشره ، والسكر ، والشهوة ، والملذات الجسدية ، والغرور ، وحب المال ، والبخل ، والطمع ، والركض وراء الارباح ، والمضاربات في البورصة ـ اي بالاختصار ، كل المآثم الخسيسة التي يرتكبها هو نفسه خفية . ويفهم من المثالية الايمان بالفضيلة ، والحب للانسانية جمعاء ، وبوجه عام ، الايمان «بالعالم الافضل» الذي ينادي به امام الآخرين ، ولكنه هو نفسه لا يعتقد به الا حين يتوجب عليه ان يجتاز مرحلة الافلاس او الصداع بعد السكر التي تتبع بالضرورة تبذيره «المادي» المعتاد . وهو يردد ، عند ذلك ، اغنيته المفضلة : ما هو الانسان ؟ نصف حيوان ونصف مـلاك .

اما فيما عدا ذلك فان شتاركه يحاول بجد ان يدافع عن فورباخ دون حملات ونظريات الاساتذة الذين يضجون في الوقت الحاضر في المانيا باسم الفلاسفة . وهذا ، بالطبع ، امر هام بالنسبة لاولئك الذين يهتمون بالذرية المنحطة للفلسفة الكلاسيكية الالمانية؛ وقد كان هذا يبدو ضرورياً لشتاركه نفسه . ولكننا نعفي القارئ منه

٣

ان مثالية فورباخ الحقيقية تنكشف حالما ننتقل الى فلسفته في الاخلاق والدين . ان فورباخ لا يريد مطلقاً ان يلغي الدين ؛ انما يريد ان يحسنه . والفلسفة ذاتها ينبغي ان تذوب في الدين .

وان مراحل الانسانية لا تتميز الواحدة عن الاخرى الا بالتبدلات الدينية . فالحركة التاريخية المعنية لا تبلغ اساسها الا بعد ان تدخل عميقا في قلب الانسان والقلب ليس شكلا للدين ، ولذلك لا يجوز القول ان الدين يجب ان يكون في القلب ايضا ، فهو جوهر الدين» (ورد في كتاب شتاركه ، ص ١٦٨)

فالدين تبعا لنظرية فورباخ ، هو علاقة قلبية بين الانسان والانسان قائمة على العاطفة ، علاقة كانت حتى الآن تبحث عن حقيقتها في الانعكاس الخيالي للواقع ـ بواسطة اله واحد او عدة آلهة ، هذه الانعكاسات الخيالية للصفات الانسانية ـ وتجدها الآن ، مباشرة ودون اي وسيط ، في الحب بين «انا» و «انت» وهكذا فان الحب الجنسي يصبح ، في النهاية ، عند فورباخ احد الاشكال الرفيعة ، اذا لم يكن ارفعها لاعتناق دينه الجديد .

ان العلاقات بين الناس القائمة على العاطفة ، ولا سيما العلاقات بين الجنسين ، موجودة منذ ان وجد الناس اما الحب الجنسي خاصة ، فقد ارتدى في بحر القرون الثمانية الاخيرة اهمية واحتل مكانا اصبح معهما المحور اللازم الذي يدور حوله كل الشعر ان الاديان الوضعية القائمة تنحصر في كونها تعطي اسمى تقديس لتنظيم الحب الجنسي من قبل الدولة ، اي قوانين الزواج ، ومن الممكن ان تختفي هذه الاديان كليا منذ الغد ، دون ان يطرأ اقل تبديل على الحب وعلى الصداقة فالدين المسيحي في فرنسا قد اختفى حقا من ١٧٩٣ الى ١٧٩٨ الى حد ان نابليون نفسه لم يستطع ان يعيده بلا مقاومة ولا صعوبة . ومع ذلك لم تظهر ، طوال هذه المدة من الزمن ، اي حاجة الى الاستعاضة عنه بشيء من نوع الدين الجديد الذي اعلنه فورباخ .

ان مثالية فورباخ تتلخص هنا في انه لا يعتبر جميع علاقات الناس القائمة على الميل المتبادل ، اي الحب الجنسي ، والصداقة ، والشفقة ، ونكران الذات الخ . . ، كما هي بذاتها ، دون الذكريات المرتبطة بدين خاص يرجع ، حسب رأيه ايضا ، الى الماضي فهو يدعي ان هذه العلاقات لا تبلغ كل قيمتها الا بعد تقديسها بكلمة الدين . والشيء الرئيسي بالنسبة اليه ليس وجود هذه العلاقات الانسانية البحتة بل نظرة الناس اليها نظرتهم الى دين جديد حقيقي . وهو لا يوافق على ان يعترف بقيمتها الكاملة الا حين تطبع بخاتم الدين . وكلمة religion (الدين) تتحدر من فعل religare • وكانت تعني في البدء الصلة . وعليه فان كل صلة متبادلة بين شخصين هي دين . وامثال هذه التلاعبات في اصل الكلمات تؤلف آخر مخرج للفلسفة المثالية ينسب الى الكلمات لا المعنى الذي اكتسبته خلال التطور التاريخي لاستخدامها الفعلي ، بل المعنى الذي كان ينبغي ان تأخذه تبعاً لاصلها اللغوي . وكيلا تزول من اللغة كلمة الدين العزيزة على الذكريات المثالية ، يرفع الى مصاف «الدين» الحب الجنسي ، والعلاقات بين الجنسين فهكذا تماما كان يحاكم في الاربعينيات الاصلاحيون الباريسيون من اتجاه لويس بلان ، الذين كانوا يتصورون ايضا الانسان بلا دين كانه وحش ، والذين كانوا يقولون لنا : **Donc, l'athéisme c'est votre religion!. وحين سعى فورباخ الى اقامة الدين الحقيقي على اساس مفهوم عن الطبيعة ، مادي في جذوره ، اشبه ذاك الذي اعتبر الكيمياء الحديثة انما هي كيمياء الحجر الفلسفي الحقيقية . واذا كان الدين

• وصل . الناشر .

•• اذن ، الالحاد انما هو دينكم . الناشر .

يستطيع ان يستغني عن اله ، فان كيمياء الحجر الفلسفي تستطيع ايضاً ان تتخلى عن حجر الفلاسفة . وعلاوة على ذلك توجد صلة وثيقة بين كيمياء الحجر الفلسفي والدين ان الحجر الفلسفي ينطوي على كثرة من الخصائص تشبه خصائص اله ، وقد اسهم الكيمياويون الاغريق والمصريون ، خلال القرنين الاولين بعد الميلاد ، في وضع المذهب المسيحي ، كما تثبت ذلك المعطيات التي قدمها كوب وبيرتلو

ان تاكيد فورباخ بان «مراحل الانسانية لا تتميز الواحدة عن الاخرى الا بالتبدلات الدينية» هو خطأ محض . فان انعطافات تاريخية كبيرة قد حدثت دون ان تكون مصحوبة بتبدلات دينية الا بمقدار ما تؤخذ في الحسبان اديان العالم الثلاثة القائمة حتى الان : البوذية والمسيحية والاسلام . والاديان القديمة التي نشأت عفويا بين القبائل والامم ، لم يكن لها طابع الدعاية ، وكانت تفقد كل قدرة على المقاومة منذ ان يتحطم استقلال القبائل والشعوب المعنية . وعند الجرمانيين كان يكفي لحدوث ذلك اتصال بسيط مع الامبراطورية الرومانية العالمية التي بدأت تتفسخ ، ومع دينها المسيحي العالمي الذي اعتنقته روما للتو ، والذي كان يستجيب لوضعها الاقتصادي والسياسي والروحي . وفيما يخص هذه الاديان العالمية وحسب ، التي نشأت بصورة اصطناعية الى هذا الحد او ذاك ، ولا سيما فيما يخص المسيحية والاسلام ، يمكن القول ان الحركات التاريخية العامة تصطبغ بصبغة دينية ولكن حتى في مجال التشار المسيحية ، لا تصطبغ الثورات التي لها اهمية عامة حقا ، بهذه الصبغة الا في المراحل الاولى من نضال البرجوازية لاجل تحررها ، في الحقبة الممتدة من القرن الثالث عشر حتى القرن السابع عشر ضمنا . وهذا لا يُفسر ، كما يعتقد فورباخ ، بصفات

قلب الانسان وحاجته الى الدين ، بل يفسر بكل تاريخ القرون الوسطى التي لم تعرف سوى شكل واحد من الايديولوجية : الدين واللاهوت . ولكن ، في القرن الثامن عشر ، حين بلغت البرجوازية من القوة ما يكفي لكي تكوّن ايديولوجية خاصة بها ، مناسبة لوضعها الطبقي ، قامت بثورتها الكبرى والكاملة ، الثورة الفرنسية ، مستعينة بالافكار الحقوقية والسياسية فقط ، غير مهتمة بالدين الا بقدر ما يعيق طريقها . ولكنه لم يخطر في بالها ان تستعيض عن الدين القديم بدين جديد ما ومعروف اي اخفاق مني به روبسبيير في هذا المجال

ان امكانية ابراز المشاعر الانسانية البحتة في علاقاتنا مع امثالنا ضئيلة الى حد كاف في مجتمع قائم على تضاد الطبقات والسيطرة الطبقية ، في مجتمع نحن مضطرون الى العيش فيه الآن ؛ فليس لنا اي سبب لكي نقلل ايضاً وايضاً من هذه الامكانية ، وذلك برفع هذه المشاعر الى مستوى الدين . وعلى هذه الصورة تماماً ، غَمَّض علينا علم التاريخ الدارج ، ولا سيما في المانيا ، فهم المعارك الطبقية التاريخية الكبرى ، ولسنا في حاجة لجعل هذا الفهم مستحيلا تماماً بتحويل تاريخ هذا النضال الى ملحق بسيط لتاريخ الكنيسة . ومن هذا وحده نرى كيف ابتعدنا اليوم عن فورباخ . ان «اجمل مقاطع» مؤلفاته التي تمجد الدين الجديد ، دين الحب ، تستحيل اليوم حتى قراءتها .

والدين الوحيد الذي يدرسه فورباخ دراسة معمقة انما هو المسيحية ، الدين العالمي للغرب ، القائم على التوحيد . وهو يبين ان الاله المسيحي ليس سوى الانعكاس الخيالي للانسان . بيد ان هذا الاله هو ، بدوره ، نتاج حركة طويلة من التجريد ، والخلاصة

المكثفة لعدد كبير من الآلهة القدامى عند القبائل والامم كذلك الانسان ، الذي هذا الاله هو انعكاس له ، ليس انساناً حقيقياً ، ولكنه خلاصة مماثلة لعدد كبير من الناس الحقيقيين ؛ انه انسان مجرد ، اي انه بالتالي ، صورة فكرية ايضاً . وفورباخ نفسه الذي يبشر ، في كل صفحة ، بالانغماس في الشهوات الجسدية ويدعونا الى الاستغراق في العالم الملموس والواقع ، يسقط في التجريد الكامل ، حين يضطر الى الحديث عن العلاقات بين الناس ، غير العلاقات الجنسية

ان فورباخ لا يرى في هذه العلاقات غير جانب واحد ــ الاخلاق . وهنا يذهلنا من جديد فقر فورباخ المدهش بالمقارنة مع هيغل ان علم الاخلاق عند هيغل او نظريته الاخلاقية ، هي فلسفة الحقوق وهي تحتوي على ١ ــ الحقوق المجردة ، ٢ ــ السلوك الاخلاقي ، ٣ ــ ميدان الاخلاق الذي يشمل بدوره : العائلة ، المجتمع المدني ، الدولة . وبقدر ما يتسم الشكل هنا بالمثالية ، بقدر ما يكون المحتوى واقعياً . والى جانب الاخلاق ، يشمل هذا المحتوى كل ميدان الحقوق ، والاقتصاد ، والسياسة اما عند فورباخ فالامر بالعكس تماماً فهو من ناحية الشكل واقعي ، اذ يتخذ نقطة الانطلاق الانسان ، ولكنه لا ينبس ببنت كلمة عن العالم الذي يعيش فيه هذا الانسان ، ولهذا يظل الانسان عند فورباخ دوماً نفس الانسان المجرد الذي يتمثل في فلسفة الدين هذا الانسان لم تحمله اية امرأة في احشائها ، بل انبثق عن اله الاديان التوحيدية كما تنبثق الفراشة من الشرنقة . ولذا لا يعيش هذا الانسان في عالم واقعي ، متطور ومعين تاريخياً . ورغم انه على صلة مع اناس آخرين ، الا ان كل واحد منهم مجرد بقدر تجرده هو نفسه في فلسفة الدين نميز على الاقل بين الرجل والمرأة . ولكن هذا

الفرق الاخير يختفي في الاخلاق صحيح اننا نجد عند فورباخ احيانا موضوعات مثل هذه :

«في القصور يفكرون غير ما يفكرون في الاكواخ» .ـ «واذا لم تكن لديك ، بسبب من الجوع والبؤس ، اي مواد غذائية في الجسم ، فليس لديك ايضا اي غذاء للاخلاق لا في رأسك ولا في مشاعرك ولا في قلبك» .ـ «ويجب ان تصبح السياسة ديننا» الخ

ولكن فورباخ لا يدري مطلقا كيف يستعمل هذه الموضوعات ، فهي عنده مجرد تعبير ، وشتاركه نفسه يضطر الى الاعتراف بان السياسة بالنسبة لفورباخ مجال مستحيل المنال ، وان

«العلم عن المجتمع ، علم الاجتماع ـ terra incognita»*

وبنفس القدر يبدو لنا فورباخ سطحيا بالمقارنة مع هيغل فيما يتعلق بمعالجة التضاد بين الخير والشر

كتب هيغل «وهناك اناس يعتقدون انهم يعرضون فكرة عميقة جدا حين يقولون : الانسان بطبيعته خيِّر ؛ ولكنهم ينسون ان فكرة اعمق بكثير ترد في هذه الكلمات : الانسان بطبيعته شرير»

فان الشر عند هيغل ، هو الشكل الذي تتجلى فيه القوة المحركة للتطور التاريخي . ولهذه الفكرة معنيان : من ناحية ، كل خطوة جديدة الى امام تظهر بالضرورة كانها اهانة لشيء مقدس ، عصيان على الوضع القديم ، البالي ، ولكنه المقدس بفعل العادة ومن ناحية اخرى ، منذ ظهور التناقض بين الطبقات ، غدت نزوات

* ارض مجهولة . الناشر

الناس الشريرة الطمع والتعطش الى السلطة ، امخال التطـــور التاريخي . والبرهان المتواصل لذلك هو ، مثلا ، تاريخ الاقطاعية والبرجوازية غير ان فورباخ لا تخطر حتى في باله دراسة الدور التاريخي للشر الاخلاقي . فالميدان التاريخي بالنسبة له غير لائق ولا مريح على وجه العموم . وحتى قوله :

«حين خرج الانسان من احشاء الطبيعة ، لم يكن الا كائنا طبيعيـا صرفا ، لا انسانا فالانسان انما هو نتاج الانسان والثقافة والتاريخ» ـ

حتى هذا القول يبقى عنده عقيما للغاية

ومفهوم ، بعد كل ما سبق ، ان ما يقوله لنا فورباخ عن الاخلاق شيء هزيل جداً . الانسان مفطور على السعي الى السعادة ، ولذلك يجب ان يكون هذا السعي اساسا للاخلاق ، كل اخلاق ولكن السعي الى السعادة يخضع للتصليح من جهتين اولا ، من حيث العواقب الطبيعية لافعالنا : النشوة يتبعها الصداع ، والافراط الذي اصبح عادة يتبعه المرض ثانيـاً ، من حيث عواقبهـــا الاجتماعية اذا لم نحترم في الآخرين نفس السعي الى السعادة ، قاوموا واعاقوا سعينا الى السعادة . ينجم عن هذا اننا ، اذا اردنا ان نرضي سعينا الى السعادة ، وجب علينا ان نعرف كيف نوازن ، بصورة صحيحة ، عواقب افعالنا وان نحترم ، علاوة على ذلك ، حق الآخرين المتساوي في السعي ذاته . ان قواعد الاخلاق الاساسية عند فورباخ ، التي تنجم عنها جميع القواعد الاخرى هي ، اذن ، التضييق العقلاني بالنسبة لانفسنا والحب ـ الحب دائمـا ! ـ في العلاقات مع الآخرين ولا تستطيع اخفاء حقارة وتفاهـة هاتين الموضوعتين او الثلاث لا محاكمات فورباخ الظريفة جداً ولا مدائح شتاركه المفرطة .

اذا كان الفرد لا يهتم الاّ بنفسه ، فهو لا يرضي سعيه الى السعادة الاّ في حالات نادرة ، وليس ذلك دائماً في مصلحته او في مصلحة آخر من امثاله يجب ان تكون عنده علاقات مع العالم الخارجي ، ووسائط من اجل تلبية حاجاته الغذاء ، فرد من الجنس الآخر ، كتب ، تسليات ، مناقشات ، نشاط ، اشياء للاستهلاك ، ومواضيع للعمل واحد من اثنين ان الاخلاق عند فورباخ ، اما تفترض مسبقاً ان جميع هذه الوسائط والاشياء من اجل تلبية الحاجات موجودة بلا شك تحت تصرف كل انسان ، واما تغدق عليه نصائح جميلة ولكنها لا تطبق ، وحينئذ لا تعدل دخان طلقة من بندقية عند اولئك المحرومين من هذه الوسائط وفورباخ نفسه يقول عن هذا بصراحة :

«في القصور يفكرون غير ما يفكرون في الاكواخ» «اذا لم تكن لديك ، بسبب من الجوع والبؤس ، اي مواد غذائية في الجسم ، فليس لديك ايضا اي غذاء للاخلاق لا في راسك ولا في مشاعرك ولا في قلبك»

وهل الحال افضل فيما يتعلق بالحق المتساوي لجميع الناس في السعادة ؟ ان فورباخ يطالب بهذا الحق بلا قيد ولا شرط ويعتبره ضرورياً في كل زمان وكل ظرف . ولكن منذ متى اعترف الجميع بهذا الحق ؟ وهل الحق المتساوي لجميع الناس في السعادة كان يوماً موضع بحث في الزمن الغابر بين العبيد ومالكيهم ، او في القرون الوسطى بين الفلاحين الاقنان والبارونات ؟ الم يكن سعي الطبقات المضطهَدة الى السعادة ، مضحى به بلا هوادة و«على اساس شرعي» لسعي الطبقات السائدة نفسه ؟ ــ اجل ، كان ، ولكن هذا كان لااخلاقيا ؛ اما اليوم فالحق المتساوي معترف به . ــ

معترف به قولا ، منذ ان رأت البرجوازية نفسها مضطرة في غمرة النضال ضد الاقطاعية ومن اجل تطوير الانتاج الرأسمالي الى الغاء جميع امتيازات المراتب ، اي الامتيازات الشخصية ، واقرار المساواة في الحقوق الشرعية للفرد اولا في نطاق الحقوق الخاصة ومن ثم اقرارها بالتدريج في ميدان حقوق الدولة ولكن السعي الى السعادة يحتاج اقل ما يحتاج الى الحقوق المثلى ، ويحتاج اكثر ما يحتاج الى الوسائل المادية ؛ اما الانتاج الرأسمالي فيهتم بألا يكون للاغلبية الساحقة من الافراد المتساوين في الحقوق الا الشيء القليل الضروري لحياة بائسة جداً . وعليه ، من المشكوك فيه ان تحترم الرأسمالية الحق المتساوي للاغلبية في السعادة ، اكثر مما كانت تحترمه العبودية والاقطاعية وهل الوضع احسن فيما يتعلق بالوسائط الروحية لتأمين السعادة ، وبوسائط التعليم ؟ أليس «معلم المدرسة المنتصر في معركة سادوفا» (١٦) نفسه الا شخصية خرافية ؟

واكثر من ذلك . ان بورصة الاوراق المالية ، تبعاً لنظرية الاخلاق عند فورباخ ، انما هي معبد اسمى الاخلاق ، شرط ان تقوم فيه المضاربة بشكل لبق ذكي . واذا كان سعيي الى السعادة يقودني الى البورصة ، واذا كنت اعرف كيف ازن فيها جيداً نتائج افعالي بحيث انها لا تعود عليّ الاّ بالملاذ ولا تتسبب لي باي خسارة ، اي اذا كنت اربح دوماً ، عند ذلك تكون وصية فورباخ قد تحققت . ولاحظوا ، انني اذ ذاك لا اعيق قريبي ابداً في سعيه الى السعادة فقريبي ، مثله مثلي ، قد جاء الى البورصة بملء ارادته . وهو ، اذ يجري معي صفقة مضاربة ، يتبع ، مثلما افعل انا ، سعيه الى السعادة واذا خسر نقوده ، فذلك يدل على لااخلاقية افعاله ، لأنه اخطأ في وزن عواقبها . فاني استطيع ،

اذ اجعله ان يحمل الجزاء الذي يستحقه ، ان اقف بكل فخر موقف رادامانت الازمنة الحديثة . والحب يسود ايضاً في البورصة ، اذ انه ليس بجملة عاطفية وحسب ؛ ان كل فرد يرضي سعيه الى السعادة بمساعدة الغير ، وهذا بالضبط ما يجب ان يفعله الحب ، وفي ذلك يتقوم تحقيقه العملي . فاذا حسبت بصورة جيدة عواقب عملياتي ، اي اذا لعبت بنجاح ، اكون قد تقيدت بكل دقة بكل متطلبات اخلاق فورباخ ، واغتنيت فضلا عن ذلك وبتعبير آخر ، ايا كانت رغبات فورباخ ونواياه ، فان اخلاقه تبدو انها فُصِّلت على قياس المجتمع الرأسمالي الحالي

ولكن الحب ! ــ نعم ، الحب هو في كل مكان وزمان ، صانع المعجزات عند فورباخ ، وينبغي له ان يساعد في التغلب على جميع مصاعب الحياة العملية ، ــ وهذا في مجتمع مقسم الى طبقات ذات مصالح متناقضة تماماً ! وعليه ، ان فلسفته تفقد آخر ما يبقى لها من طابعها الثوري ، ولا تبقى غير اللازمة القديمة : احبوا بعضكم بعضاً ، وتعانقوا دون تمييز في الجنس والوضع ــ انه لمثل المصالحة العامة !

وبالاختصار ، حدث لنظرية الاخلاق عند فورباخ مثل ما حدث لجميع النظريات التي تقدمتها . فهي مفصلة لجميع الازمنة ، ولجميع الشعوب ، ولجميع الاوضاع ، ولهذا السبب بالضبط ليست صالحة للتطبيق في اي وقت وفي اي مكان وتظل عاجزة ازاء العالم الواقعي مثل الحكم القاطع عند كانط والواقع ، ان كل طبقة وحتى كل مهنة ، لها اخلاقها الخاصة بها وهي فضلا عن ذلك تخالفها كلما استطاعت الى ذلك سبيلا دون ان تتعرض للعقاب . اما فيما يتعلق بالحب الذي يتوجب عليه ان يوحد كل

شيء ، فهو يتجلى في الحروب ، والمنازعات ، والمخاصمات ، والخلافات البيتية ، والطلاق ، والحد الاقصى من استغلال بعضهم للآخرين

فكيف امكن اذن ، ان يبقى بالنسبة لفورباخ نفسه ، دون اي نتيجة على الاطلاق ، ذاك الاندفاع القوي الذي اعطاه فورباخ للحركة الفكرية ؟ ذلك بكل بساطة لان فورباخ لم يجد الطريق الذي يقود من ملكوت التجريد الذي كان يكرهه فورباخ نفسه حتى الموت ، نحو العالم الحقيقي الحي . فهو يتمسك بكل قواه بالطبيعة وبالانسان ولكن الطبيعة والانسان يظلان بالنسبة له كلمتين فقط . انه لا يستطيع ان يقول شيئا واضحا عن الطبيعة الحقيقية ولا عن الانسان الحقيقي . وللانتقال من الانسان المجرد كما يتصور فورباخ الى الناس الحقيقيين الاحياء ، كان لا بد من دراسة هؤلاء الناس في افعالهم التاريخية . ولكن فورباخ كان يعارض ذلك بعناد ، ولهذا فان عام ١٨٤٨ (١٧) الذي لم يفهمه ، لم يعن بالنسبة له سوى القطيعة النهائية مع العالم الواقعي ، والانتقال الى العزلة المطلقة والذنب في ذلك يرجع بصورة رئيسية الى العلاقات الاجتماعية الالمانية نفسها ، التي ادت به الى هذه النهاية التي يرثى لها

غير ان الخطوة التي لم يخطها فورباخ كان لا بد مع ذلك من خطوها فان عبادة الانسان المجرد التي تؤلف نواة الدين الجديد الفورباخي ، كان يجب الاستعاضة عنها بالعلم عن الناس الحقيقيين وعن تطورهم التاريخي . وهذا التطوير اللاحق لوجهة نظر فورباخ ، الذي يتجاوز نطاق فلسفة فورباخ ، انما بدأه ماركس عام ١٨٤٥ في كتابه «العائلة المقدسة» .

٤

لقد كان شتراوس وباور وشتيرنر وفورباخ فروع الفلسفة الهيغلية بقدر ما لم يبارحوا الميدان الفلسفي . فشتراوس ، بعد كتابيه «حياة يسوع» و«العقائد» انصرف الى الادب التاريخي الكنسي والفلسفي على طريقة رينان اما باوير ، فانه لم يكتب شيئاً مهما الا في ميدان تاريخ نشوء المسيحية وشتيرنر ظل حدثاً طريفاً بسيطاً حتى بعد ان خلطه باكونين ببرودون وعمّد هذا الخلط باسم «الفوضوية» . ان فورباخ وحده كان فيلسوفاً مرموقاً . ولكن فورباخ لم يستطع ان يتخطى نطاق الفلسفة التي ادعت انها علم العلوم وانها تحوم فوق جميع العلوم وتجمع بينها في كل واحد ، — لان هذه الفلسفة ظلت في عينيه شيئاً مقدساً لا يمس ، — وليس هذا وحسب ، بل وقف ايضاً حتى بوصفه فيلسوفاً في منتصف الطريق ، اذ كان مادياً من تحت ومثالياً من فوق . وهو لم يتغلب على هيغل بسلاح النقد ، بل طرحه جانباً كشيء غير صالح للاستعمال ؛ في حين انه هو نفسه لم يستطع ان يجابه ثروة المنهج الهيغلي الموسوعية بشيء ايجابي غير دين منتفخ ، هو دين الحب ، واخلاق هزيلة عاجزة

ولكن ، مع انحلال المدرسة الهيغلية ، نشأ اتجاه آخر ايضاً ، وهو الوحيد الذي قد اوتي حقاً أكله . وهذا الاتجاه مرتبط بصورة رئيسية باسم ماركس •

• اجيز لنفسي هنا ايضاحاً شخصياً واحداً لقد اشاروا حديثاً غير مرة ، الى اسهامي في وضع هذه النظرية . ولهذا ، اراني مضطراً هنا الى قول بعض الكلمات لتوضيح هذه المسألة . فانا لا استطيع ان انكر انني اشتركت بصورة مستقلة الى حد ما ، قبل واثناء تعاوني خلال اربعين سنة مع

وهنا ايضاً حدثت القطيعة مع فلسفة هيغل عن طريق العودة الى وجهة النظر المادية وهذا يعني ان انصار هذا الاتجاه قد قرروا ان يدركوا العالم الحقيقي ــ الطبيعة والتاريخ ــ كما يبدو لكل من ينظر اليه بدون اوهام مثالية مسبقة ؛ وقد عزموا على التضحية بلا رحمة بكل وهم مثالي لا يتفق مع الوقائع المأخوذة في علاقتها الخاصة بها ، لا في اي علاقة خيالية . والمادية لا تعني بوجه عام اكثر من ذلك . ولم يتميز الإتجاه الجديد الا بانهم لاول مرة نظروا جدياً الى المفهوم المادي عن العالم وطبقوه بانسجام ــ من حيث الخطوط الاساسية على الاقل ــ في جميع ميادين المعرفة التي تبحثها

ولم يطرح هيغل جانباً ببساطة بل على العكس ، فقد أُخذ الجانب الثوري من فلسفته ، المبين فيما سبق ، اي الطريقة الديالكتيكية نقطة انطلاق . ولكن هذه الطريقة بشكلها الهيغلي كانت غير صالحة . فالديالكتيك عند هيغل هو تطور الفكرة التلقائي . ان الفكرة

ماركس ، سواء في تثبيت النظرية التي نتكلم عنها ام في وضعها على الاخص . ولكن الجزء الاكبر من الافكار الاساسية الموجهة ، وخاصة في الميدان الاقتصادي والتاريخي ، ولا سيما فيما يتعلق بصياغتها الواضحة النهائية ، انما هي جميعها ترجع الى ماركس . وما اسهمت به انا ، كان بامكان ماركس ان يفعله بكل سهولة بدوني ــ ربما باستثناء ميدانين او ثلاثة من الميادين الخاصة . ولكن ما فعله ماركس ، ما كان في مستطاعي انا ان اقوم به ابداً . ان ماركس كان اعلى منا جميعاً ، وكان يرى ابعد واوسع واسرع منا جميعاً . ان ماركس كان عبقرياً ، اما نحن فكنا ، على اكثر تقدير ــ موهوبين . ولولاه لكانت نظريتنا بعيدة جداً عما هي عليه اليوم . ولهذا ، فانها تحمل بجدارة اسمه .

المطلقة لا توجد ــ ولا نعرف اين ــ منذ الازل فحسب ولكنها ايضاً روح كل العالم القائم الحقيقية الحية وهي تتطور لتعـــود الى نفسها من خلال كل الدرجات التمهيدية ، المبينة مفصلا في كتاب «المنطق» وكل هذه الدرجات داخلة في الفكرة . ثم ان هذه الفكرة المطلقة «تنقل» نفسها وتتحول الى طبيعة ، حيث لا تـــدرك ذاتها ، وترتدي شكل ضرورة طبيعية ، وتمر بطور جديد وتعود اخيراً الى ادراك ذاتها في الانسان . وفي التاريخ ينطلق هذا الادراك الذاتي من جديد من الحالة البدائية حتى تعود الفكرة المطلقة تماماً الى نفسها في فلسفـــة هيغل فالتطور الديالكتيكي الذي يظهر في الطبيعة والتاريخ ، اي العلاقة السببية للارتقاء مـــن الادنى الى الاعلى عبر جميع التعرجات وجميع الخطوات الموقتة الى الوراء ، ان هذا التطور ليس عند هيغل سوى انعكاس لحركـــة الفكرة ، لهذه الحركة الذاتية التي تجري منذ الازل في مكان مجهول ولكنها تجري ، على كل حال ، بشكل مستقل عن كل دماغ انساني مفكر . ان هذا التحريف الفكري هو ما كان يجب القضاء عليـــه . وعندما عدنا الى وجهة نظر المادية ، رأينا من جديد في المفاهيم الانسانية ، انعكاسات الاشياء الواقعية بدلا من ان نرى في الاشياء الواقعية انعكاسات هذه الدرجات او تلك للفكرة المطلقـــة . وبذلك اصبح الديالكتيك علم القوانين العامة للحركة ، سواء في العالم الخارجي ام في الفكر الانساني : مجموعتان من القوانين المتشابهة من حيث جوهرها ، ولكنها مختلفة في تعبيرها ، بمعنى ان الدماغ الانساني يستطيع ان يطبقها بوعي ، في حين انها في الطبيعة ــ وحتى الآن على الغالب في التاريـــخ الانساني ايضاً ــ تشق طريقا لهـــا بصورة غير واعيـــة ، على شكل ضرورة خارجية ، من خلال تتابع لا نهاية له للصدف الظاهرة . وعليه ، فان ديالكتيك الافكار نفسه لم يغد سوى الانعكاس الواعي لحركة العالم

الواقعي الديالكتيكية . ومع ذلك ، انقلب ديالكتيك هيغل ، او على الاصح ، أُوقف على رجليه من جديد لانه كان فيما مضى يقف على رأسه . وهذا الديا لكتيك المادي الذي كان منذ سنوات كثيرة احسن ادوات عملنا وامضى سلاح في يدنا ، لم نكتشفه وحدنا وحسب ، وهذا شيء تجدر الاشارة اليه ؛ بل اكتشفه ايضا من جديد وبشكل مستقل عنا وحتى عن هيغل عامل الماني يدعى يوسف ديتسغين*

وبذلك استعيد الجانب الثوري من الفلسفة الهيغلية ، وحُرر في الوقت نفسه من غلافه المثالي الذي حال عند هيغل دون تطبيقه بانسجام . ان الفكرة الكبرى الاساسية ـ القائلة ان العالم لا يتكون من اشياء جاهزة منجزة ، بل يتكون من مجموعة تفاعلات ، حيث الاشياء ، التي تبدو ثابتة ، وكذلك صورها في الرأس ، اي المفاهيم ، تتغير على الدوام ، تنشأ وتزول ، وحيث التطور يشق في آخر المطاف طريقا لنفسه رغم جميع الصدف الظاهرة ورغم الخطوات الموقتة الى وراء ـ ان هذه الفكرة الكبرى الاساسية قد نفذت عميقا ، منذ هيغل ، الى الوعي العام ، بحيث انه يكاد لا يعمد احد الى دحضها في شكلها العام . ولكن الاعتراف بها قولا شيء وتطبيقها في كل حال بمفردها وفي كل ميدان معين للبحث هو شيء آخر . واذا تمسكنا دائما في البحث بوجهة النظر هذه ، فان طلب الحلول الحاسمة والحقائق الخالدة يفقد ، بالنسبة لنا ، كل معنى الى الابد ؛ ونحن لا ننسى ابدا ان كل معارفنا المكتسبة محدودة بالضرورة وتحددها الظروف التي نكتسبها فيها . ومع ذلك لم يبق الآن من الممكن ان تثير في نفوسنا الاحترام تلك المتضادات المستعصية على

---

* انظر «جوهر العمل الفكري الانساني كما يعرضه ممثل عن العمل اليدوي» . هامبورغ ، الناشر ميسنر .

الميتافيزياء القديمة التي لا تزال مع ذلك واسعة الانتشار حتى الآن ، كالمتضادات بين الحقيقة والخطأ ، بين الخير والشر ، بين التشابه والاختلاف ، بين الضرورة والصدفة . ونحن نعلم ان لهذه المتضادات قيمة نسبية فقط اي ان ما هو معترف به في الوقت الحاضر كحقيقة ، له جانبه الخاطئ المختفي الآن ولكنه يظهر مع الزمن ؛ والمثل بالمثل ، فان ما هو معترف به الآن كخطأ ، له جانبه الحقيقي الذي بسببه كان من الممكن اعتباره سابقا كحقيقة ؛ وان ما يعتبر ضروريا يتألف بكامله من صدف صرف ، وان ما يدعى بالصدفة انما هو الشكل الذي تستتر وراءه الضرورة ، وهكذا دواليك .

ان الطريقة القديمة في البحث والتفكير التي يسميها هيغل «ميتافيزيائية» والتي قامت بصورة رئيسية بدراسة **الاشياء** المعتبرة جاهزة منتهية ثابتة والتي ما زالت بقاياها راسخة في العقول بثبات ، قد كان لها في زمانها تبرير تاريخي كبير . فقد كان يترتب بحث الاشياء قبل ما كان في المستطاع البدء ببحث التفاعلات . يجب اولا معرفة ماهية هذا الشيء المعني او ذاك لكي تمكن دراسة التعديلات التي تطرأ فيه . هكذا تماما حدث في العلوم الطبيعية ان الميتافيزياء القديمة التي كانت تعتبر الاشياء منتهية التكوين ، نمت من علم الطبيعة الذي كان يدرس اشياء الطبيعة الميتة والحية بوصفها اشياء منتهية التكوين . ولكن حينما تقدمت هذه الدراسة للاشياء المنفردة الى درجة غدا من الممكن معها القيام بخطوة حاسمة الى امام ، اي البدء في دراسة التعديلات الحاصلة في هذه الاشياء في الطبيعة ذاتها دراسة منهجية ، حينذاك دق في الميدان الفلسفي ايضا ، ناقوس نعي الميتافيزياء القديمة . وبالفعل ، كان علم الطبيعة حتى نهاية القرن الماضي ، بصورة رئيسية ، علم

التراكم ، علم الاشياء المنتهية التكوين ، امـا الآن فقد اصبـح في قرننا ، من حيث الاساس ، علم «التصنيف» ، علم التفاعلات ، علما يتناول اصل وتطور هذه الاشياء والصلة التي تجمع تفاعلات الطبيعة هذه في كل واحد كبير ان الفيزيولوجيا التي تدرس التفاعلات في العضوية النباتية والحيوانية ؛ والامبريولوجيا (علم الاجنّة) التي تدرس تطور كل عضوية منذ الحالة الجنينيـة حتى تكاملهـا ؛ والجيولوجيا التي تدرس تشكل القشرة الارضية التدريجي ، كل هذه العلوم هي من بنات عصرنا .

ثلاثة اكتشافات كبرى على الاخص ، دفعت الى امام بخطـى كبيرة معرفة ترابط التفاعلات التي تحدث في الطبيعة :

اولا ، اكتشاف الخلية بوصفها وحدة ينمو منها عن طريـق التكاثر والتمايز كل الجسم النباتي والحيواني ان هذا الاكتشاف لم يقنعنا بان تطور ونمو كل العضويات العليا يحدثان تبعاً لقانون عام واحد فحسب ، بل حدد ايضا ، بعد ان اظهر قابليـة الخلايـا للتغير ، الطريق الذي يؤدي الى تغيرات نوعية في العضويات ، تغيرات تستطيع العضويات بسببها ان تتطور تطوراً هو اكثر اهميـة من التطور الفردي فقط

ثانياً ، اكتشاف تحول الطاقة الذي ارانا ان جميع ما يسمونها القوى التي تفعل قبل كل شيء في الطبيعة غير العضويـة ــ القوة الميكانيكية ومتممتها المسماة بالطاقة الكامنة ، والحرارة ، والاشعاع (ضياء ، resp.* حرارة مشعة) ، والكهربـاء ، والمغنـاطيس ، والطاقة الكيميائية ــ انما هي اشكال مختلفة لتجلي الحركة العامـة تتحول ، في نسب كمية معينة ، من الواحد الى الآخر ؛ بحيث انه ،

---

* ــ respective ــ اي . التناظر .

حين تختفي كمية ما من واحد ، تظهر بدلها كمية معينة في آخر ، وهكذا فان كل حركة في الطبيعة تنحصر في عملية متصلة قوامها التحول من شكل الى آخر .

واخيراً ، ثالثا ، البرهان المنطقي الذي تقدم به داروين لاول مرة والقائل بان جميع الاجسام التي تحيط بنا حالياً ، بما فيها الانسان ، قد ظهرت نتيجة لحركة طويلة من تطور عدد صغير من الاجنة الوحيدة الخلية في الاصل ، وان هذه الاجنة تكوّنت بدورها من البروتوبلازما (الجبلة) التي نشأت بالطريقة الكيميائية ، او الآحين .

بفضل هذه الاكتشافات الثلاثة الكبرى ، وبفضل نجاحات العلوم الطبيعية الكبرى الاخرى ، نستطيع اليوم ان نبين الصلة القائمة بين تفاعلات الطبيعة في مختلف ميادينها ، وليس هذا فحسب ، بل نستطيع ايضا ان نبين ، بوجه عام ، الصلة التي تجمع هذه الميادين المختلفة . وهكذا غدا من الممكن ، بواسطة المعلومات التي تقدمها العلوم الطبيعية التجريبية نفسها ، ان نعرض بشكل منهجي الى حد ما ، لوحة عامة عن الطبيعة بوصفها وحدة متشابكة . ان تقديم لوحة عامة عن الطبيعة من هذا النوع قد كان فيما مضى مهمة ما يسمى بفلسفة الطبيعة التي لم يكن في وسعها ان تفعل ذلك الابالاستعاضة عن العلاقات الفعلية التي لم تكن بعد معروفة عندها ، بعلاقات مثالية خيالية ، والتي عوّضت عن الوقائع الناقصة بالاختلاقات ، متممة الفراغات الفعلية بالتصورات فقط وحين فعلت ذلك ، ابدت افكاراً عبقرية كثيرة ، وخمنت اكتشافات كثيرة تحققت فيما بعد ، ولكنها اعربت كذلك عن سخافات كثيرة في ذلك الحين لم يكن ممكناً غير هذا . واليوم ، اذ يكفي لنا ان ننظر الى نتائج دراسة الطبيعة نظرة ديالكتيكية ، اي من وجهة

نظر العلاقة الخاصة بين هذه النتائج ، لكي نضع «منهج الطبيعة» بشكل يستجيب لعصرنا ، واذ ينفذ ادراك الصفة الديالكتيكية لهذه العلاقة حتى الى رؤوس الطبيعيين المروضة بالطريقة الميتافيزيائية رغم ارادتهم ــ اليوم آنت نهاية فلسفة الطبيعة . وكل محاولة لبعثها لا تكون نافلة فحسب ، بل **تؤلف ايضا خطوة الى وراء .**

ولكن ما هو مطبق على الطبيعة التي نفهمها الآن كحركة تطور تاريخية ، مطبق ايضا على تاريخ المجتمع في جميع فروعه ، وكذلك على مجموع العلوم التي تبحث في القضايا الانسانية (والالهية) وان فلسفة التاريخ ، والحقوق ، والدين الخ تجلت مثل فلسفة الطبيعة في ان العلاقة التي اخترعها الفلاسفة ، قد حلت محل العلاقة الفعلية التي يجب اكتشافها في الحوادث ؛ في ان التاريخ ــ بمجموعه واجزائه المنفردة ــ أُعتبر تحقيقا تدريجيا للافكار ، ودوما ، بالطبع ، للافكار المفضلة عند كل فيلسوف معين فقط . من وجهة النظر هذه ، نجم ان التاريخ عمل بشكل لاواع ولكن بالضرورة ، من اجل تحقيق هدف معروف مثالي ، معين مسبقا ؛ فعند هيغل ، مثلا ، كان هذا الهدف تحقيق فكرته المطلقة ، والسعي الدائم نحو هذه الفكرة المطلقة كوّن ، حسب رأيه ، العلاقة الداخلية في الاحداث التاريخية . ومكان العلاقة الحقيقية التي كانت غير معروفة بعد ، قام على هذا النحو اله خفي جديد غير واعٍ او يبلغ الوعي شيئا فشيئا . فكان ينبغي هنا ، اذن ، كما في ميدان الطبيعة تماما ، اقصاء هذه العلاقات المخترعة والاصطناعية ، من اجل اكتشاف العلاقات الفعلية .وهذه المهمة انحصرت ، آخر الامر ، في اكتشاف قوانين الحركة ، قوانينها العامة التي ، بوصفها قوانين مسيطرة ، تشق لنفسها طريقا في تاريخ المجتمع الانساني .

غير ان تاريخ تطور المجتمع يختلف جوهرياً في نقطة واحدة ، عن تاريخ تطور الطبيعة . ففي الطبيعة (بقدر ما نحن نضع جانباً رد فعل الانسان فيها) ، لا يؤثر بعضها في بعض غير قوى عمياء لاواعية وفي تأثيرها المتبادل تظهر القوانين العامة . وليس هنا اي هدف واعٍ ، منشود : لا في الصدف الظاهرية التي لا عدّ لها ، والمرئية على السطح ، ولا في النتائج الختامية التي تؤكد وجود الانتظام في داخل هذه الصدف اما في تاريخ المجتمع فالامر بالعكس ؛ ففي تاريخ المجتمع يفعل الناس الذين لهم موهبة الوعي ، ويعملون بتفكير او بتأثير عاطفة وينشدون اهدافاً معينة . ولا يصنع هنا شيء دون نية واعية ، ودون هدف منشود . ومهما كانت خطورة هذا الاختلاف بالنسبة للبحث التاريخي ــ ولا سيما لبحث مختلف العصور والحوادث ــ فان هذا الاختلاف لا يغير في شيء واقع ان سير التاريخ خاضع لقوانين داخلية عامة . وبالفعل ، في هذا الميدان ايضاً ، على سطح الظاهرات ، تسود الصدفة بوجه عام ، على ما يبدو ، رغم الاهداف التي ينشدها عن وعي جميع الناس كل بمفرده . وما يرغبون فيه لا يتحقق الا في حالات نادرة ؛ اما الاهداف التي ينصبها الناس امام عيونهم ، فانها تتصادم غالب الاحيان وتتناقض فيما بينها او تكون في غير متناول المرء ، جزئياً بحكم جوهرها بالذات وجزئياً بسبب تقصان الوسائل لتحقيقها . ان الاصطدامات بين المساعي المنفردة التي لا عدّ لها والافعال المنفردة التي لا عدّ لها تؤدي ، في ميدان التاريخ ، الى وضع مماثل تماماً ، للوضع الذي يسود في الطبيعة اللاواعية . ان للافعال هدفاً منشوداً معروفاً ؛ الا ان النتائج الحاصلة من هذه الافعال غير مرغوب فيها على الاطلاق . واذا كانت هذه النتائج توافق في البدء على ما يبدو ، الهدف المنشود ، الا انها تحمل معها

في آخر المطاف شيئاً بعيداً عما كان مرغوباً فيه . وهكذا تكون النتيجة ان الصدفة تسود اجمالا وعلى حد سواء في ميدان الظاهرات التاريخية ايضاً . ولكن حيث تلعب الصدفة على السطح ، تخضع هذه الصدفة نفسها دائما لقوانين داخلية ، خفية ، ولا تتقوم المهمة الا في اكتشاف هذه القوانين .

وايا كان سير التاريخ ، فان الناس يصنعونه على النحو التالي : كل فرد يقصد اهدافه الموضوعة عن وعي وادراك ، اما النتيجة العامة لهذه الكثرة من المساعي التي تعمل في اتجاهات مختلفة ، وتأثيراتها المتنوعة في العالم الخـــارجي ، فهي التـــاريخ بـــالضبط . وهكذا تنحصر المسالة كذلك في ما تريده هذه الكثرة من الافراد ان الارادة تحددها العاطفة اوالتفكير . ولكن الحوافز التي بدورها تحدد مباشرة العاطفـــة او التفكير ، لعلى انواع مختلفـــة . فقد تكون اما اشياء خارجية واما حوافز من النوع الامثل : حب الرفعة ، وخدمة الحقيقـــة والحق» ، الحقد الشخصي ، او حتى النزوات الشخصية البحتة من كل نوع . لكننا من جهة ، رأينا ان المساعي العديدة المنفردة التي تفعل في التاريخ تؤول في اكثر الاحيان ، الى نتائج مختلفة عن تلك التي كانت منشودة ، بل انها تؤول في الغالب الى نتائج مناقضة تماما لما كان مقصوداً ، بحيث ان هذه الحوافز تتسم بالتالي باهمية ثانوية بالنسبة للنتيجة النهائية . ومن جهة ثانية تظهر مسالة جديدة ما هي القوى المحركة التي تستتر بدورها وراء هذه الحوافز ، وما هي الاسباب التاريخية التي تتخذ شكل هذه الحوافز في رؤوس الناس العاملين ؟

ان مادية الماضي لم تطرح مطلقا هذه القضية على نفســـها ولذلك كان مفهومها للتاريخ ـ هذا اذا كان لها مفهوم كهذا بوجه عام ـ مفهوما براغماتيا (عمليا) بالاساس : فقد كانت تقدر كل شيء

تبعا لدوافع الفعل وتقسم الناس الذين يؤثرون في التاريخ الى اناس اشراف واناس نصابين ، وكانت تجد الاشراف ، كقاعدة ، فاشلين والنصابين ظافرين . وقد نتج عن ذلك بالنسبة لها ان دراسة التاريخ تحتوي على قدر قليل جداً من العبر . اما بالنسبة لنا نحن فينتج ان المادية القديمة تخون نفسها في ميدان التاريخ ، اذ انها تعتبر القوى الحافزة المثلى العاملة فيه الاسباب الاخيرة للاحداث ، بدلا من ان تبحث فيما يكمن وراءها وما هي القوى الحافزة لهذه القوى الحافزة . ان انعدام الانسجام لا يرجع الى الاعتراف بوجود القوى الحافزة المثلى ، ولكنه يرجع الى الوقوف عليها وعدم الصعود الى اعلى ، نحو الاسباب المحركة لهذه القوى الحافزة المثلى . وبالعكس، كانت فلسفة التاريخ ، وعلى الاخص في شخص هيغل ، تعترف بان حوافز شخصيات التاريخ ، سواء منهـا الحوافز الظاهريـة ام الحقيقية ، ليست مطلقا الاسباب الاخيرة للاحداث التاريخية ، وبان وراء هذه الحوافز تكمن قوى محركة اخرى ينبغي البحث عنها ولكن فلسفة التاريخ لم تبحث عن هذه القوى في التاريخ نفسه ؛ بل استوردتها على العكس ، من الخارج ، من الايديولوجية الفلسفية . مثلا ، بدلا من تفسير تاريخ اليونان القديمة بعلاقته الداخلية ، يعلن هيغل بكل بساطة ان هذا التاريخ ليس سوى وضع «لاشكال من الفردية الجميلة» ، تحقيق «لروائع الفن» كما هي . وهو يبدي بهذه المناسبة كثرة من الملاحظات الرائعة العميقة عن اليونانيين القدماء ، ولكننا لا نستطيع اليوم ان نكتفي بتفسيرات مثل هذه التفسيرات التي ليست سوى جمل ، لا اكثر .

وعليه ، حين كان المقصود البحث عن القوى المحركة التي تكمن ــ سواء عن وعي ام لا ، كما يجري في الغالب ، ــ وراء حوافز شخصيات التاريخ ، البحث عن القوى التي تؤلف ، آخر الامـر ،

القوى المحركة الحقيقية للتاريخ ، يجب الا تؤخذ بالحسبان حوافز الافراد وان اشدهم بروزاً ، بقدر الحوافز التي تحرك جماهير كبيرة من الناس ، شعوباً باسرها ، وفي كل شعب ، بدوره ، طبقات باسرها . والمهم هنا ايضاً لا انفجارات قصيرة ولا ومضات آنية ، بل حركات طويلة تستدعي تحولات تاريخية كبيرة ان البحث عن الاسباب المحركة التي تنعكس بصورة واضحة او غير واضحة ، مباشرة او بصورة فكرية وحتى خيالية في رؤوس الجمهور العامل وزعمائه ، هؤلاء الذين يسمونهم الرجال العظماء ، كحوافز واعية ، ــ انما يعني السير على الطريق الوحيد الذي يودي الى معرفة القوانين السائدة في التاريخ بوجه عام ، وكذلك في مختلف مراحله وفي مختلف البلدان . فكل ما يحرك الناس ينبغي ان يمر بالضرورة برؤوسهم ؛ ولكن الشكل الذي ياخذه في هذه الرؤوس يتعلق لدرجة كبيرة جداً بالظروف . فالعمال لا يحطمون الآن الآلات ، كما فعلوا حتى في عام ١٨٤٨ على الرين . ولكن ذلك لا يعني اطلاقاً انهم وافقوا على استعمال الآلات بطريقة راسمالية

ولكن ، اذا كانت دراسة هذه الاسباب المحركة للتاريخ في جميع المراحل السابقة غير ممكنة تقريباً لان العلاقات بين هذه الاسباب ونتائجها كانت مشوّشة ومستورة ، فان عصرنا قد بسّط هذه العلاقات حتى ان حل اللغز اصبح ممكناً في آخر الامر . ومنذ قيام الصناعة الكبيرة ، اي على الاقل منذ الصلح الاوروبي عام ١٨١٥ ، لم يكن خافياً على احد في انجلترا ان مركز الثقل في كامل النضال السياسي في هذه البلاد ، كان السعي الى السيطرة من جانب الطبقتين الارستوقراطية العقارية (landed aristocracy) من جهة ، والبرجوازية (middle class) من جهة اخرى . وفي فرنسا ادركوا هذا الواقع نفسه ، بعد عودة آل بوربون اليها . وان المؤرخين

في مرحلة العودة (١٨) ، من تييري الى غيزو ومينيه وتيير انما يشيرون دائما اليه بوصفه المفتاح الذي يسمح بفهم تاريخ فرنسا ابتداء من القرون الوسطى ومنذ عام ١٨٣٠ اعترف في هذين البلدين بالطبقة العاملة ، البروليتاريا ، مناضلة ثالثة من اجل السيطرة . وقد بلغت العلاقات درجة من البساطة بحيث ان الناس الذين اغمضوا عيونهم عمداً هم وحدهم الذين لم يستطيعوا ان يروا ان في صراع هذه الطبقات الثلاث الكبرى وفي تصادم مصالحها تكمن القوة المحركة لكل التاريخ الحديث ، على الاقل في هذين البلدين الاكثر تطوراً .

ولكن كيف نشأت هذه الطبقات ؟ اذا كان من الممكن لاول وهلة ان تعزى الملكية الكبرى للارض ، الملكية التي كانت اقطاعية فيما مضى ــ في المقام الاول على الاقل ــ الى اسباب سياسية ، الى اغتصاب بالقوة ، فان هذا كان غير معقول بالنسبة للبرجوازية والبروليتاريا كان واضحاً تمام الوضوح ان نشوء وتطور هاتين الطبقتين الكبيرتين قد حددتهما اسباب اقتصادية بحتة . وكان واضحاً بالوضوح نفسه ايضاً ان النضال بين مالكي الارض الكبار والبرجوازية ، وكذلك النضال بين البرجوازية والبروليتاريا ، دار قبل كل شيء من اجل المصالح الاقتصادية التي لم تكن السلطة السياسية الا وسيلة من اجل تحقيقها ان البرجوازية وكذلك البروليتاريا نشأتا بسبب التغيرات في العلاقات الاقتصادية ، او بعبارة ادق ، بسبب التغيرات في اسلوب الانتاج . فالانتقال اولا من نظام الانتاج الحرفي الى المانيفاكتوره ثم من المانيفاكتوره الى الصناعة الكبيرة ، الى الانتاج الآلي باستخدام البخار ، هو الذي طوّر هاتين الطبقتين . وفي درجة معينة من التطور ، اصبحت القوى المنتجة الجديدة التي سيّرتها البرجوازية ــ وبالدرجة الاولى تقسيم العمل

وجمع عدد كبير من العمال المنفردين في مؤسسة مانيفاكتوره واحدة مشتركة ـ وكذلك شروط وحاجات التبادل المتطورة بفضلها ، متنافية مع نظام الانتاج القائم ، الموروث تاريخيا والمقدس قانونا اي اصبحت متنافية مع امتيازات النظام الحرفي للانتاج ومع الامتيازات العديدة الاخرى ، الشخصية والمحلية (التي تحتوي على عدد عديد من القيود بالنسبة للفئات التي لا تتمتع بامتيازات) الملازمة للنظام الاجتماعي الاقطاعي . ان القوى المنتجة قد ثارت في شخص ممثلتها ، البرجوازية ، ضد نظام الانتاج الممثل بالملاكين العقاريين الاقطاعيين وبشيوخ الطوائف الحرفية . ونتيجة النضال معروفة . فقد انكسرت القيود الاقطاعية : في انجلترا تدريجياً ، وفي فرنسا دفعة واحدة ، وفي المانيا لم يقض عليها بعد . ومثلما شرعت المانيفاكتوره في مرحلة معينة من تطورها تتنازع مع نظام الانتاج الاقطاعي ، شرعت اليوم الصناعة الكبيرة تتنازع مع النظام البرجوازي الذي حل محله . وهذه الصناعة المقيدة بهذا النظام والمحددة باطار ضيق هو اطار اسلوب الانتاج الرأسمالي ، تؤدي من جهة ، الى جعل كل جماهير الشعب الغفيرة بروليتاريين بشكل يتزايد دون انقطاع ، ومن جهة ثانية تخلق كمية من المنتوجات تتزايد باستمرار ولا تجد لها تصريفا فيض الانتاج وبؤس الجماهير وكل منهما سبب الآخر ـ هذا هو التناقض السخيف الذي تنتهي اليه الصناعة الكبيرة ، والذي يستلزم بالضرورة تحرير القوى المنتجة من القيود الحالية بتغيير اسلوب الانتاج .

وعلى هذا النحو ، ثبت ، بالنسبة للتاريخ الحديث على الاقل ، ان كل نضال سياسي هو نضال طبقي ، وان كل نضال تخوضه الطبقات من اجل تحررها ، رغم شكله الذي هو بالضرورة سياسي ـ لان كل نضال طبقي هو نضال سياسي ـ هو بالنتيجة

نضال لاجل التحرر **الاقتصادي** . فلا شك اذن ، ان الدولة ، النظام السياسي ، تؤلف في التاريخ الحديث على الاقل ، العنصر الثانوي ، بينا المجتمع المدني ، ميدان العلاقات الاقتصادية ، يؤلف العنصر الحاسم . ان المفهوم القديم الذي يلتزمه هيغل ايضاً ، كان يرى في الدولـة عنصراً مسيِّراً ، وفي المجتمع المدني عنصراً مسيَّراً والمظاهر توافق وجهة النظر هذه . وكما ينبغي حتماً عند الشخص ان تمر كل القوى الحافزة لافعاله بدماغه ، وتتحول الى حوافز لارادته لكي تحمله على الفعل ، كذلك تماماً تمر حتماً جميع حاجات المجتمع المدني ايضاً ــ مهما كانت الطبقة التي تسيطر في الوقت المعني ــ بارادة الدولة لكي ترتدي في شكل القوانين اهمية الزامية بالنسبة للجميع . ذلك هو مظهر الاشيـــاء الشكلي الذي لا يطلب البرهان ولكن المقصود معرفـة محتوى هذه الارادة الشكليـة البحتة ــ سواء ارادة الشخص ام ارادة الدولة بأسرها ــ ومن اين أتى هذا المحتوى ، ولماذا يرادِ هذا الشيء بالضبط ولا يراد غيره . واذا بحثنا عن جواب على هذا السؤال ، وجدنا ان ارادة الدولة في التاريخ الحديث ، تحددها اجمالاً الحاجات المتغيرة للمجتمع المدني ، وسيطرة هذه الطبقة او تلك ، وفي آخر الامر ، تطور القوى المنتجة وعلاقات التبادل .

واذا كانت الدولة حتى في عصرنا ، العصر الحديث بوسائطه الانتاجية القوية ومواصلاته الهائلة ، لا تؤلف ميداناً مستقلا ، ولا تتطور بصورة مستقلة ، بل يتوقف وجودها وتطورها ، آخر الامر ، على الظروف الاقتصادية لحياة المجتمع ، فلهذا الامر تاثير اكبر بالنسبة لجميع العصور السابقة حيث حياة الناس المادية لم تكن لها بعد هذه الوسائط الفنية لانتاج السلع المادية لحياة الناس ، وحيث ضرورة هذا الانتاج كان ينبغي لها بالتالي ان تبسط سلطانها

بشكل اوسع ايضاً على الناس . واذا لم تكن الدولة حتى في يومنا هذا ، في عصر الصناعة الكبيرة والخطوط الحديدية سوى تعبير مكثف عن الحاجات الاقتصادية للطبقة السائدة في الانتاج ، فان دورها هذا كان اكثر حتمية في العصر الذي يضطر فيه جيل معني من الناس ان يكرس جزءاً اكبر بكثير من الوقت المخصص لحياته ، من اجل ارضاء حاجاته المادية ، وكان يتعلق بها اكثر مما نتعلق بها نحن اليوم ان دراسة تاريخ العصور الماضية تؤكد صحة ما قلناه تاكيداً مقنعاً ، منذ ان تهتم جدياً بجانب القضية هذا . ولكن هذه القضية لا تستطيع بالطبع بحثها هنا مفصلا .

اذا كانت الدولة وحقوق الدولة تحددها العلاقات الاقتصادية، فمن البديهي ان العلاقات نفسها تحدد ايضاً الحقوق المدنية التي ينحصر دورها اساساً في المصادقة على العلاقات الاقتصادية التي تقوم بين الافراد والتي هي علاقات طبيعية لظروف معينة . ولكن شكل هذه المصادقة يمكن ان يكون مختلفاً جداً يمكن ، مثلا ، الاحتفاظ بجزء كبير من اشكال الحقوق الاقطاعية القديمة باعطائها محتوى برجوازياً وحتى باخفاء المعنى البرجوازي مباشرة تحت الاسم الاقطاعي كما حدث في انجلترا ، بالاتفاق مع تطورها الوطني كله . ولكنه يمكن العمل كما حدث في اوروبا الغربية القارية ، اي ان يؤخذ اساسا اول قانون عالمي لمجتمع منتجي البضائع ، وهو القانون الروماني الذي وضعت فيه بمنتهى الدقة جميع العلاقات الحقوقية الاساسية القائمة بين مالكي البضائع العاديين (المشتري والبائع ، الدائن والمدين ، العقود والموجبات الخ .) . فيمكن عند ذلك ــ في سبيل تلبية حاجات المجتمع البرجوازي الصغير الذي ما يزال شبه اقطاعي ايضاً ــ اما الهبوط بهذا القانون الى مستوى هذا المجتمع بمجرد النشاط القضائي (القانون الالماني العام) ،

واما تعديل هذا القانون وجعله قانوناً خاصاً يلائم المستوى المعني لتطور المجتمع ، قانوناً يكون في مثل هذه الشروط قانوناً سيئاً من الناحية الحقوقية ايضاً (القانون البروسي) ، وذلك بمساعدة حقوقيين يبشرون بالقواعد الاخلاقية ويدعون بالمثقفين . ويمكن اخيراً ، بعد ثورة برجوازية كبرى ، ان يوضع على اساس هذا القانون الروماني نفسه ، قانون كلاسيكي للمجتمع البرجوازي مثل Code civil (١٩) الفرنسي . واذا كانت احكام القانون المدني تعبر ، بصيغة حقوقية ، عن الشروط الاقتصادية لحياة المجتمع ، فهي تعبر عنها بشكل حسن او رديء ، تبعاً للظروف .

ان الدولة تبدو لنا اول قوة فكرية فوق الانسان . فان المجتمع ينشئ جهازاً لحماية مصالحه المشتركة من الهجمات الداخلية والخارجية . وهذا الجهاز هو سلطة الدولة وما ان يولد حتى يجعل نفسه مستقلا عن المجتمع ، وينجح في ذلك بقدر ما يصبح جهاز طبقة معينة واحدة وبقدر ما يحقق سيطرة هذه الطبقة بصورة مباشرة . ونضال الطبقة المضطهَدة ضد الطبقة السائدة يصبح بالضرورة نضالا سياسياً ، نضالا موجهاً قبل كل شيء ضد السيطرة السياسية لهذه الطبقة . وادراك الصلة بين هذا النضال السياسي وقاعدته الاقتصادية يقل ، وفي بعض الاحيان يختفي تماماً ولكنه اذا كان لا يختفي دائماً عند المناضلين ، فانه ينعدم غالباً عند المؤرخين . وبين المؤرخين القدماء الذين وصفوا النضال في قلب الجمهورية الرومانية ، يقول لنا ابيانوس وحده بوضوح وجلاء ، ان السبب الرئيسي لهذا النضال هو الملكية العقارية

غير ان الدولة ، حينما غدت قوة مستقلة ازاء المجتمع ، احدثت حالا ايديولوجية جديدة . ان العلاقة مع الوقائع الاقتصادية تختفي بصورة تامة عند محترفي السياسة واصحاب نظريات قانون

الدولـــة ، وحقوقيي القانون المدني وبما انه ينبغي للوقائـــع الاقتصادية ان تأخذ ، في كل حالة بمفردها ، شكل اسباب حقوقية من اجل ان يصادق عليها القانون ، وبما انه ينبغي عند ذلك ، بالطبع ، حسبان الحساب لكامل نظام القانون القائم ، لذلك يبدو الشكل الحقوقي كانه كل شيء ، اما المحتوى الاقتصادي فلا شيء . ويعتبر قانون الدولة والقانون المدني ميدانين مستقلين ، لهما تطورهما التاريخي المستقل ويخضعان من تلقاء نفسيهما للتصنيف المنهجي وهما يتطلبان هذا التصنيف عن طريق استئصال جميع التناقضات الداخلية بدأب واستقامة .

ان ايديولوجيات اسمى اي اكثر بعداً عن القاعدة المادية الاقتصادية ، تتخذ شكل الفلسفة والدين فان الصلة بين الافكار وشروط وجودها المادية تتشوش هنـــا اكثر وتصبح اكثر فاكثر مستورة بحلقات الوصل . ولكن هذه الصلة موجودة مع ذلك . ان كل عهد النهضة (٢٠) ، منذ منتصف القرن الخامس عشر ، وكذلك الفلسفة التي استيقظت من نعاسها آنذاك ، قد كانا ، بالاساس ، نتاج تطور المدن ، اي نتاج تطور البرجوازية . ولم تفعل الفلسفة غير ان عبرت بطريقتها الخاصة عن الافكار التي اتفقت مع تحول البرجوازيـة الصغيرة والمتوسطة الى برجوازية كبيرة . وقد تجلى هذا بوضوح عند الانجليز والفرنسيين في القرن السابق ، ممن كانوا اقتصاديين بقدر ما كانوا فلاسفة . اما فيما يخص مدرسة هيغل فقد اوضحناه فيما سبق

ولنلق مع ذلك نظرة سريعة الى الدين الذي هو ابعد ما يكون عن الحياة المادية ويبدو غريباً جداً عنها ان الدين قد ولد في عصور بدائية ، من تخيلات الناس الجاهلة ، الغامضة ، البدائية عن طبيعتهم ذاتها وعن الطبيعة الخارجية التي تحيط بهم ، ولكن

كل ايديولوجية ، ما ان تنشأ حتى تتطور بالارتباط مع جميع التصورات القائمة وتخضعها للتعديل المتواصل . والا لما كانت ايديولوجية ، اي انها ما كانت تواجه الافكار بوصفها هوّيات مستقلة تتطور بشكل مستقل وتخضع فقط لقوانينها الخاصة . وواقع ان الشروط المادية لحياة الناس الذين تجري في دماغهم عملية التفكير هذه ، تحدد ، آخر الامر ، مجرى هذه العملية ، يبقى عند هؤلاء الناس بالضرورة غير مدرك ، والا لانتهت كل ايديولوجية . ان التخيلات الدينية الاولية التي هي في اغلب الحالات مشتركة بين كل جماعة من الشعوب المتقاربة ، تتطور ، بعد انقسام مثل هذه الجماعات ، تطوراً اصيلا عند كل شعب تبعا لشروط الحياة الخاصة به . وحركة تطور التخيلات الدينية عند جملة من جماعات الشعوب هذه ، ولا سيما للجماعة الآرية (المسماة الهندية ـ الاوروبية) قد بحثها مفصلا علم مقارنة الاساطير فالآلهة التي تشكلت على هذا النحو عند كل شعب كانت آلهة قومية ، وما كان سلطانها يتجاوز حدود الارض القومية التي كان على هذه الآلهة ان تحميها ، بينما في الجانب الآخر من الحدود كانت آلهة اخرى تبسط سلطانها دون منازع . ولم تكن هذه الآلهة لتحيا في مخيلة الناس الا ما دامت الامة التي خلقتها قائمة ، وكانت تختفي في الوقت الذي تختفي فيه الامة . فالاقوام القديمة سقطت تحت ضربات الامبراطورية الرومانية العالمية ، التي لا نستطيع ان نبحث هنا الشروط الاقتصادية لنشوئها ان الآلهة القومية القديمة قد ضاعت هيبتها كما حدث ايضاً مع آلهة الرومان التي فُصّلت حسب قياس مدينة روما الضيق فان الحاجة لاكمال الامبراطورية العالمية بدين عالمي تبدو واضحة في محاولات روما لكي تبسط في ارضها عبادة جميع الآلهة الغريبة المحترمة بهذا الحد

او ذاك ، الى جانب عبادة الآلهة المحليـــة . ولكن لا يمكن ابداع دين عالمي جديد بهذا الشكل ، اي بواسطة مراسيم امبراطورية . ان الدين العالمي الجديد ، اي المسيحيـــة ، كان قد نشأ بدون ضجة ، من خلط بين اللاهوت الشرقي المعمم ، ولا سيما اليهودي وبين الفلسفة اليونانية المبتذلة ، ولا سيما الفلسفة الرواقيـــة ولكي نعرف اليوم ما كان عليه شكل المسيحية في الابتداء ، يجب ان نقوم بابحاث مفصلة ، لان الشكل الذي نقلت به الينا المسيحية هو الشكل الرسمي الذي اضفاه عليها المجمع النيقاوي حيث كيفت المسيحية لتقوم بدور دين الدولة (٢١) . وعلى كل حال ، ان واقع ان المسيحية غدت دين دولة بعد مائتين وخمسين سنة على ولادتها ، يدل بما فيه الكفاية الى اي حد كانت المسيحية ديناً يتلاءم مع ظروف ذلك العصر . ان المسيحية ، بتتبعها تطور الاقطاعية ، قد اتخذت في القرون الوسطى شكل الدين الذي يلائم الاقطاعية ، مع تدرج اقطاعي في المراتب مطابق . وحين توطدت البرجوازيـــة ، تطورت البدعة البروتستانتية معارضة للكاثوليكية الاقطاعية ، اولا في فرنسا الجنوبية عند الالبيجيين (٢٢) في عصر اوج ازدهار المدن هناك . ان القرون الوسطى قد الحقت بعلم اللاهوت جميع الاشكال الاخرى للايديولوجية : الفلسفة ، السياسة ، علم الحقوق ، وجعلت منها اقساماً تابعة لهذا العلم . ومن جراء ذلك اضطرت كل حركة اجتماعية وسياسية الى اتخاذ شكل لاهوتي . ومن اجل ان تحدث حركة عاصفة بين الجماهير التي كانت عقولها محشوة بالطعام الديني فقط ، كان ينبغي ان تقدم لهذه الجماهير مصالحها الخاصة بها في لباس ديني . وعلى نمط البرجوازية التي احدثت لنفسها منذ البدء توابع في المدن من العوام غير المالكين ، والعمال المياومنين ، والخدم على انواعهم ــ اسلاف البروليتاريا الآتية ــ الذين ما كانوا ينتسبون الى اي مرتبة معينة ، انقسمت البدعـــة باكراً جداً الى

نوعين بدعة برجوازية معتدلة وبدعة ثورية عامية كان يكرهها حتى انصار البدعة البرجوازية .

ان منعة البدعة البروتستانتية كانت توافق منعة البرجوازية الصاعدة . وحينما توطدت اركان هذه البرجوازية كفاية ، بدأ نضالها ضد طبقة الاشراف الاقطاعية ، الذي كان حتى ذلك نضالا محلياً على الاغلب ، يتخذ مقاييس وطنية تشمل الامة باسرها والمعركة الكبرى الاولى المسماة بالاصلاح قد حدثت في المانيا . فالبرجوازية لم تكن لا قوية ولا متطورة كفاية لكي توحد تحت رايتها جميع المراتب الاخرى الثائرة : عوام المدن ، والاشراف الصغار والفلاحين في الارياف . لقد انهزم الاشراف اول من انهزم ؛ وقام الفلاحون بانتفاضة تؤلف ذروة هذه الحركة الثورية كلها الا ان المدن لم تؤيد الفلاحين وانهزمت هذه الثورة امام جيوش الامراء الذين استفادوا من كل نتائجها المربحة . ومذ ذاك اختفت المانيا لعصور ثلاثة كاملة من بين الامم التي تعمل بصورة مستقلة ونشيطة في التاريخ ولكن الى جانب الالماني لوتر ، كان هناك الفرنسي كالفين فقد وضع كالفين ، بحدة فرنسية اصيلة ، في المكان الاول ، صفة الاصلاح البرجوازية ، مسبغاً على الكنيسة شكلا جمهورياً ديموقراطياً وحين سار الاصلاح اللوتري في المانيا بطريق التدهور دافعاً هذه البلاد الى الهلاك ، اتخذ الجمهوريون في جينيف وهولنده واسكتلنده الاصلاح الكالفيني راية لهم ، فحرر هولنده من سيطرة اسبانيا والامبراطورية الالمانية (٢٣) وزود الفصل الثاني من الثورة البرجوازية الذي جرى في انجلترا باللباس الايديولوجي . ففي انجلترا ، تجلت الكالفينية بوصفها قناعاً دينياً حقيقياً لمصالح البرجوازية في ذلك العصر ، ولهذا لم تلق الاعتراف العام بعد ثورة عام ١٦٨٩ التي انتهت بمساومة بين قسم من الاشراف

والبرجوازية (٢٤) فقد اعيدت كنيسة الدولة الانجليزية ولكن في غير شكلها القديم ، في غير شكل الكاثوليكية مع الملك بوصفه بابا ؛ فقد اصطبغت الآن لدرجة كبيرة بصبغة الكالفينية . لقد كانت الكنيسة القديمة للدولة تحتفل بالاحد الكاثوليكي المرح وتطارد الاحد الكالفيني الممل . اما الكنيسة الجديدة ، المشبعة بالروح البرجوازية ، فقد اقرت هذا الاخير بالضبط وهو لا يزال الى اليوم يجمل انجلترا .

في عام ١٦٨٥ كانت الاقلية الكالفينية في فرنسا قد قمعت ، فاضطرت الى اعتناق الكاثوليكية ، او طردت (٢٥) . ولكن ، إلام ادى ذلك ؟ في ذلك العصر ، كان المفكر الحر بيير بايل في ذروة نشاطه ، وفي عام ١٦٩٤ ولد فولتير ان التدابير القهرية التي اتخذها لويس الرابع عشر لم تؤد الى شيء سوى انها سهلت للبرجوازية الفرنسية تحقيق ثورتها بالشكل اللاديني ، بالشكل السياسي البحت ، الذي كان وحده يوافق وضع البرجوازية المتطور . فعوضا عن البروتستانت ، دخل المفكرون الاحرار في الجمعيات الوطنية . وهذا يعني ان المسيحية قد دخلت في مرحلتها الاخيرة . اذ انه لم يبق في مستطاعها متابعة تقديم القناع الايديولوجي لمساعي اي طبقة تقدمية ؛ واصبحت اكثر فاكثر ملكا للطبقات السائدة وحدها تستخدمها مجرد وسيلة للحكم ، ولجاما للطبقات السفلى . وفي هذه الحال تستخدم كل طبقة من الطبقات السائدة دينها الخاص : الاشراف الملاكون العقاريون ــ الجزويتية الكاثوليكية او الارثوذكسية البروتستانتية ؛ والبرجوازيون الليبراليون والراديكاليون ــ العقلانية اما قضية معرفة ما اذا كان هؤلاء السادة انفسهم يؤمنون بدينهم ام لا ، فهي قضية لا ترتدي اية اهمية .

وهكذا نرى ان الدين ، ما ان ينشأ ، حتى يحتفظ دائماً باحتياط معين من التخيلات الموروثة عن الازمنة السابقة لان التقليد في جميع الميادين الفكرية بوجه عام هو قوة محافظة كبرى . ولكن التغيرات التي تحدث في احتياط التخيلات هذا تحددها العلاقات الطبقية ، اي العلاقات الاقتصادية بين الناس الذين يقومون بهذه التغيرات . وهذا يكفي هنا .

ان العرض الوارد اعلاه لم يكن في مستطاعه ان يعطي الا لمحة عامة عن نظرية ماركس في التاريخ ويوضحها ببعض الامثلة في احسن الاحوال . ففي التاريخ نفسه فقط يمكن ان نجد البراهين على صحة هذه النظرية ، ويحق لي ان اقول هنا ان المؤلفات الاخرى قدمت الكفاية من هذه البراهين . ولكن نظرية ماركس في التاريخ توجه ضربة مميتة للفلسفة في ميدان التاريخ كما ان المفهوم الديالكتيكي عن الطبيعة يجعل كل فلسفة للطبيعة غير مجدية وغير ممكنة . والمهمة الآن ، هنا وهناك ، لا تتقوم في اختلاق العلاقات اختلاقاً ، بل في اكتشافها في الوقائع نفسها . ولم يبق للفلسفة ، المطرودة من الطبيعة ومن التاريخ ، سوى ميدان الفكرة البحتة بقدر ما لا يزال هذا الميدان قائماً علم قوانين حركة التفكير ذاتها ، المنطق والديالكتيك .

* * *

بعد ثورة عام ١٨٤٨ ، اقالت المانيا «المثقفة» النظرية وانتقلت الى النشاط العملي . فالحرفة الصغيرة والمانيفاكتورة القائمتان على العمل اليدوي قد اخلتا المكان لصناعة كبيرة حقيقية . وعادت المانيا فظهرت في السوق العالمية فان الامبراطورية الالمانية الصغرى الجديدة (٢٦) قد ازالت ، على الاقل ، اصعب

العراقيل التي اقامها وجود الدويلات العديدة ، وبقايا الاقطاعية ، ونظام الادارة البيروقراطي ، في طريق هذا التطور . ولكن بقدر ما كانت المضاربة تغادر مكاتب الفلاسفة وتبني لنفسها معبداً في بورصة الاوراق المالية ، بقدر ما كانت المانيا المثقفة تفقد ذلك الاهتمام الكبير بالنظرية الذي كان مجد المانيا في عصر اعمق اهانتها السياسية – الاهتمام بالبحث العلمي البحت ، سواء أكانت نتيجته مفيدة عملياً ام لا ، معارضة لاوامر البوليس ام لا . والحقيقة ان العلوم الطبيعية الرسمية الالمانية ، ولا سيما في ميدان الابحاث الخاصة، قد ظلت في مستوى العصر. ولكن المجلة الاميركية «Science» («ساينس») قد لاحظت عن حق ان النجاحات الحاسمة في دراسة العلاقة الكبرى بين الظواهر المنعزلة وتعميمها في قوانين ، انما تتحقق حالياً في انجلترا بصورة رئيسية وليس في المانيا ، كما كان الامر فيما مضى اما فيما يخص العلوم التاريخية ، بما فيها الفلسفة ، فان روح البحث النظري القديمة ، البحث الذي لا يوقفه شيء ، قد اختفت هنا تماماً مع الفلسفة الكلاسيكية . وحلت محلها الفلسفة الاختيارية البليدة ، والاهتمام الوجل بالحصول على المنصب والارباح ، وحتى الوصولية باخس اشكالها ان ممثلي هذا العلم الرسميين قد غدوا المفكرين السافرين للبرجوازية وللدولة القائمة ، وهذا في عصر تبدي كلتاهما العداوة السافرة للطبقة العاملة

في صفوف الطبقة العاملة فقط ، لا يزال الاهتمام الالماني بالنظرية باقياً ، لا ينضب . ومن هنا لا ينتزعه شيء . هنا لا يهتمون بمنصب ولا بربح ، ولا بحماية رحيمة من الاعلى . بل على العكس ، فبقدر ما يتقدم العلم ببسالة واقدام ، بقدر ما يجد نفسه متفقاً مع مصالح واهداف العمال . ان الاتجاه الجديد الذي وجد في

تاريخ تطور العمل المفتاح لفهم كل تاريخ المجتمع ، قد خاطب منذ البدء الطبقة العاملة بالدرجة الاولى ، ووجد من جانبها ذاك العطف الذي لم يبحث عنه ولم ينتظره عند العلم الرسمي . ان الحركة العمالية الالمانية هي وريثة الفلسفة الكلاسيكية الالمانية

كتب في اوائل عام ١٨٨٦. نشر في العددين ٤ و٥ من مجلة «Die Neue Zeit» عام ١٨٨٦ ، وفي طبعة منفردة في شتوتغارت عام ١٨٨٨

يصدر حسب نص طبعة عام ١٨٨٨

تمت الترجمة نقلا عن الالمانية

انجلس

مسألة الفلاحين في فرنسا والمانيا (٢٧)

تعجب الاحزاب البرجوازية والرجعية خارق العجب لأن مسألة الفلاحين اخذت في الوقت الحاضر ترد ، فجاة وفي كل مكان ، في جدول الاعمال عند الاشتراكيين . ولا بد لها ، والحق يقال ، ان تعجب لأن هذا لم يحدث من زمان . فمن ارلنده الى صقلية ، ومن الاندلس الى روسيا وبلغاريا ، يبدو الفلاح عاملا جوهريا جداً بين عوامل السكان والانتاج والقوة السياسية . ولا يستثنى غير مقاطعتين من اوروبا الغربية وفي بريطانيا العظمى بالذات ، ازاحت الملكية الكبيرة للارض والحراثة الكبيرة كليا الفلاح الذي يعيش من استثمارته ؛ وفي بروسيا شرقي الالب يجري التطور ذاته منذ بضعة قرون ، وهنا ايضا «يُزاح» • الفلاح اكثر فاكثر ، او يُستبعد على الاقل الى المؤخرة في الميدانين الاقتصادي والسياسي .

ان الفلاح ، بوصفه عاملا من عوامل القوة السياسية ، لا يظهر نفسه حتى الآن في غالبية الاحوال الا بلامبالاته التي تمتد

• Wird «gelegt». Bauernlegen ـ تعبير تكنيكي لطرد الفلاحين ومصادرة املاكهم في تاريخ المانيا (ملاحظة لينين في ترجمته لمطلع بحث انجلس .)

جذورها في عزلة الحياة الريفية وهذه اللامبالاة لدى جماهير واسعة من السكان هي اقوى سند ، لا للفساد البرلماني في باريس وروما وحسب ، بل ايضاً للاستبداد الروسي ولكن هذه اللامبالاة ليست ابداً عقبة يستحيل تذليلها فمنذ ان نشأت الحركة العمالية ، لم يكن من العسير جداً على برجوازيي اوروبا الغربية ، ولا سيما في الانحاء التي تهيمن فيها الملكية الفلاحية الصغيرة المجزأة ان يثيروا في نفوس الفلاحين الحذر والكره حيال العمال الاشتراكيين ، وان يصوروا هؤلاء امام خيال الفلاح بصورة partageux ، بصورة انصار «للتقسيم» ، بصورة مدنيين كسالى ، طماعين ، يعتدون على الملكية الفلاحية . واذا الهبات الاشتراكية المبهمة في ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨ سرعان ما يكنسها تصويت الفلاحين الفرنسيين الرجعي ؛ واذا الفلاح الذي يرغب في ان يدعوه وشأنه يسحب من دفينة ذكرياته اسطورة الامبراطور الفلاحي نابليون ويخلق الامبراطورية الثانية (٢٨) . وجميعنا نعرف اي ثمن دفعه الشعب الفرنسي لقاء مائرة الفلاح هذه وحدها ؛ ومن عواقب هذه المائرة لا يزال يعاني الشعب الفرنسي حتى الآن .

ولكن اشياء كثيرة تغيرت مذ ذاك . فان تطور شكل الانتاج الرأسمالي قد بتر عصب حياة الانتاج الصغير في الزراعة ، وهذا الانتاج الصغير يسير بسبيل الهلاك والتدهور بلا مردّ . ومزاحمة اميركا الشمالية والجنوبية والهند قد صبت في السوق الاوروبية سيولا من الحبوب الرخيصة ، والرخيصة الى حد ان منتجاً اوروبياً واحداً لم يستطع ان ينافسها ان شبح الهلاك يزحف على مالك الارض الكبير وعلى الفلاح الصغير ، يزحف عليهما معاً بالقدر نفسه . وبما انهما كلاهما مالك ارض وساكن ريف ، فان مالك الارض الكبير يعلن نفسه مناضلا طليعياً في سبيل مصالح الفلاح

الصغير ، والفلاح الصغير يعترف به ـ عموما واجمالا ـ مناضلا في سبيل مصالحه .

وفي هذه الاثناء ، نما في الغرب حزب عمالي اشتراكي جبار . واتضحت الهواجس والتطلعات الغامضة من عهد ثورة شباط ، وازدادت اتساعا وعمقا ، وتحولت الى برنامج يستجيب لجميع مقتضيات العلم ويتضمن مطالب محددة ، ملموسة ؛ والنواب الاشتراكيون الذين يتزايد عددهم على الدوام يدافعون عن هذه المطالب في البرلمانات الالماني والفرنسي والبلجيكي . واصبح ظفر الحزب الاشتراكي بالسلطة السياسية قضية مستقبل غير بعيد ولكنه يجب على هذا الحزب ، لكي يظفر بالسلطة السياسية ، ان يذهب بادئ بدء من المدينة الى الريف ، يجب عليه ان يغدو قوة في الريف ان الحزب الاشتراكي الذي يتميز عن الاحزاب الاخرى بفهمه الواضح للصلة بين الاسباب الاقتصادية والعواقب السياسية ، والذي كشف بفضل ذلك من زمان بعيد سيماء الذئب تحت جلد حمل الملاك العقاري الكبير الذي يفرض صداقته على الفلاح ، ـ ترى ، هل يسع هذا الحزب ان يترك بهدوء الفلاح الذي يتهدده الهلاك ، في ايدي حماته الكاذبين ، هل يسعه ان يترك الفلاح في ايديهم حتى يحولوه من خصم خامل للعمال الصناعيين الى خصم نشيط ؟ وهكذا نجد انفسنا في مركز المسألة الفلاحية .

١

ان سكان الريف الذين يمكننا ان نتوجه اليهم ، يتألفون من اقسام مكوّنة مختلفة جداً تتمايز بدورها حسب اختلاف الاماكن ففي غرب المانيا ، كما في فرنسا وبلجيكا ، يسود الانتاج

الصغير للفلاحين الصغار الذين هم بمعظمهم ملاكون وفي اقلية الاحوال مستاجرون لقطعهم الصغيرة من الارض .

وفي الشمال الغربي ــ اي في ساكسونيا السفلى وشليزفيغ ــ غولشتين ــ يهيمن الفلاحون الكبار والمتوسطون الذين لا يستطيعون الاستغناء عن الاجراء الزراعيين والاجيرات الزراعيـــات وحتى عن العمال المياومين . والوضع نفسه في قسم معين من بافاريا .

وفي بروسيا شرقي الالب ومكلنبورغ ، نجد منطقة الملكية الكبيرة للارض والانتاج الكبير المرفقين بالخدم البيتيين والاجراء الزراعيين والعمال المياومين ، كما نجد هنا وهناك عدداً غير كبير نسبياً من الفلاحين الصغار والمتوسطين يقل باستمرار .

وفي المانيا الوسطى ، نرى خليطاً من جميع هذه الاشكال للانتاج ولملكية الارض بنسب مختلفة ، تبعاً للاماكن ، مع العلم ان ايا من هذه الاشكال لا يهيمن في رقعة كبيرة نوعاً من الارض .

وفضلا عن ذلك ، توجد اماكن مختلفة المقاييس لا تكفي فيها الارض المحروثة الخاصة او المستاجرة لمعيشة العائلة ولا تشكل غير اساس لحرفة من الحرف ، جاعلة من الممكن بالنسبة لهذه الحرفة قيام مقاييس للاجرة منخفضة ، منخفضة الى درجة لا تصدق بدون هذا الشرط ، تؤمن تصريف المنتوجات بكل تاكيد ، ايا كانت المنافسة الاجنبية .

فاي من اقسام سكان الريف هذه يمكن اجتذابها الى الحزب لاشتراكي ــ الديموقراطي ؟ بديهي اننا لن ندرس هذه المسالة الا بخطوطها الكبرى ؛ ولن نتناول بالبحث غير الاشكال الحـــادة التعبير ؛ فان ضيق المجال لا يتيح لنا التطرق الى الدرجـــات الوسيطة والى حالات اختلاط تركيب السكان في الريف .

لنبدأ من الفلاح الصغير . ان هذه الفئة هي اهم فئات الفلاحين ،

وليس بالنسبة لاوروبا الغربية عموماً وحسب . كلا . فان مركز الثقل في كل هذه المسالة انما يقع هو ايضاً في هذه الفئة . فما ان نستوضح موقفنا من الفلاح الصغير حتى نملك جميع نقاط الارتكاز لاجل تحديد موقفنا من سائر اقسام سكان الريف .

نحن نفهم هنا بالفلاح الصغير مالك او مستاجر – ولا سيما مالك – قطعة صغيرة من الارض لا يزيد قدرها عما يمكنه ، عموماً ، ان يحرثه بمساعدة عائلته بالذات ولا يقل عما يمكن ان يعيل عائلته . وعليه يكون هذا الفلاح الصغير ، مثله مثل الحرفي الصغير ، عاملا يختلف عن البروليتاري المعاصر بكونه لا يزال يملك ادوات عمله ؛ وهذا ، بالتالي ، راسب اسلوب للانتاج غدا في طيات الماضي . ثم ان الفلاح الصغير يختلف من ثلاثة وجوه عن سلفه ، الفلاح القن ، والتابع او الحر في حالات استثنائية نادرة ، ولكن الملزم بالسخرة والاتاوة . اولا ، بكون الثورة الفرنسية قد حررته من الفرائض والاتاوات الاقطاعية التي كان ملزماً بها حيال الاقطاعي ، وامنت له في اغلبية الاحوال ، وعلى الاقل في الضفة اليسرى من نهر الرين ، قطعته الفلاحية كملكية حرة خاصة له . ثانياً ، بكونه فقد حماية المشاعة ذات الادارة الذاتية التي كان عضواً فيها ، وفقد في الوقت نفسه نصيبه في حق الاستفادة من الارض المشاعية السابقة . فان الارض المشاعية قد انتزعها منه بالغش والحيلة ، اما سيده الاقطاعي السابق واما القانون البيروقراطي ، الليبيرالي المبني على الحق الروماني ، ففقد الفلاح الصغير المعاصر بالتالي امكانية امتلاك ماشيته للجر بدون شراء الاعلاف . والحال ان اهمية خسارة الحق في الارض المشاعية تفوق كثيراً ، من الناحية الاقتصادية ، اهمية الغاء الفرائض الاقطاعية ؛ ان عدد الفلاحين الذين لا يملكون امكانية امتلاك ماشية الجر ينمو بلا انقطاع .

ثالثاً ، يتميز الفلاح المعاصر بكونه فقد نصف عمله المنتج السابق . فمن قبل كان ينتج بنفسه مع عائلته ، من الخامات التي يحصل عليها بنفسه ، القسم الاكبر من المنتوجات الصناعية التي كان يحتاج اليها ؛ اما حاجاته الباقية ، فكان يلبيهـــا الجيران القرويون الذين يمارسون حرفة من الحرف الى جانب الزراعة ، ويتقاضون اتعابهم بمعظمها بصورة منتوجات يعطونهم اياها على سبيل المقايضة او بصورة خدمات يقدمونها لهم بالمقابل ان العائلة ، بله القرية بمقدار اكبر ، كانت تدير اقتصادها بنفسها ، وتنتج تقريباً كل ما تحتاج اليه . كان ذلك اقتصاداً طبيعياً كاملا تقريباً ، ولم تكن ثمة اي حاجة تقريباً الى النقود . وقد وضع الانتاج الرأسمالي حداً لهذا بواسطة الاقتصاد النقدي والصناعة الكبيرة ولئن كانت الارض المشاعية الشرط الاساسي الاول لوجود الفلاح ، فان المهنة المعاونة الصناعية كانت الشرط الاساسي الثاني . واذا الفلاح يتهاوى اعمق فاعمق فالضرائب ، وقلة المحصول ، والقسمات بين الورثة ، والدعاوى امام المحاكم تدفع الفلاحين الواحد تلو الآخر الى المرابي ، والديون تنتشر اوسع فاوسع وتمسي بالنسبة لكل فلاح بمفرده اشد فاشد وطاة ، ــ وبكلمة ، ان صاحبنا الفلاح الصغير ، شانه شان كل راسب من اسلوب انتاج ولى زمنه ، يسير بلا مردّ في طريق الهلاك . انه بروليتاري الغد .

وبهذه الصفة ، ينبغي له ان يستمع بطيبة خاطر الى الدعاية الاشتراكية . ولكن شعور الملكية الخاصة الذي تغلغل في لحمه ودمه لا يزال يمنعه عن ذلك . وبقدر ما يصعب عليه النضال في سبيل قطعته الصغيرة من الارض ، التي تتعرض لمثل هذه المخـــاطر ، بقدر ما يتشبث بها بيأس وعناد ويميل الى ان يرى في الاشتراكي ـ الديموقراطي الذي يحدثه عن احالة ملكية الارض الى يد المجتمع

باسره عدواً خطراً كالمرابي والمحامي فباي وسائل يترتب على الاشتراكية-الديموقراطية ان تناضل ضد هذا الوهم ؟ وما يمكن ان تعرض على الفلاح الصغير الهالك دون ان تخون نفسها ؟

اننا نجد هنا نقطة ارتكاز عملية في البرنامج الزراعي الذي وضعه الاشتراكيون الفرنسيون ذوو الاتجاه الماركسي ، وهذا البرنامج جدير بمزيد من الانتباه خصوصاً وانه يصدر من بلد الاستثمارة الفلاحية الصغيرة الكلاسيكي .

في مؤتمر مرسيليا عام ١٨٩٢ (٢٩) ، اقر اول برنامج زراعي للحزب . ان هذا البرنامج يطالب **العمال** الزراعيين الذين لا ارض عندهم (اي للعمال المياومين وللخدم البيتيين) بحد ادنى للاجرة تقرره النقابات والمجالس المشاعية ؛ بتاسيس محاكم مهنية ريفية نصف اعضائها من العمال ؛ بمنع بيع الاراضي المشاعية ، وتاجير اراضي الدولة من المشاعات ، والزام المشاعات بتسليم كل هذه الارض – الخاصة منها والمستاجرة – الى جمعيات عائلات العمال الزراعيين الذين لا ارض عندهم ، لاجل حراثتها بصورة مشتركة ، دون استخدام العمال الماجورين ، وتحت رقابة المشاعة ؛ بمعاشات للشيخوخة والعجز تغطيها ضريبة خاصة على الملكية الكبيرة للارض .

ويطالب البرنامج من اجل **الفلاحين الصغار** ، بمن فيهم هنا المستاجرون : باقتناء الآلات الزراعية من قبل المشاعات بغية تاجيرها من الفلاحين حسب كلفتها ؛ بانشاء جمعيات فلاحية تعاونية لشراء الاسمدة وانابيب تصريف المياه والبذور ، وخلافه ، ولبيع المنتوجات ؛ بالغاء الضريبة المستوفاة عند انتقال ملكية قطع الارض من يد الى اخرى ، اذا كانت قيمتها لا تربو على ٥٠٠٠ فرنك؛ بتاسيس لجان وساطة حسب النموذج الارلندي

بغية تخفيض بدلات الايجار الباهظة وبغية التعويض على المستاجرين والمحاصين (métayers) التاركين لقاء زيادتهم لقيمة قطعة الارض ؛ بالغاء المادة ٢١٠٢ من Code civil التي تمنح مالك الارض حق انتزاع المحصول لقاء الدين ، وحرمان الدائنين حق القاء الحجز على الحبوب قبل الحصاد ؛ بمنع القاء الحجز على حد ادنى معين من الادوات الزراعية والمحصول والبذار والاسمدة وماشية الجر ، ـ وبكلمة ، على كل ما لا يمكن للفلاح بدونه ان يدير استثمارته ؛ باعادة النظر في السجل العقاري العام الذي شاخ من زمان بعيد ، وحتى ذاك ، باعادة النظر فيه محليـاً في كل مشاعـة ؛ واخيراً بالتعليم المختص الزراعي المجاني وتنظيم المحطات الزراعيـة الاختبارية

نحن نرى ان المطالب المقدمة في مصلحة الفلاحين ـ ولن نتناول هنا الآن المطالب في مصلحة العمال ـ لا تمضي بعيداً جداً فان قسماً منها قد تحقق في بلدان اخرى . ومحاكم التحكيـم لاجـل المستاجرين تُشكّل بكـل وضوح حسب النمـوذج الارلنـدي . والجمعيات الفلاحية التعاونية قائمة منذ حين في المقاطعات المتاخمة لنهر الرين . واعادة النظر في السجل العقاري هي ، في عموم اوروبا الغربية ، امنية طيبة دائمة عند جميع الليبراليين وحتى عنـد البيروقراطيين . كذلك بنود البرنامج الاخرى يمكن تحقيقها دون ان يتكبد النظام الراسمالي القائم خسارة خاصة . ونحن لا نقول هذا الا من اجل وصف البرنامج ، وليس ابداً للومه ، بل بالعكس

فبفضل هذا البرنامج ، احرز الحزب بين الفلاحين في مختلف مقاطعات فرنسا نجاحات كبيرة الى حد ان رفاقنـا الفرنسيين ارادوا ـ والشهية تاتي في سياق الاكل ـ تكييفه اكثر من ذي قبل لذوق الفلاحين ثم انهم شعروا ، والحق يقال ، انهم يسيرون في

طريق خطر فكيف تمكن مساعدة الفلاح – لا بوصفه بروليتاري الغد ، بل بوصفه الفلاح المالك الحالي – دون انتهاك المبادئ الاساسية للبرنامج الاشتراكي العام ؟ وتحاشيا لهذا الاعتراض ، استهلوا باقتراحات عملية جديدة الحيثيات النظرية التي تحاول ان تبرهن ان مبادئ الاشتراكية تشمل حماية الملكية الفلاحية الصغيرة من الهلاك في ظل اسلوب الانتاج الرأسمالي ، رغم انه من الواضح تماما لاصحاب هذه الحيثيات ان هذا الهلاك محتم لا ندحة عنه . وسندرس الآن بمزيد من التفصيل هذه الحيثيات ، وكذلك المطالب ذاتها التي اقرها مؤتمر نانت في ايلول (سبتمبر) من السنة الجارية .

تبدأ الحيثيات بما يلي :

وحيث ان المنتجين ، حسب النص الحرفي لبرنامج الحزب العام ، لا يمكنهم ان يكونوا احراراً الا اذا كانوا يملكون وسائل الانتاج ؛

وحيث انه اذا كانت وسائل الانتاج هذه قد بلغت في مضمار الصناعة درجة من التمركز الرأسمالي لا يمكن معها اعادتها الى المنتجين الا بشكل جماعي او اجتماعي ، فان الوضع – على الاقل في فرنسا الحالية – يختلف تماما في مضمار الزراعة حيث وسيلة الانتاج ، ونعني بها الارض ، لا تزال في كثير جداً من الانحاء بصفة ملكية فردية في ايدي المنتجين الفرديين ؛

وحيث ان هذا الوضع الذي يتميز بالملكية الصغيرة محكوم عليه لا محالة بالهلاك (est fatalement appelé a disparaître) ، فان الاشتراكية غير مدعوة ، مع ذلك ، الى تعجيل هذا الهلاك لأن مهمتها لا تقوم في فصل الملكية عن العمل ، بل ، بالعكس ، في جمع هذين العاملين لكل انتاج في يد واحدة ، اذ ان الفصل بينهما يؤدي الى عبودية وفقر العاملين المتدهورين الى وضع البروليتاريين ؛

وحيث انه اذا كان واجب الاشتراكيـــة يقوم ، من جهـــة في تمكين البروليتـــاريين الزراعيين من جديد من ان يمتلكوا ـ بشكل جمـــاعي او اجتماعي ـ العقارات الكبيرة بعد مصادرتها من مالكيها الحاليين الطفيليين ، فعلى الاشتراكية ، من جهة اخرى ، واجب ليس اقل الحاحا قوامه حمايـــة ملكية الفلاح الذي يعيش بعرق جبينه من مصلحة الضرائب ومن المرابـــي ومن تطاولات كبار ملاكي الاراضي الجدد ؛

وحيث انه من المقلاني كذلك توسيع هذه الحماية لتشمل ايضـــا اولئك المنتجين الذين يحرثون ارض الغير بوصفهم مستاجرين او محاصين (métayers) ، والذين هم ، حتى عندما يستثمرون العمـــال الميـــاومين ، مضطرون بدرجة معينة الى هذا بسبب الاستثمار الذي ينيخ بثقله عليهـــم بالذات ـ

فان حزب العمال الذي لا يحول ، خلافا للفوضويين ، على تفاقم الفقر واستفحاله ، لأجل تحويل النظام الاجتماعي ، والذي لا ينتظر تحرر العمل والمجتمع باسره الا من تنظيم الشغيلة وتضافر جهودهم سواء في المدينة ام في الريف ، عندما يستولون على السلطة التنفيذية والتشريعية ، ـ ان حزب العمال هذا قد اقر البرنامج الزراعي التالي لكي يوحد لأجل النضال المشترك ضد العدو المشترك ، ضد الملكية الاقطاعية للارض ، جميع عناصر الانتاج الزراعي ، جميع اشكال النشاط التي تمت بصلـــة مبـــاشرة ، على مختلف الاسس الحقوقية ، الى استثمار ارض البلد » .

لنبحث الآن بمزيد من التفصيل هذه «الحيثيات» .

بادئ ذي بدء ، ينبغي اكمال موضوعة البرنامج الفرنسي القائلة ان ملكية وسائل الانتاج هي المقدمة لأجل حرية المنتجين بالموضوعة التي تليها مباشرة والقائلة ان ملكية وسائل الانتاج غير ممكنة الا في شكلين : اما كملكية فرديـــة لم توجد في اي مكان

وزمان بصفتها شكلا عاما بالنسبة لجميع المنتجين ، ويستبعدها التقدم الصناعي اكثر فاكثر ويوما بعد يوم ، واما كملكية عامة ، اي في شكل مقدماته المادية والفكرية خلقها تطور المجتمع الرأسمالي ذاته ؛ وانه ينبغي بالتالي خوض النضال بجميع الوسائل التي توجد تحت تصرف البروليتاريا ، لكي تصبح وسائل الانتاج ملكية عامة .

وعليه ، تبرز الملكية العامة لوسائل الانتاج في البرنامج بوصفها الهدف الرئيسي الوحيد الذي ينبغي التوصل اليه ، وليس فقط في مضمار الصناعة حيث التربة معدة منذ حين ، بل ايضا في كل مكان ، اي في الزراعة كذلك . ان الملكية الفردية كما جاء في البرنامج ، لم توجد في اي مكان وزمان بوصفها شكلا عاما بالنسبة لجميع المنتجين ؛ ولهذا السبب بالذات ، وكذلك لانه يقضى عليها بفعل التقدم الصناعي ، كانت للاشتراكية مصلحة في القضاء عليها وليس ابدأ في صيانتها ؛ ذلك لأن الملكية العامة تصبح غير ممكنة حيث وبقدر ما توجد الملكية الفردية . واذا كان لا بدّ من الاستشهاد بالبرنامج ، تعين الاستشهاد بالبرنامج اجمالا وكليا ، الامر الذي يغير بصورة جوهرية الموضوعة المذكورة من حيثيات نانت ، لأن هذه الموضوعة تربط الحقيقة التاريخية العامة المعبّر عنها فيها بشروط وظروف لا يمكن لهذه الحقيقة الا بموجبها ان تحتفظ الآن بقوتها بالنسبة لاوروبا الغربية واميركا الشمالية

ان امتلاك المنتجين المنفردين لوسائل الانتاج لم يعد يوفر لهم في ايامنا الحرية الحقيقية . فالحرفة في المدينة قد تقوضت ، بل انها زالت كليا في المدن الكبرى مثل لندن ، وحلت محلها الصناعة الكبيرة ونظام التعريق ورجال الاعمال الحقيرين الذين يشكل الافلاس مصدر عيشهم والفلاح الصغير الذي يعيش من استثمارته ليس واثقا من امتلاك قطعة ارضه الصغيرة وليس حراً .

وهو نفسه ، شانه شان بيته وحوشه وحقله الصغير ، يخص المرابي ؛ وعيشه اقل أماناً من عيش البروليتاري الذي يتمتع على الاقل بيوم هادئ ، وان بصورة نادرة ، الامر الذي لا يعرفه ابداً عبد الديون المعذَّب . وحتى لو الغيتم المادة ٢١٠٢ من القانون المدني ، وامنتم للفلاح ، بموجب القانون ، احتياطياً من الادوات الزراعية والماشية وما الى ذلك ، من الممنوع اخذه ضمانة وكفالة ، فانكم مع ذلك لن تنقذوه من وضعه الذي لا مخرج منه ، اي حين يتعين عليه ان يبيع ماشيته «بملء اختياره» ، وان يبيع نفسه من المرابي ، جسداً وروحاً ، لكي يشتري لنفسه تاجيل هلاكه فترة من الوقت ان محاولتكم حماية الفلاح الصغير في ملكيته لا تحمي حريته ، بل تحمي فقط شكلا خاصاً من العبودية ؛ وهي تطيل وجود وضع لا يستطيع في ظله لا العيش ولا الموت ؛ ولهذا كان الاستشهاد هنا بالفقرة الاولى من برنامجكم في غير محله اطلاقاً

وقد جاء في الحيثيات ان وسيلة الانتاج في فرنسا الحالية ، اي الارض على وجه الدقة ، لا تزال في كثير جداً من الانحاء في ايدي المنتجين الفرديين بصفة ملكية فردية ؛ اما مهمة الاشتراكية ، كما جاء فيها ايضاً ، فلا تقوم في فصل الملكية عن العمل ، بل تقوم ، على العكس ، في جمع هذين العاملين لكل انتاج في يد واحدة . — ان هذا الجمع بمثل هذا الشكل العام ليس ابداً مهمة الاشتراكية ، كما سبق وقيل ؛ فان مهمتها تنحصر ، بالاحرى ، في تسليم وسائل الانتاج للمنتجين **كملكية مشتركة** لهم . وما ان يغيب هذا عن بالنا ، حتى تسوقنا الموضوعة المنوه بها اعلاه الى الفكرة الخاطئة الزاعمة ان الاشتراكية مدعوة الى تحويل ملكية الفلاح الصغير الموهومة الحالية لحقله الى ملكية فعلية ، اي تحويل المستاجر الصغير الى مالك ، والى تحويل المالك المرهق بالديون الى ملاك متحرر من

الديون . بديهي ان للاشتراكية مصلحة في زوال هذا المظهر الخادع للملكية الفلاحية ، ولكن ليس بهذه الوسيلة .

وعلى كل حال ، سارت الامور الى حد انهم وجدوا من الممكن ان يزعموا في حيثيات البرنامج ان واجب الاشتراكية ، بله واجبها الملح

«حماية ملكية الفلاح الذي يعيش بعرق جبينه من مصلحة الضرائب ومن المرابي ومن تطاولات كبار ملاكي الاراضي الجدد»

وبذلك تعلن الحيثيات ان واجب الاشتراكية الملح ان تقوم بشيء اعتبرته في الفقرة السابقة مستحيلا . فهي تعهد الى الاشتراكية «حماية» ملكية الفلاحين الصغيرة ، رغم انها تؤكد هي نفسها ان هذه الملكية «محكوم عليها لا محالة بالهلاك» ان مصلحة الضرائب ، والمرابي ، وكبار ملاكي الاراضي الجدد — ماذا يعني هذا ان لم يكن مجرد ادوات يحقق بها اسلوب الانتاج الرأسمالي هذا الهلاك المحتم ؟ اما باي وسائل ينبغي على «الاشتراكية» ان تحمي الفلاح من هذا الثلاثي ، فهذا ما سنراه فيما بعد .

ولكن المطلوب لا يقتصر على حماية ملكية الفلاح الصغير فالى جانب هذا :

«ومن العقلاني كذلك توسيع هذه الحماية لتشمل ايضا اولئك المنتجين الذين يحرثون ارض الغير بوصفهم مستاجرين او محاصين (métayers) ، والذين هم ، حتى عندما يستثمرون العمال المياومين ، مضطرون بدرجة معينة الى هذا بسبب الاستثمار الذي ينيخ بثقله عليهم بالذات»

هنا ننتقل فعلا الى تربة خاصة تماما فالاشتراكية موجهة خصيصا ضد استثمار العمل الماجور . اما هنا ، فيعلنون ان واجب الاشتراكية الملح هو حماية المستاجرين الفرنسيين حين «يستثمرون

العمـال المياومين» ، ـ هكذا قيـل حرفيـا ! وهذا لأن هؤلاء المستاجرين مضطرون بدرجة معينة الى هذا «بسبب الأستثمـار الذي ينيخ بثقله عليهم بالذات» !

ما اسهل واطيب الانزلاق الى اسفـل مـا دمت قد بلغت منحدراً ! ولكن ما العمل اذا جاء فلاح المـاني كبير او متوسط الى الاشتراكيين الفرنسيين وطلب منهم ان يسعوا له عند ادارة الحزب الالماني لكي يدعمه الحزب الاشتراكي-الديموقراطي الالماني في استثمار اجرائه واجيراته الزراعيين ، مستشهداً في هذه الحـال «بالاستثمار الذي ينيخ بثقله عليه بالذات» من جانب المرابي ، وجابي الضرائب ، والمضارب بالحبوب ، وتاجر الماشية ، ـ فبم يجيبونه ؟ ومن ذا الذي يكفل لنا ان كبار مزارعينا ايضاً لن يرسلوا اليهم الكونت كانيتس (فهو ايضاً تقدم باقتراح مماثل بوضع امر استيراد الحبوب في يد الدولة) لكي يطلب هو ايضاً من الاشتراكيين الدعم في استثمار العمال الزراعيين مستشهدين «بالاستثمار الذي ينيخ بثقله عليهم بالذات» من جانب البورصة والمرابي والمضارب بالحبوب ؟

وللمناسبة يجب القول انه لا يخطر ابداً في بال اصدقائنـا الفرنسيين مثل هذا القصد الشرير ، كما قد يبدو فان الفقـرة المذكورة اعلاه لا تقصد غير حالة خاصة تماماً ، ونعني بها الحالة التالية في شمال فرنسا ، كما في مناطقنا التي تنتج الشمندر السكري ، يؤجرون الفلاحين الارض ويلزمونهم بزراعة الشمندر السكري بشروط في غاية الارهاق : ينبغي عليهم ان يبيعوه من مصنع معين للسكر ، وبالسعر الذي يقرره هذا المصنع ، وينبغي عليهم ان يشتروا بذاراً معيناً ، ويستخدموا كمية معينة من سماد معين بدقة ، وعلاوة على كل ذلك ، يغشونهم بلا حياء عند تسليمهم

المحصول كل هذا نعرفه جيداً نحن ايضا في المانيا . ولكن اذا كان الاشتراكيون الفرنسيون قد اعتزموا ان ياخذوا جانب الدفاع عن هذه الفئة من الفلاحين بالذات ، فقد كان يترتب عليهم ان يقولوه بصراحة ووضوح . فان الفقرة المعنية ، بصورتها الحالية ، بصيغتها العامة هذه غير المحدودة ، هي انتهاك مباشر ، لا للبرنامج الفرنسي وحسب ، بل ايضا لمبدأ الاشتراكية الاساسي على العموم؛ ولا يلومن واضعوها غير انفسهم اذا غدت هذه الصيغة غير الدقيقة موضع استغلال من مختلف الجوانب بمعنى غير مرغوب فيه لهم

كذلك من الممكن ان تتعرض للتاويل المشوه نفسه الكلمات الختامية من الحيثيات ، حيث قيل انه يجب على حزب العمال الاشتراكي ان

ويوحد ، لاجل النضال المشترك ضد العدو المشترك ، ضد الملكية الاقطاعية للارض ، جميع عناصر الانتاج الزراعي ، جميع اشكال النشاط التي تمت بصلة مباشرة ، على مختلف الاسس الحقوقية ، الى استثمار ارض البلد ،

اني انكر قطعاً انه يجب على حزب العمال الاشتراكي ، في اي بلد كان من البلدان ، ان يقبل في صفوفه ، الى جانب البروليتاريين الريفيين والفلاحين الصغار ، الفلاحين المتوسطين والكبار او حتى مستاجري العقارات الكبيرة ومربي المواشي الرأسماليين وغيرهم ممن يستثمرون ارض البلد على اساس رأسمالي . ان الملكية العقارية الاقطاعية هي بالنسبة لهم جميعهم عدو مشترك . وفي وسعنا ان نسير معهم في بعض المسائل ، وفي وسعنا ، لأجل بلوغ اهداف معينة ، ان نناضل بعض الوقت الى جانبهم . ومن الممكن ان يقبل حزبنا افراداً من اي طبقة اجتماعية كانت ، ولكنه لن يقبل ابداً

جماعات تمثل مصالح الرأسماليين او البرجوازية المتوسطة او فئة الفلاحين المتوسطين . وليس في هذا اي نوايا سيئة ، كما قد يخيّل ؛ ومن الواضح ان اصحاب المشروع لم يفكروا اطلاقا في كل هذا ؛ ولكن الولع بالتعميمات قد احرج موقفهم ، مع الاسف ، فلا يستغربوا اذا اخذوهم بكلامهم

بعد الحيثيات ، تأتي اضافات الى البرنامج جرى اقرارها حديثا . وهذه ، مثلها مثل الحيثيات ، تشكو نقصا في دقة الصياغة .

فالبند الذي ينبغي بموجبه على المشاعات ان تقتني الآلات الزراعية وتؤجرها من الفلاحين حسب كلفتها ، يتغير ، اولا ، بمعنى ان المشاعات تتلقى من الدولة اعانة لهذا الغرض ، وثانيا بمعنى انه يجب عليها ان تضع الآلات تحت تصرف الفلاحين الصغار مجانا . ان هذا التنازل اللاحق لن يحظى ، اغلب الظن ، باي نجاح عند الفلاحين الصغار الذين لا تتيح لهم حقولهم واسلوب ادارة الاستثمارة ذاته استخدام عدد كبير من الآلات .

وبعد :

«الاستعاضة عن جميع الضرائب القائمة المباشرة وغير المباشرة بضريبة تصاعدية واحدة على جميع الدخول التي تربو على ٣٠٠٠ فرنك» .

ان مثل هذا المطلب يرد تقريبا في كل برنامج اشتراكي-ديموقراطي منذ سنوات عديدة . ولكن ايراده خصيصا في مصلحة الفلاحين الصغار هو امر جديد ولا يفعل غير ان يثبت مبلغ سوء فهم مغزاه الحقيقي . لناخذ ، مثلا ، بريطانيا . فان ميزانية الدولة هناك تبلغ ٩٠ مليون جنيه سترليني . ومن هذا المبلغ ، تقدم ضريبة الدخل ١٣١/٢ ـ ١٤ مليونا ؛ ومن الملايين الـ٧٦ الباقية تقدم المعاملات الخاضعة للضريبة (البريد ، البرق ، رسم الختم) قسما

غير كبير ؛ ولكن القسم الاكبر تقدمه الضرائب على سلع الاستهلاك الواسع ، تقدمه لدى كل خطوة اقتطاعات من دخول جميع المواطنين ، ولا سيما من افقرهم ، بمقادير صغيرة ، غير ملحوظة ، ولكنها تعطي بالاجمال الملايين والملايين ومن المشكوك فيه ان يكون من الممكن في المجتمع المعاصر تغطية نفقات الدولة باسلوب آخر . لنفترض ان هذه الملايين الـ٩٠ جميعها تُجبى في بريطانيا بواسطة ضريبة تصاعدية مباشرة على الدخول التي تبلغ ١٢٠ جنيه سترليني (٣٠٠٠ فرنك) وما فوق . يستفاد مما اورده جيفن ان متوسط التراكم السنوي ، اي النمو السنوي للثروة الوطنية كلها بلغ ٢٤٠ مليون جنيه سترليني من عام ١٨٦٥ الى عام ١٨٧٥ لنفترض انه يبلغ الآن ٣٠٠ مليون في السنة ؛ في مثل هذه الحال يبتلع العبء الضريبي البالغ ٩٠ مليون جنيه قرابة ثلث التراكم كله . وهذا يعني انه ما حكومة ، غير الحكومة الاشتراكية ، تستطيع القيام بمثل هذا ؛ اما متى وصل الاشتراكيون الى الحكم ، فانه سيتعين عليهم ان يتخذوا اجراءات لا يضطلع هذا الاصلاح الضريبي في ظلها الا بدور ايفاء بالتقسيط موقت ، تافه تماماً ، فتنفتح امام الفلاحين الصغار آفاق مختلفة كلياً

ان اصحاب البرنامج انفسهم يفهمون ، على ما يبدو ، ان الفلاحين قد يضطرون الى انتظار هذا الاصلاح الضريبي زمناً طويلا ، ولهذا يعرضون عليهم «في غضون ذلك» (en attendant)

«الغاء ضريبة الارض بالنسبة لجميع الفلاحين الذين يعيشون بعرق جبينهم وتخفيض هذه الضريبة بالنسبة لجميع قطع الاراضي المرهونة»

ان القسم الثاني من هذا المطلب لا يمكن تطبيقه الا بالنسبة لقطع فلاحية أكبر لا تمكن حرائتها بجهود العائلة ذاتها ؛ وهو

بالتالي مفيد مرة اخرى لاولئك الفلاحين الذين ويستثمرون العمال المياومين»

وبعد :

«حرية الصيد البري وصيد السمك دون اي قيد ، باستثناء القيود الناجمة عن ضرورة الحرص على الطريدة والسمك والزرع»

ان لهذا المطلب وقعاً شعبياً كبيراً ، ولكن القسم الثاني من الجملة يقضي على القسم الاول فهل هناك الآن عدد كبير من الارانب البرية والحجلات وسمك الكراكي والشبوط في الانحاء الريفية بكل عائلة فلاحية ؟ وهل هي كثيرة بحيث يمكن تخصيص اكثر من يوم واحد في السنة لكل فلاح من اجل الصيد البري وصيد السمك ؟

«تخفيض الفائدة المئوية القانونية والعادية» ـ

اي قوانين جديدة ضد الربا ، ومحاولة جديدة لتطبيق ذلك الاجراء البوليسي الذي مني دائماً بالفشل في كل مكان خلال الفي سنة . واذا ما تدهور وضع الفلاح الصغير بحيث يغدو اللجوء الى المرابي شراً اصغر بالنسبة له ، فان المرابي سيجد دائماً وسيلة لامتصاص دمه بالاحتيال على القانون ضد الربا . ومن شان هذا الاجراء ، في احسن الاحوال ، ان يسهم في طمانة الفلاح الصغير ، اذ انه لا يعود عليه باي نفع ، بل يصعّب عليه ، بالعكس ، الحصول على قرض عندما يكون بامس الحاجة اليه .

«الاسعاف الطبي المجاني وبيع الادوية بكلفتها» ـ

ان هذا ، على كل حال ، ليس بمطلب فلاحي صرف ؛ فان البرنامج الالماني يمضي الى ابعد ويطالب بتقديم الادوية مجاناً .

«التعويض على عائلات جنود الاحتياط المدعوين للخدمة اثناء قيامهم بالخدمة» ـ

مطبق منذ حين في المانيا والنمسا ، وان بصورة ناقصة جداً ؛ وهو ايضاً ليس بمطلب فلاحي صرف .

«تخفيض التعرفة على نقل الاسمدة والآلات الزراعية والمنتوجات» ـ

مطبق اساساً منذ حين في المانيا ، وعلى الاخص في مصلحة كبار ملاكي الاراضي .

«الاستعداد فوراً لوضع خطة من الاشغال العامة لأجل تحسين التربة وانماء الانتاج الزراعي» ـ

كل هذا لا يتخطى نطاق الغموض والوعود الخلابة ويتفق كذلك قبل كل شيء مع مصالح الملكية العقارية الكبيرة

وجملة القول ان المقترحات العملية التي وردت في البرنامج الزراعي الجديد بعد كل هذه الحيثيات التي تعد بالمن والسلوى ، لم توضح لنا على الاطلاق كيف يريد حزب العمال الفرنسي ان يتوصل الى صيانة ملكية الفلاحين الصغار المجزأة المحكوم عليها لا محالة بالهلاك ، على حد قوله بالذات

٢

ان رفاقنا الفرنسيين محقون بكل تأكيد في مسألة واحدة يستحيل في فرنسا كل انقلاب مكين ضد مشيئة الفلاح الصغير الا انه يخيل اليّ انهم لا يحركون الروافع اللازمة في سعيهم الى الاقتراب من الفلاح .

فهم ، على ما يبدو ، ينطلقون من الرغبة في اكتساب الفلاح الصغير الى جانبهم ، ان لم يكن اليوم ، فغداً ، في الانتخابات العامة المقبلة ، اذا امكن . ولكنه لا يسعهم ان يأملوا في بلوغ هذا الهدف الا اذا اغدقوا وعوداً سخية ، محفوفة باخطار كثيرة ، ويضطرون ، لأجل الدفاع عنها ، الى الادلاء باعتبارات نظرية اشد خطراً بكثير واذا ما نظرنا الى الامور عن كثب ، لتبين لنا ان هذه الوعود السخية تناقض نفسها بنفسها (الوعود بدعم وضع يعلنون على الفور انه محكوم عليه لا محالة بالهلاك) وان الاجراءات المنفردة ، اما لا يمكنها اطلاقاً ان تتسم باي تأثير عملي (القوانين ضد الربا) ، واما تكون مطالب عامة مشتركة للعمال ، واما تكون كذلك في صالح الملكية العقارية الكبيرة ، واما ، اخيراً ، تتسم باهمية تافهة بالنسبة للفلاح الصغير ؛ وهكذا يصلح القسم العملي الصرف من البرنامج المقدمة الخاطئة ويجعل من الكلمات المدوية ، الرهيبة في الظاهر ، الواردة في الحيثيات ، اجراءات لا ضير منها في الواقع .

ولنقل بصراحة نظراً للاوهام التي تنجم من كل الوضع الاقتصادي للفلاح الصغير ومن تربيته ومن نمط حياته الانعزالي ، والتي تدعمها الصحافة البرجوازية وكبار الملاكين العقاريين ، نستطيع ان نكتسب الى جانبنا سواد الفلاحين الصغار بين ليلة وضحاها ، شرط ان نغدق عليهم وعوداً من الجلي ان اننا لا نستطيع الوفاء بها . واعني بذلك انه ينبغي لنا ان نعدهم ، لا بحماية ملكيتهم في جميع الاحوال من جميع القوى الاقتصادية التي تعتدي عليها وحسب ، بل ايضاً بتخليص هذه الملكية من العبء الذي يرهقها الآن : اي بتحويل المستأجر الى مالك حر ، واعفاء المالك الرازح تحت وطأة الرهون العقارية (٣٠) من الديون .

ولو كان في مستطاعنا القيام بذلك ، لعدنا من جديد الى الاوضاع التي لا بدّ ان تتطور منها حتماً من جديد الاوضاع الحالية ، ولما حررنا الفلاح ، بل أجّلنا هلاكه فترة من الوقت .

ولكنه ليس من مصلحتنا اطلاقاً ان نكسب الفلاح الى جانبنا اليوم لكي ينصرف عنا غداً من جديد ، عندما لا نستطيع الوفاء بوعودنا . ولا حاجة بنا الى الفلاح الذي يطالبنا بتخليد ملكيته الصغيرة ، عضواً في الحزب ، شأنه في ذلك شأن المعلم الحرفي الصغير الذي يرغب في تخليد وضعه كمعلم . فمكان امثالهما عند اعداء السامية فليذهبوا اليهم ، ولياخذوا منهم الوعود بانقاذ استثمارتهم الصغيرة ؛ وعندما يعرفون هناك قيمة هذه الجمل الطنانة الفخمة والالحان التي تعزفها كمانات العداء للسامية مبشرة اياهم بنعيم الجنة ، يدركون اكثر فاكثر اننا نحن الذين نعد اقل ونفتش عن الخلاص في اتجاه آخر تماماً ، اننا نحن مع ذلك اناس اوفق واضمن . ولو كان عند الفرنسيين ديماغوجية صاخبة معادية للسامية كالتي عندنا ، لما اقترفوا ، على الارجح ، خطأ ثانت .

فما هو اذن موقفنا من الفلاحين الصغار ؟ واي سلوك ينبغي لنا ان نسلكه حيالهم عندما تصبح سلطة الدولة في يدنا ؟

اولا ، لا ريب في صحة موضوعة البرنامج الفرنسي القائلة اننا نرى سلفاً حتمية هلاك الفلاح الصغير ولكنه ليس لنا في اي حال من الاحوال ان نعجل به بتدخلنا .

ثانياً . من الواضح كذلك انه عندما تصبح سلطة الدولة في يدنا لن يخطر ببالنا ، ان ننتزع ملكية الفلاحين الصغار بالعنف (بتعويض او بغير تعويض ، سيان) مثلما سنكون مضطرين لأن نفعل بالنسبة لكبار الملاكين العقاريين . ان مهمتنا تجاه الفلاحين الصغار تقوم قبل كل شيء في توجيه انتاجهم الخاص ، وملكيتهم الخاصة في السبيل

التعاوني لا بواسطة العنف ، بل عن طريق المثل وتقديم مساعدة المجتمع لهذا الغرض ومن المؤكد انه سيكون لدينا آنذاك ما يكفي من الوسائل لكي نبين للفلاح الصغير المنافع التي لا بدّ ان تكون واضحة له منذ الآن .

منذ قرابة ٢٠ سنة ، تقدم الاشتراكيون الدانماركيون ببرامج مماثلة في بلد لا يوجد فيه ، والحق يقال ، غير مدينة واحدة هي كوبنهاغ ؛ وهكذا يضطرون الى القيام بدعاوتهم ، فيما عدا هذه المدينة ، في اوساط الفلاحين بوجه الحصر تقريباً ينبغي على الفلاحين في هذه القرية او تلك ، او في هذه الابرشية او تلك ، ــ وفي الدانمارك عدد كبير من الاستثمارات الكبيرة الفردية ، ــ ان يجمعوا اراضيهم في عقار ضخم واحد مشترك ، ويحرثوه على حساب جميع المشتركين ويتقاسموا الدخل بنسبة الاقساط ــ ارضاً ونقوداً ــ وبنسبة العمل المبذول . وفي الدانمارك ، لا تضطلع الملكية العقارية الصغيرة الا بدور ثانوي ولكن اذا طبقنا هذه الفكرة في ميدان الاستثمار المجزأ ، وجدنا ان قسماً من الايادي العاملة المستخدمة من قبل سيتعطل عن العمل في حال توحيد قطع الارض الصغيرة وفي حال تسيير استثمارة كبيرة في مجمل الرقعة الموحدة ؛ وفي هذا التوفير في العمل ، تقوم احدى افضليات الاستثمارة الكبيرة . ومن الممكن ايجاد عمل لهذه الايدي العاملة بوسيلتين : اما بوضع قطع اخرى من الارض من العقارات الكبيرة المجاورة تحت تصرف التعاونية الفلاحية ، واما توفير الوسائل والفرصة لأجل القيام بحرفة صناعية معاونة بغية تلبية حاجاتها الخاصة حسب الامكان وعلى الاغلب وفي كلا الحالين ، سيكون وضعها الاقتصادي افضل من ذي قبل ، وهذا ما يؤمن في الوقت نفسه للسلطة العامة المركزية النفوذ الضروري لأجل رفع التعاونية الفلاحية تدريجياً الى اعلى اشكالها ،

ومساواة حقوق وواجبات التعاونية بمجملها وكل من اعضائها على السواء بحقوق وواجبات سائر اقسام المجتمع برمته ان كيفية تطبيق هذا في كل حالة بمفردها ستكون رهنا بظروف الحالة المعنية وبالظروف التي سنظفر فيها بالسلطة السياسية . وعليه ، من الممكن ان نجد بمقدورنا ان نعرض على هذه التعاونيات افضليات اكبر : ان ياخذ المصرف الوطني على عاتقه مجمل رهوناتها ويخفض فائدة الرهن المئوية تخفيضاً كبيراً جداً ؛ منح قروض من الاموال العامة لأجل تنظيم الانتاج الكبير (وهذه القروض ليست الزاماً او بوجه الحصر قروضاً نقدية ، بل ايضاً قروض بالمنتوجات الضرورية للغاية ، اي بالآلات والاسمدة الصناعية ، وما الى ذلك) ، وافضليات اخرى .

وفضلاً عن كل ذلك ، تتلخص المهمة الرئيسية في ان نبين للفلاح بوضوح اننا قادرون على انقاذ وصيانة عقاره وملكيته العقارية ، وذلك بطريقة واحدة فقط ، بتحويلهما الى ملكية تعاونية وانتاج تعاوني . فان الاستثمارة الفردية التي تشترطها الملكية الفردية هي التي تدفع الفلاحين الى الهلاك فاذا ما اصروا على استثمارتهم الفردية ، فانهم سيفقدون حتماً بيوتهم وعقاراتهم على السواء ، وستزيح الاستثمارة الكبيرة الرأسمالية اسلوب انتاجهم الشائخ البائد . هكذا هو الحال . واذا بنا تأتي ونوفر للفلاحين امكانية تسيير الاستثمارات الكبيرة بانفسهم ، لا في صالح الرأسماليين ، بل في صالحهم العام بالذات . ترى ، ألا يمكننا ان نبين للفلاحين بجلاء ان هذا في مصلحتهم الخاصة بالذات ، وان في هذا الوسيلة الوحيدة لخلاصهم ؟

نحن لا يسعنا ابداً ان نعد الفلاحين الصغار بدعم استثمارتهم الفردية وملكيتهم الفردية ضد قوى الانتاج الرأسمالي المتفوقة .

فنحن لا يسعنا ان نعدهم الا بشيء واحد ، هو اننـــا لن نتدخل ضد ارادتهم بالقوة في علاقات ملكيتهم كذلك بوسعنا ان نسهم بقسطنا لكي يسير نضال الراسماليين وكبار ملاكي الاراضي ضد الفلاحين الصغار في الوقت الحاضر ، قدر الامكان ، بوسائل اقل جوراً ، ولكي تقوم قدر الامكان العوائق بوجه النهب السافـــر والغش الصريح اللذين يلجاون اليهمـــا الآن احيانـــا كثيرة جداً . ولكن هذا لن يفلح الا بصورة استثنائية ففي ظروف اسلوب الانتاج الراسمالي المتطور ، لا يفهم احد اين ينتهي الصدق واين يبدأ الغش ولكن هناك فرق بين ان تقف السلطة السياسية الى جانب الخادع او الى جانب المخدوع ، وهذا الفرق سيكون دائما كبيراً اما نحن فاننا نقف بحزم الى جانب الفلاح الصغير ؛ وسنبذل جهدنا في نطاق الممكن ، لكي نجعل قسمته اكثر احتمالا ، لكي نسهل عليه الانتقال الى التعاونيـــة اذا مـــا اقدم على ذلك ، وحتى لكي نعطيه فرصة لأجل التفكير ، وهو في ارضه الصغيرة ، اذا كان لا يستطيع بعد ان يتخذ مثل هذا القرار . ونحن سنفعل ذلك لا لأننا نعتبر الفلاح الصغير الذي يعيش بعرق جبينه مصدراً ممكناً لزيادة صفوفنا وحسب ، بل ايضاً في مصلحة حزبنا المباشرة . فبقدر ما يزداد عدد الفلاحين الذين نجنّبهـــم تحولهـم فعلا الى بروليتاريين ونتمكن من اكتسابهم الى جانبنا بوصفهـــم فلاحين ، بقدر ما يتحقق الانقلاب الاجتماعي بمزيد من السرعة والسهولة . ولا داعي لنا الى انتظار هذا الانقلاب حتى تتكشف في كل مكان عواقب تطور الانتاج الراسمالي باقصى اشكالها ، حتى يسقط آخر حرفي صغير وآخر فلاح صغير ضحية الانتاج الراسمالي الكبير وان التضحيات المادية التي سيتعين تحملها بهذا المعنى من الاموال العامة في صالح الفلاحين ، قد تبدو من وجهة نظـــر الاقتصـــاد

الرأسمالي ، اموالا مبددة هباء ، ولكنها ستكون توظيفـا ممتازاً للرأسمال لأنها ستوفر مبالغ اكبر بعشر مرات ، اغلب الظن ، عند الانفاق على التحويل الاجتماعي بمجملـه وبهذا المعنى نستطيع بالتالي ان نكون ليبراليين جداً حيال الفلاحين . ولا مجال هنا للدخول في التفاصيل ، وتقديم اقتراحات محددة في هذا الاتجاه؛ فهنا لا يمكن ان يتناول الكلام غير أعم السمـات ، غير السمـات الاساسية

وهكذا نقدم شر خدمة ، لا للحزب وحسـب ، بل ايضـا للفلاحين الصغار انفسهم ، بوعود من شانها ان توفر اقل ذريعـة للتفكير باننا نعتزم الحفاظ على الملكية الصغيرة المجزأة خلال مدة مديدة . فمن شان هذا ان يسد مباشرة طريق التحرر امام الفلاحين وان يهبط بالحزب الى مستوى العداء الصياح للسامية . ان واجب حزبنا هو ، بالعكس ، ان يوضح للفلاحين دائما ، المرة تلو المرة ، ان وضعهم ميؤوس منه اطلاقا ما دامت تسود الرأسمالية ، وانه من المستحيل اطلاقا صيانة ملكيتهم المجزأة الصغيرة كما هي عليه ، وانه من المؤكد اطلاقا ان الانتـاج الكبير الرأسمـالي يسحق اقتصادهم الصغير الشائخ والعاجز كما يسحق القطار الحديـدي عربة صغيرة يدوية . وبسلوكنا هذا السلوك ، سنعمل وفقا لحتمية مجرى التطور الاقتصادي ، مع العلم ان هذا التطور سينظف ادمغة الفلاحين لأجل فهم اقوالنا .

ولكني لا استطيع ان اختتم هذه المسالة قبل ان اعرب عن اقتناعي بان واضعي برنامج نانت يتبنون ، من حيث جوهر الامر ، نفس النظرات التي اتبناها انا . وهم عاقلون الى حد انه لا يمكنهم ان لا يفهموا ان الارض الموجودة الآن بصورة ملكية مجزأة صغيرة انما سيتعين ان تنتقل هي ايضا الى الملكية العامة . وهم انفسهم

يعترفون بان الملكيـــة الصغيرة المجزأة محكوم عليهـــا بالزوال . كذلك تقرير المجلس الوطني ، الذي قدمه لافارغ في مؤتمر نانت ، يؤكد كليا هذا الراي . وقد صدر بالالمانيـــة في جريدة «Soxial-demokrat» البرلينية بتاريخ ١٨ تشرين الاول (اكتوبر) مـــن السنة الجارية (٣١) بل ان التضاد نفسه في صيغ برنامج نانت يبين ان واضعيه يقولون في الواقع غير ما كانوا يعتزمون قوله. فاذا لم يفهمهم الآخرون وطفقوا يسيئون استغلال آرائهم ،ـ كما حدث هذا فعلاـ فالذنب ، بالطبع ، ذنبهم هم . وعلى كل حال ، ينبغي لهم ان يوضحوا برنامجهم بمزيد من التفصيل ، وينبغي للمؤتمر الفرنسي التالي ان يعيد النظر فيه من الاساس .

لننتقل الآن الى الفلاحين المتوسطين هنـــا نرى . بسبب قسمة الميراث بصورة رئيسية ، وكذلك بسبب الديون وبيع الارض الاضطراري ـ نماذج درجات متوسطـــة بين الفلاح الصغير والفلاح الكبير الذي احتفظ بقطعة ارضه السابقة كاملة بل وكبّرها . وحيث يعيش الفلاح المتوسط بين الفلاحين الصغار ، لا يختلف عنهم من حيث مصالحه ونظراته ، اي اختلاف جوهري ؛ ذلك انـــه لا بدّ لتجربته الخاصة ان تبين له كم من امثالـــه هبطوا الى مستوى الفلاحين الصغار . ولكن حيث يهيمن الفلاحون المتوسطون والكبار وحيث يتطلب تسيير الاستثمارة في كل مكان معونة الاجراء والاجيرات الزراعيين ، يختلف الحال تماما يقينا انه ينبغي لحزب العمال ان يذود في المقام الاول عن مصالح العمال الماجورين اي الاجراء الزراعيين والاجيرات الزراعيات والعمال المياومين ؛ وبحكـــم هذا وحده ، لا يسعه ان يعطـــي الفلاحين اي وعود تفترض وجـــود عبودية العمال الماجورة في المستقبل ولكنه ما دام الفلاحون الكبار والمتوسطون موجودين بصفتهم هذه ، فانهم لا يستطيعون

الاستغناء عن العمال الماجورين . واذا كان من السخف من جانبنا ان ندعم عند الفلاحين الصغار الأمل في وجودهم زمناً طويلا بوصفهم فلاحين صغاراً ، فان وعد الفلاحين الكبـــار والمتوسطين بالشيء نفسه يتاخم الخيانة السافرة

وهنا يوجد ايضاً شبه بحرفيي المدينة . صحيح انهم تعرضوا للخراب اكثر مما تعرض الفلاحون ، الا انه لا يزال يوجد بينهم حرفيون يعمل عندهم الصنّاع الى جانب المتدربين ، او يقوم عندهم المتدربون بعمل الصناع امـــا اولئك الحرفيون المعلمون الذين يريدون تخليد وضعهم ، فليذهبوا الى اعداء السامية حتى يقتنعوا بانهم هناك ايضا لا يلقون اي مساعدة . واما الباقون فانهم يأتون الينا ، وقد ادركوا حتمية هلاك اسلوب انتاجهم ، ولكنهم يبدون استعدادهم لان يشاطروا في المستقبل المصير الذي ينتظر جميع العمال الآخرين . والحال نفسه فيما يتعلق بالفلاحين الكبار والمتوسطين ان اجراءهم واجيراتهم الزراعيين وعمالهم المياومين يهموننـــا ، بالطبع ، اكثر بكثير مما يهموننا هم . واذا شاء هؤلاء الفلاحون ان يضمنوا لهم وجود استثماراتهم مستقبلا ، فانه لا يسعنا اطلاقـــاً ان نعرض عليهم هذه الضمانة . ومكانهم آنذاك في صفوف اعداء السامية ، وبين اعضاء الاتحاد الفلاحي وما شابه من الاحزاب التي يطيب لها بخاصة ان تعد بكل شيء وان لا تفي باي وعد . نحن نعرف بالتاكيد هذه الحقيقة الاقتصادية القائلة انه لا بدّ للفلاح المتوسط والكبير ايضاً ان يهلكا بلا مناص من جراء مزاحمـــة الاقتصـــاد الرأسمالي وانتاج الحبوب الرخيص ما وراء المحيط ، الامر الذي يدل عليه تعاظم الديون اكثر فاكثر وتدهور استثماراتهم الملحوظ في كل مكان . ولا يسعنا ان نفعل اي شيء لوقف هذا التدهور ، عدا ان نوصي هنا ايضاً بتوحيد استثماراتهم في تعاونيات يمكن فيهـــا

الاستغناء اكثر فاكثر عن استغلال العمل الماجور ، ويمكن تحويلها تدريجيا الى اقسام مكوّنة من التعاونية الانتاجية الكبرى الوطنية العامة متساوية في الحقوق والواجبات مع سائر الاقسام . واذا ما ادرك هؤلاء الفلاحون حتمية هلاك اسلوبهم الحالي للانتاج واستخلصوا من ذلك الاستنتاجات الضرورية ، فانهم سياتون الينا ، وسيكون من واجبنا ان نسهل كذلك قدر الامكان انتقالهم الى اسلوب الانتاج الجديد . والا ترتب علينا ان ندعهم وشانهم وان نتوجه الى عمالهم الماجورين الذين سنجد عندهم ، بالطبع ، العطف والتحبيذ . اغلب الظن اننا لن نلجأ هنا ايضا الى المصادرة بالعنف ، ولكنه سيكون بوسعنا مع ذلك ان نامل بان يعيد التطور الاقتصادي حتى هذه الرؤوس المعاندة الى طريق العقل والصواب .

ان الامر بسيط تماما فيما يتعلق بالملكية الكبيرة للارض فقط . فهنا نرى امامنا مؤسسة راسمالية غير مستورة ابدا ، وما دام الحال هكذا ، فلا يمكن ان تخامرنا اي شكوك . هنا نرى امامنا جمهور البروليتاريين الريفيين ، ومهمتنا واضحة . فما ان يقبض حزبنا على زمام السلطة ، حتى يتعين عليه ان يصادر بكل بساطة املاك كبار ملاكي الاراضي كما يصادر املاك الصناعيين . اما مسالة ما اذا كانت هذه المصادرة ستكون مرفقة بالتعويض ام لا ، فلن تتعلق بمعظمها علينا ، بل على الظروف التي نصل فيها الى الحكم ، وكذلك جزئيا على سلوك السادة كبار ملاكي الاراضي انفسهم فنحن لا نعتبر ابدا ان التعويض غير مقبول مهما كانت الظروف . وقد اعرب لي ماركس ــ مرارا وتكرارا ــ عن رايه ، وهو انه من الارخص لنا لو استطعنا ان نفدي انفسنا من كل هذه العصابة . ولكننا لن نتناول هذه النقطة هنا . ان العقارات الكبيرة المعادة على هذا النحو الى المجتمع سنحيلها ، لأجل التمتع بها تحت مراقبة المجتمع ، الى العمال

الزراعيين المنتظمين في تعاونيات الذين يحرثونها في الوقت الحاضر ايضاً . اما باي شروط سنحيلها ، فلا يمكن بعد ان نقول اي شيء واضح محدد بصددها . على كل حال ، اصبح تحويل الاقتصاد الرأسمالي الى اقتصاد عام اجتماعي جاهزاً تماماً هنا ، ومن الممكن اجراؤه دفعة واحدة ، تماماً كما في مصنع السيد كروب او السيد فون شتوم مثلا . وان مثال هذه التعاونيات الزراعية سيقنع بمزايا الاستثمارة الكبيرة التعاونية ، سواء آخر الفلاحين الصغار الذين قد يواصلون المقاومة ام ايضاً ، اغلب الظن ، بعض كبار الفلاحين .

ولذا نستطيع هنا ان نعرض امام البروليتاريين الريفيين نفس الافق الباهر الذي يتكشف امام العمال الصناعيين . ولذا كان اكتساب العمال الزراعيين في بروسيا شرقي الالب الى جانبنا مجرد مسالة وقت ، وحتى وقت قصير جداً . وعندما يصبح العمال الزراعيون في بروسيا شرقي الالب الى جانبنا ، فان ريحاً اخرى ستهب على الفور في عموم المانيا ان وضع العمال الزراعيين في بروسيا شرقي الالب كانصاف اقنان حقاً ، هو الاساس الرئيسي لسيادة اليونكر البروسيين (٣٢) ، وكذلك للاستبداد البروسي المتميز في المانيا . فان يونكر بروسيا شرقي الالب ــ الذين يغرقون اكثر فاكثر في لجة الديون ، ويشتد افتقارهم ، ويعيشون عيشة طفيلية على حساب الدولة والغير ، والذين لهذا السبب على وجه الضبط يتشبثون بمزيد من القوة بسيادتهم ــ هم الذين خلقوا وهم الذين يدعمون الطابع البروسي الصرف الذي يتسم به سلك الموظفين وسلك الضباط في الجيش ؛ وبغطرستهم وصلفهم ومحدوديتهم جعلوا الامبراطورية الالمانية للامة البروسية (٣٣) ــ مكروهة شديد الكره في بلدهم بالذات ــ مع انه من الواضح تماماً ان وجود

هذه الامبراطورية في الظرف الراهن امر محتم بوصفها الشكل الوحيد للوحدة القومية القابل للتحقيق الآن ــ وجعلوها تثير هذا القدر التافه من الاحترام خارج حدودها رغم جميع انتصاراتها الباهرة . ان سلطة هؤلاء اليونكر ترتكز على كونهم يتصرفون في رقعة متصلة من اراضي سبعة اقاليم بروسية قديمة ، ــ اي ما يوازي زهاء ثلث اراضي الامبراطورية كلها ــ بملكية عقارية ترافقها هنا السلطة الاجتماعية والسياسية ، وليس بالملكية العقارية وحسب ، بل ايضا ، بفضل مصانع السكر من الشمندر السكري ومصانع الكحول ، باهم فروع الصناعة في هذه المنطقة . فلا كبار ملاكي الاراضي ولا كبار الصناعيين في القسم الباقي من المانيا يتمتعون بمثل هذا الوضع المناسب . ولا هؤلاء ولا اولئك يجدون تحت تصرفهم مملكة بكاملها وهم مبعثرون على رقعة شاسعة من الارض ويخوضون نضال المنافسة على الزعامة الاقتصادية والسياسية سواء فيما بينهم ام ضد العناصر الاجتماعية الاخرى المحيطة بهم . ولكن باس اليونكر البروسيين هذا يفقد اساسه الاقتصادي اكثر فاكثر . فان المديونية والافتقار ينتشران هنا ايضا رغم كل مساعدة الدولة (وهذه المساعدة تدخل ، كقاعدة ، منذ عهد فريدريك الثاني ، في كل ميزانية يونكرية عادية) ؛ واذا كانت طبقة اليونكر بسبيل الغرق ما تزال تطفو ، فذلك فقط بفضل النظم شبه الاقطاعية فعلا المثبتة بالقانون والعرف والعادة ، وبفضل الامكانية التي تشترطها هذه النظم لاستثمار العمال الزراعيين الى ما لا حد له ابدروا بذور الاشتراكية-الديموقراطية في بيئة هؤلاء العمال ، شجعوهم ورصوا صفوفهم للنضال من اجل حقوقهم ، تحل آخرة سيادة اليونكر ان القوة الرجعية الكبرى التي تقدم لالمانيا عنصراً بربريا واغتصابيا كما هي عليه القيصرية الروسية

بالنسبة لاوروبا كلها ، ستتفقع كبالون مثقوب ان «نخبة افواج» الجيش البروسي ستصبح اشتراكية-ديموقراطية ، وآنذاك سيطرأ تغير في نسبة القوى ينطوي على مقدمة انقلاب كامل . ولهذا السبب على وجه الدقة ، يتسم اكتساب البروليتاريين الريفيين في بروسيا شرقي الالب الى جانبنا باهمية اكبر بكثير من اهمية اكتساب الفلاحين الصغار في المانيا الغربية او حتى الفلاحين المتوسطين في المانيا الجنوبية . فهنا ، في بروسيا شرقي الالب ، يقوم ميدان المعركة الفاصلة بالنسبة لنا ، ولهذا ستبذل الحكومة وطبقة اليونكر قصارى الجهود لقطع الطريق امامنا الى هنا . واذا كانت ستوضع من جديد موضع التطبيق ، كما يهددوننا ، اجراءات زجرية ضد انتشار حزبنا ، فان هذا سيتحقق قبل كل شيء لاقامة حاجز بين البروليتاريا الريفية في بروسيا شرقي الالب وبين دعايتنا نحن لا نبالي بهذا . فاننا سنظفر بها مع ذلك الى جانبنا .

كتب بين ١٥ و ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٤ . صدر في مجلة «Die Neue Zeit» المجلد ١ ، العدد ١٠ ، ١٨٩٤-١٨٩٥

يصدر حسب نص المجلة

تمت الترجمة نقلا عن الالمانية

التوقيع : فريدريك انجلس

انجلس

مقدمة لكتاب كارل ماركس «النضال الطبقي في فرنسا من ١٨٤٨ الى ١٨٥٠» (٣٤)

هذا البحث الذي يعاد طبعه هنا كان اول محاولة قام بها ماركس لتفسير مرحلة معينة من التاريخ ، على اساس مفهومه المادي ، وانطلاقا من وضع اقتصادي معين . وقد سبق ان طُبِّقت هذه النظرية في «البيان الشيوعي» بخطوطها الكبرى على التاريخ الجديد كله ؛ وفي المقالات المنشوره في «Neue Rheinische Zeitung» (٣٥) لجانا ماركس وانا على الدوام الى هذه النظرية لأجل توضيح الاحداث السياسية الجارية اما في هذا البحث ، فقد كان المقصود كشف الصلة السببية الداخلية للاحداث السياسية التي وقعت في سياق مرحلة مديدة من التطور التاريخي كانت مرحلة حرجة ونموذجية في آن واحد بالنسبة لاوروبا برمتها ، وكان المقصود بالتالي ، وفقا لمفهوم المؤلف ، تفسير الاحداث السياسية بفعل اسباب هي اقتصادية في آخر تحليل

عند الحكم على الاحداث وسلسلة الاحداث في التاريخ الجاري ، لا يمكن التوصل ابدا الى الاسباب الاقتصادية النهائية . وحتى في الوقت الحاضر ، اذ تعطي الصحف المختصة المناسبة هذه الكمية الضخمة من المواد ، يستحيل حتى في انجلترا تتبع سير

تطور الصناعة والتجارة في السوق العالميـــة ، تتبع التغيرات التي تطرأ على طرائق الانتاج ، وتتبعها يوماً فيوماً بحيث يمكن في كل لحظة استخلاص النتيجة العامة لهذه العوامـــل الشديدة التعقـــد والمتغيرة باستمرار ، التي يفعل قسمها الاكبر والاهم ، فضلا عن ذلك، بصورة خفية، في غضون زمن مديد ، قبل ان يظهر بفجاءة وقوة . وانه لمن المستحيل ابداً الحصول على لوحة واضحة عن التاريخ الاقتصادي في مرحلة ما من المراحل وعن الاحداث نفسها في آن واحد ؛ فلا يمكن الحصول عليها الا بعد مرور حقبة من الزمن ، بعد جمع المادة والتحقق منها . وهنـــا يشكل الاحصـــاء وسيلة معاونة لازمة ؛ والحال ، يتاخر الاحصاء على الدوام . ولهذا ، عند تحليل الاحداث الجارية ، يتعين احياناً كثيرة جداً اعتبار هذا العامل الذي يتسم باهمية حاسمة عاملا دائماً ، واعتبار الوضـــع الاقتصادي الذي تكوّن قبل بداية المرحلة المبحوثة وضعاً معطياً ثابتاً لا يتغير بالنسبة للمرحلة كلها ، او حتى الاقتصار على مراعاة تلك التغيرات في هذا الوضع التي تنبع من الاحداث الجارية الجلية للعيان ، وبالتالي الجلية تماماً ايضاً . ولهذا يتعين احياناً كثيرة جداً على الطريقة المادية ان تكتفي هنا بحصر النزاعات السياسية في الصراع بين مصالح الطبقات الاجتماعية القائمة ومصالح اقسام الطبقات التي خلقها التطور الاقتصادي ، وباعتبار مختلف الاحزاب السياسية كتعبير سياسي ملائـــم الى هذا الحد او ذاك عن هذه الطبقات نفسها وعن اقسامها

وغني عن البيان انه لا بدّ لهذا التجاهل الذي لا مناص منه للتغيرات الطارئة في الوقت نفسه على الوضع الاقتصادي ، على هذا الاساس الحقيقي لجميع التطورات المبحوثة ، ان يكون مصدراً للاخطاء . ولكن جميع شروط العرض المعمم للاحداث الجاريـــة

تنطوي ، لا مناص ، على مصادر للاخطاء ، الامر الذي لا يجبر احداً ، مع ذلك ، على الامتناع عن كتابة تاريخ الاحداث الجارية .

وعندما عكف ماركس على كتابة هذا البحث ، كان من غير الممكن بمقدار اكبر تجنب مصدر الاخطاء المذكور آنفاً . ففي زمن ثورة ١٨٤٨–١٨٤٩ ، كان من المستحيل حقاً وفعلا تتبع التغيرات الاقتصادية الطارئة في الوقت نفسه او حتى ابقاؤها في مجال البصر . كذلك كان هذا من المستحيل في الاشهر الاولى من الهجرة القسرية في لندن ، اي في خريف وشتاء ١٨٤٩–١٨٥٠ . ولكن ماركس بدأ كتابة بحثه هذا في ذلك الوقت على وجه الضبط . ورغم هذه الظروف غير الملائمة ، استطاع ماركس ، بفضل معرفته الدقيقة سواء للوضع الاقتصادي في فرنسا عشية ثورة شباط (فبراير) او لتاريخ هذه البلاد السياسي بعد ثورة شباط ، ان يقدم عرضاً للاحداث يكشف صلتها الداخلية بكمال يستحيل التفوق عليه حتى الآن ؛ وهذا العرض نجح نجاحاً باهراً في امتحانين اجراهما ماركس فيما بعد

الامتحان الاول أُجري ارتباطاً بالواقع التالي وهو ان ماركس وجد من جديد ، ابتداء من ربيع ١٨٥٠ ، متسعاً من الوقت لأجل الدراسات الاقتصادية ، وانكب في المقام الاول على دراسة التاريخ الاقتصادي في السنوات العشر الاخيرة وبالنتيجة اتضح له تماماً من الوقائع ما استخلص نصفه قبل ذاك على البديهة من مادة ابعد من ان تكون كاملة ، واعني به ان الازمة التجارية العالمية التي نشبت في ١٨٤٧ هي التي ادت على الاخص الى نشوب ثورتي شباط (فبراير) وآذار (مارس) ، وان النهوض الصناعي الذي حل من جديد تدريجياً منذ اواسط ١٨٤٨ وبلغ الازدهار التام في ١٨٤٩ و١٨٥٠ كان قوة منعشة للرجعية الاوروبية التي

قويت من جديد . وقد كان لهذا الامر اهمية حاسمة . فاذا كان لا يزال يتبدى في المقالات الثلاث الاولى • (التي صدرت في اعداد كانون الثاني وشباط وآذار ــ يناير وفبراير ومارس ــ من مجلة «Neue Rheinische Zeitung. Politisch-ökonomische Revue» (٣٦) ، هامبورغ ، ١٨٥٠) انتظار نهوض جديد في العزيمة الثورية في القريب العاجل ، فان اللمحة التاريخية (ايار ــ تشرين الاول ، مايو ــ اكتوبر) التي كتبناها ماركس وانا ، لأجل العدد المزدوج الذي صدر في خريف ١٨٥٠ تقطع بحزم والى الابد كل صلة مع هذه الاوهام «ان ثورة جديدة غير ممكنة الا اثر ازمة جديدة . ولكن نشوبها محتم مثله مثل نشوب هذه الاخيرة» •• . ولكن هذا كان التغيير الجوهري الوحيد الذي ادخلناه . ففي تفسير الاحداث الوارد في المقالات السابقة ، لم يكن هناك قطعاً ما يجب تغييره في الصلات السببية المعروضة فيها ، كما تبين بقية السرد من ١٠ آذار (مارس) الى خريف ١٨٥٠ المدرجة في اللمحة نفسها . ولهذا ادرجت هذه البقية ، بوصفها المقالة الرابعة ، في هذه الطبعة .

وكان الامتحان الثاني اشد صرامة ففور الانقلاب الذي قام به لويس بونابرت في ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ (٣٧) ، درس «ماركس من جديد تاريخ فرنسا من شباط ١٨٤٨ حتى هذا الحدث الذي اختتم المرحلة الثورية لفترة من الزمن («الثامن عشر من برومير لويس بونابرت» ، الطبعة الثالثة ،

• راجع كارل ماركس «النضال الطبقي في فرنسا من ١٨٤٨ الى ١٨٥٠» . الناشر .

•• راجع كارل ماركس «النضال الطبقي في فرنسا من ١٨٤٨ الى ١٨٥٠» . الناشر .

هامبورغ ، ميسنر ، ١٨٥٥ •) . ان هذا الكراس يحلل من جديد ، وان بصورة اوجز ، المرحلة المدروسة في بحثنا المعاد طبعه . فقارنوا هذا العرض الثاني المكتوب على ضوء الحدث الحاسم الذي وقع بعد سنة ونيف ، بالعرض الاول ، تقتنعوا بان الكاتب لم يغيّر الا قليلا جداً .

هناك عامل يضفي على هذا البحث اهمية خاصة تماماً ، هو انه اعطيت للمرة الاولى صيغة تلخّص بها الاحزاب العمالية ، في جميع بلدان العالم ، بايجاز واجماع ، مطلبها بالتحويل الاقتصادي : امتلاك المجتمع لوسائل الانتاج وقد جاء في الفصل الثاني ، بصدد «الحق في العمل» ، المسمّى هناك «بالصيغة الخرقاء الاولى التي تلخص بها المطالب الثورية للبروليتاريا» «ولكن وراء الحق في العمل تكمن السلطة على الرأسمال ، ووراء السلطة على الرأسمال — **امتلاك وسائل الانتاج** ، واخضاعها للطبقة العاملة المنظمة في جمعياتها ، والقضاء بالتالي على العمل الماجور والرأسمال وعلى العلاقات بينهما» •• . وهكذا صيغت هنا للمرة الاولى موضوعة تتميز بها الاشتراكية العمالية المعاصرة بصورة حادة سواء عن جميع انواع الاشتراكيـــة ، الاقطاعي والبرجوازي والبرجوازي الصغير الخ .، او عن «شيوعية الملكية» الضبابية التي تقدمت بها الشيوعية الطوبوية والعمالية العفوية . واذا كان ماركس قد شمل بهذه الصيغة فيما بعد امتلاك وسائل التبادل ايضـــاً ، فان هذا التوسيـــع للصيغة ، الناجم ، فضلا عن ذلك ، من تلقاء ذاته من

• راجع الطبعة الحاليـــة . الجـــزء الاول ص ص ١٤٨ــ٢٩٩ الناشر .

•• راجع كارل ماركس «النضال الطبقي في فرنســـا من ١٨٤٨ الى ١٨٥٠» . الناشر .

«البيان الشيوعي» ، لم يكن غير استنتاج من الموضوعة الاساسية . ومؤخراً اضاف بعض الحكمـــاء في انجلترا الى هذا انـــه تنبغي احالة «وسائل التوزيع» ايضاً الى المجتمع . ومن المشكوك فيـــه ان يكون في مستطاع هؤلاء السادة ان يوضحوا ماهيـــة وسائل التوزيع الاقتصادية هذه التي تتميز عن وسائل الانتـــاج ووسائل التبادل . ترى ، ألا يقصدون وسائل التوزيع السياسية : الضرائب ، رعاية الفقراء ، بما فيها اعانات ساكسنفالد (٣٨) ، والاعانـــات الاخرى ؟ ولكن وسائل التوزيع هذه هي ، اولا ، في الوقت الحاضر بالذات ملك المجتمع ، وتخص الدولة او المشاعة ، وهي ثانيـــاً الوسائل التي نريد القضاء عليها

* * *

عندما انفجرت ثورة شباط ، كنا نحن جميعنا متأثرين في تصوراتنا حول شروط الحركات الثورية وظروفها وسيرها بالخبرة التاريخية الماضية ، ولا سيما بخبرة فرنسا . فهي التي لعبت الدور الرئيسي في كل تاريخ اوروبا ابتداء من عام ١٧٨٩ . وهي التي اعطت آنذاك والآن من جديد اشارة الانقلاب العام . ولهذا كان من الطبيعي والمحتم تماماً ان تكون تصوراتنا حول طابع وسير الثورة «الاجتماعية» ، ثورة البروليتاريا ، التي أُعلنت في شباط ١٨٤٨ في باريس ، مصبوغة بشكل ساطع بذكريات عن النماذج المسبقة في مرحلة ١٧٨٩ــ١٨٣٠ وعندما وجدت الانتفاضة الباريسية صدى في الانتفاضات المظفرة في فيينا وميلانو وبرلين ؛ وعندمـــا اجتذبت اوروبا كلها حتى الحدود الروسية الى الحركة ؛ وعندمـــا وقعت بعد ذلك في حزيران (يونيو) في باريس اول معركة كبيرة من اجل السيادة بين البروليتاريا والبرجوازية ؛ وعندما بلغت الامور الى حد ان انتصار الطبقة البرجوازية ذاته هز البرجوازية في جميع

البلدان الى درجة انها ارتمت من جديد في احضان الرجعية الملكية الاقطاعية التي كانت قد أُسقطت للتو ، ــ لم يكن من الممكن في ظروف ذلك الوقت ان يخالجنا اي شك في ان المعركة الفاصلة الكبرى قد بدأت وانه يجب السير بها الى النهاية في سياق مرحلة ثورية طويلة وحافلة بالتقلبات ، وانه لا يمكن مع ذلك لهذه المعركة ان تنتهي الا بانتصار البروليتاريا النهائي .

وبعد هزائم ١٨٤٩ ، لم نشاطر اطلاقاً اوهام الديموقراطية المبتذلة الملتفة in partibus (٣٩)حول حكومات المستقبل الموقتة . فقد كانت هذه الديموقراطية تأمل بانتصار عاجل ونهائي يحرزه «الشعب» على «الطغاة» ؛ اما نحن ، فاننا كنا نأمل بنضال مديد ، بعد ازالة «الطغاة» ، بين العناصر المتضادة الكامنة في هذا «الشعب» ذاته كانت الديموقراطية المبتذلة تتوقع يوماً بعد يوم انفجاراً جديداً ؛ اما نحن فقد صرحنا في خريف ١٨٥٠ ان الطور **الاول** من المرحلة الثورية قد انتهى على كل حال وانه لن يحدث شيء قبل نشوب ازمة اقتصادية عالمية جديدة ولهذا تعرضنا للحرم كخونة للثورة من قبل نفس اولئك الذين اقدموا جميعهم تقريباً بلا استثناء على التصالح فيما بعد مع بيسمارك لأن بيسمارك تكرّم عليهم بهذا .

ولكن التاريخ بيّن اننا نحن ايضاً لم نكن على حق وان وجهة النظر التي كنا نتمسك بها كانت وهماً من الاوهام . بل ان التاريخ سار الى ابعد ؛ فهو لم يبدد ضلالنا آنذاك وحسب ، بل غير ايضاً تماماً الشروط والظروف التي ينبغي للبروليتاريا خوض النضال في ظلها . فان وسيلة النضال التي استخدمت في عام ١٨٤٨ قد شاخت الآن من جميع النواحي ، وهذه النقطة تستحق ، والحالة هذه ، دراسة اكثر اسهاباً .

ان جميع الثورات السابقة كانت تقتصر على احلال سيادة طبقة معينة محل سيادة طبقة اخرى ؛ ولكن جميع الطبقات التي سادت حتى الآن لم تكن تشكل غير اقليـــة ضئيلـــة بالقياس الى سواد الشعب المحكوم . وعليه كانت اقلية سائدة تسقط ، وتحل اقلية اخرى محلها في دست الحكم وتغيّر نظم الدولة وفقاً لمصالحها وفي كل مرة ، كانت السيادة تعود الى ذلك الفريق من الاقلية الذي كان ، في ظل الحالة المعنية من التطور الاقتصادي ، قادراً على السيادة ومدعواً الى السيادة ، ولهذا السبب بالذات ، ــ ولهذا السبب وحده ــ كانت الاغلبية المحكومة تعمد عند حدوث الانقلاب ، اما الى الاشتراك في الانقلاب في صالح هذا الفريق ، واما الى الرضوخ بهدوء للانقلاب . ولكن اذا طرحنا جانباً المضمون الملموس لكل حالة بمفردها ، فان الشكل العام لجميع هذه الثورات قد تلخص في انها كانت ثورات الاقلية . واذا كانت الاغلبية ايضاً قد اشتركت فيها ، فانها لم تفعل ذلك ــ عن وعي او عن غير وعي ــ الا في مصلحة الاقلية ؛ ولكن هذا على وجه الضبط او حتى مجرد سلوك الاغلبية الخامل ، انعدام المقاومة من جانبها ، هو الذي جعل هذه الاقلية تبدو كأنها تمثل الشعب باسره .

بعد اول نجاح كبير ، كانت الاقليـــة المنتصرة تنقسم على نفسها عادة ؛ فكان قسم منها يرضى بما تم التوصل اليه ، وكان القسم الآخر يرغب في المضي قدماً ، ويتقدم بمطالـــب جديـــدة تناسب ، جزئياً على الاكثر ، المصالح الحقيقية او الموهومة للجماهير الشعبية الواسعة . وفي بعض الحالات ، كانت هذه المطالب ، وهي اكثر جذرية ، تتحقق ولكن في معظم الاحوال لفترة قصيرة جداً من الوقت ؛ فان حزباً اكثر اعتدالاً كان يحرز الغلبة من جديد ، فاذا المكتسبات الاخيرة تزول كلياً او جزئياً ؛ وآنذاك كان المغلوبون

يشرعون في الزعيق بالخيانة او يفسرون الهزيمة بالصدفة . اما في الواقع ، فان الامور كانت في معظم الاحوال تسير كما يلي : كان ما يتم الظفر به بنتيجة النصر الاول لا يصبح متينا ثابتا الا بفضل نصر ثان يحرزه حزب اكثر راديكالية ؛ وما ان كان يتم التوصل الى هذا ، وما ان كان يتحقق بالتالي ما كان ضروريا في اللحظة المعنية ، حتى كان الراديكاليون يغادرون الحلبة من جديد مع منجزاتهم .

في جميع ثورات الزمن الجديد ، ابتداء من الثورة الانجليزية الكبرى في القرن السابع عشر ، تبدت هذه السمات التي كانت تبدو سمات ملازمة لكل نضال ثوري ، لا تنفصم عنه . وقد خيل انها ملازمة ايضا لنضال البروليتاريا من اجل تحررها خصوصا وانه كان من الممكن ، في عام ١٨٤٨ على وجه الضبط ، ان يُعَدّ على الاصابع اولئك الذين كانوا يفهمون ، وان بعض الشيء ، في اي اتجاه ينبغي البحث عن هذا التحرر . وحتى في باريس ، لم يكن من الواضح اطلاقا للجماهير البروليتارية ذاتها بعد النصر ايضا اي سبيل يجب عليها ان تسلكه . ومع ذلك ، كانت الحركة بادية للعيان ، غريزية ، عفوية ، يستحيل كبتها . ترى ، ألم يكن هذا الوضع الوضع الذي كان لا بد ان تتكلل في ظله بالنجاح ثورة تقودها الاقلية ، والحق يقال ، ولكن لا في مصلحة الاقلية هذه المرة ، بل في مصلحة الاغلبية ، في مصلحتها الحقيقية ، الاصيلة ؟ واذا كانت الجماهير الشعبية الواسعة قد سمحت لنفسها بمثل هذه السهولة في جميع العهود الثورية الطويلة نوعا بان تجذبها مغريات فارغة كاذبة رمت بها اليها جماعات من الاقلية مندفعة الى امام ، ترى ، هل كان من الممكن ان تكون اقل تقبلا لافكار كانت ادق انعكاس لوضعها الاقتصادي ، لافكار لا تعدو

ان تكون تعبيراً واضحاً ومعقولاً عن مطالبها التي لا تفهمها بعد ، ولكن التي تشعر بها هي ذاتها شعوراً مبهماً ؟ صحيح ان مزاج الجماهير الثوري هذا كان يحل محله دائماً تقريباً ، وبعد فترة وجيزة جداً في معظم الاحوال ، الارهاق او حتى الانعطاف الى الجانب المضاد ، ما ان كانت الاوهام تتبدد وتطل خيبة الامل . ولكن الامر لم يكن يتعلق هنا بالمغريات الكاذبة ، بل بتحقيق مصالح الاغلبية الهائلة ، مصالحها الحقيقية ، الاصيلة ؛ صحيح ان هذه المصالح لم تكن بعد آنذاك واضحة على الاطلاق لهذه الاغلبية الهائلة ، ولكنه كان لا بدّ لها ان تصبح بعد فترة وجيزة واضحة لها الوضوح الكافي في سياق تحقيقها عملياً ، وبفعل الجلاء المقنع . واذا كان تطور الجمهورية البرجوازية التي انبثقت عن ثورة ١٨٤٨ «الاجتماعية» قد آل ، فضلاً عن ذلك ، نحو ربيع ١٨٥٠ ، كما برهن ماركس في مقالته الثالثة ، الى انحصار السيادة الفعلية في يد البرجوازية الكبيرة ، التي كانت بالاضافة ملكية المزاج ، بينما جميع الطبقات الاجتماعية الاخرى ، الفلاحون والبرجوازيون الصغار، قد التفت بالعكس حول البروليتاريا ، بحيث انه كان لا بد ان يكون العنصر الحاسم في حال النصر المشترك وبعده ، لا هذه الطبقات ، بل البروليتاريا التي حنكتها التجربة ، ــ ترى ، ألم يكن من الممكن تماماً في هذه الاحوال الأمل في ان تتحول ثورة الاقلية الى ثورة الاغلبية ؟

لقد بيّن التاريخ اننا نحن وجميع الذين يفكرون مثلنا كنا على غير حق . فقد بيّن بوضوح ان حال التطور الاقتصادي في القارة الاوروبية كانت في ذلك الوقت ابعد من ان تكون ناضجة الى حد يتيح الغاء اسلوب الانتاج الرأسمالي ؛ وبيّن هذا بتلك الثورة الاقتصادية التي شملت القارة باسرها ابتداء من ١٨٤٨ ووطدت

بالفعل للمرة الاولى الصناعة الكبيرة في فرنسا والنمسا والمجر وبولونيا ، ومؤخراً في روسيا ، وحولت المانيا مباشرة الى بلد صناعي من الدرجة الاولى ، ــ وكل هذا على اساس رأسمالي كان لا يزال يملك بعد ، على هذا النحو ، في ١٨٤٨ ، قدرة كبيرة جداً على التوسع والامتداد . ولكن هذه الثورة الصناعية بالذات هي التي حملت في كل مكان الوضوح الى العلاقات بين الطبقات فقد ازالت كثرة من الفئات الوسيطة المتحدرة من عهد المانيفاكتوره ، وحتى من الحرفة في اوروبا الشرقية ، وولدت برجوازية حقيقية وبروليتاريا حقيقية عاملة في الصناعة الكبيرة ، ودفعتهما الى مقدمة التطور الاجتماعي . ومن جرّاء هذا ، نرى ان النضال بين هاتين الطبقتين الكبيرتين ، الذي جرى في ١٨٤٨ ، علاوة عن انجلترا ، في باريس وحدها ، ولربما ايضاً في بعض المراكز الصناعية الكبيرة ، قد انتشر الآن في عموم اوروبا وبلغ قدراً من القوة لم يكن بعد من الممكن تصوره في عام ١٨٤٨ . فآنذاك كانت كثرة من الاناجيل المبهمة لشتى الملل مع ترياقاتها الشاملة ؛ اما الآن ، فهناك نظرية **واحدة** يعترف بها الجميع ، وواضحة غاية الوضوح ، هي نظرية ماركس ، التي تصوغ اهداف النضال النهائية بدقة ؛ آنذاك ، كانت هناك جماهير مقسمة ومتفرقة بفعل الخصائص المحلية والقومية ، ولا يجمع بينها غير الشعور بالآلام المشتركة ، جماهير غير متطورة ، تنتقل بدافع العجز من الحماسة الى اليأس ؛ اما الآن ، فهناك جيش اممي كبير **واحد موحد** من الاشتراكيين ، يزحف الى الامام بلا مردّ ويقوى يوماً بعد يوم من حيث العدد والتنظيم والانضباط والوعي والثقة في النصر واذا كان جيش البروليتاريا الكبير هذا لمّا يبلغ الهدف مع ذلك ، واذا كان مضطراً ، عوضاً عن احراز النصر بضربة حاسمة **واحدة** ، الى التحرك الى امام

ببطء ، كاسباً موقعاً تلو الآخر في غمرة من النضال العنيد القاسي ، فان هذا يثبت نهائياً الى اي حد لم يكن من الممكن في ١٨٤٨ التوصل الى التحول الاجتماعي بمجرد الهجوم المفاجئ.

برجوازية منقسمة الى كتلتين ملكيتين سلاليتين (٤٠) ، ولكنهـا تطالب قبل كل شيء بالهدوء والأمن لأجل شؤونها المالية ؛ وضدها بروليتاريا صحيح انها مغلوبة على امرها ولكنها لا تزال رهيبة ، ويلتف حولها اكثر فاكثر البرجوازيون الصغار والفلاحون ، ــ خطر دائم بانفجار عنيف لم يبعث مع ذلك اي أمل في حل القضية حلا نهائياً ، ــ هكذا كان الوضع الذي كأنما انشئ لأجـل انقلاب الطامـع الثالث ، الديموقراطي المزيف ، لويس بونابرت . ففي ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ وضع حداً ، بواسطة الجيش ، للوضع المتوتر وضمن لاوروبا الهدوء الداخلي ، واسعدها بالمقابل بعهد جديد من الحروب (٤١) . فانتهت موقتاً مرحلة الثورات من القاعدة ، وعقبتها مرحلة الثورات من القمة

ان العودة الى الامبراطورية في عام ١٨٥١ اعطت برهاناً جديداً على عدم نضج التطلعات البروليتارية في ذلك الزمن . ولكنه تعين على الامبراطورية ذاتها ان تخلق الشروط والظروف التي كان لا بدّ في ظلها ان تبلغ هذه التطلعات حد النضج . فان الهدوء الداخلي قد أمن المجال الرحب لنهوض الصناعة من جديد ؛ وآلت ضرورة تشغيل الجيش وتوجيه الميول الثورية وجهة السياسة الخارجية الى نشوب الحروب التي حاول بونابرت بواسطتها ، وبذريعة الدفاع عن «مبدأ القوميات» (٤٢) ان يحقق بشتى الحيل الحاقات في صالح فرنسا . وقد استوعب مقلده بيسمارك السياسة نفسها في صالح بروسيا ؛ ففي ١٨٦٦ ، قام بانقلابـه ، بثورته من القمـة حيال الحلف الالماني (٤٣) وحيال النمسـا ، وكذلـك حيـال المجلس

البروسي الذي دخل في نزاع مع الحكومة ولكن اوروبا كانت صغيرة جداً على بونابرتين ، واذا بيسمارك يطيح ببونابرت ، لما فيه سخرية التاريخ ، واذا غليوم ، عاهل بروسيا ، لا ينشئ امبراطورية المانيا الصغرى وحسب ، بل ينشئ كذلك الجمهورية الفرنسية . اما النتيجة المشتركة فقد تلخصت في ان استقلال الامم الاوروبية الكبيرة ووحدتها الداخلية ، باستثناء بولونيا ، اصبحا امراً واقعاً ، ضمن حدود متواضعة نسبياً ، والحق يقال ، ولكن ، مع ذلك ، ضمن حدود على قدر من الاتساع يكفي لكي لا يتعرقل مجرى تطور الطبقة العاملة بفعل تعقيدات ذات صبغة قومية . لقد امسى حفارو قبر ثورة ١٨٤٨ منفذي وصيتها . والى جانبهم كان ينهض وريث ١٨٤٨ بشكل رهيب ، ونعني به البروليتاريا ممثلة بشخص **الاممية** .

بعد حرب ١٨٧٠ ــ ١٨٧١ اختفى بونابرت عن المسرح ، وتبين ان رسالة بيسمارك قد تحققت ، فغدا بامكانه ان يتحول من جديد الى يونكر عادي . ولكن كومونة باريس (٤٤) كانت خاتمة هذه المرحلة فان محاولة تيير الغادرة لسرقة مدفعية الحرس الوطني الباريسي استتبعت انتفاضة مظفرة (٤٥) . وتبين من جديد انه لم يبق من الممكن ان تقوم في باريس اي ثورة غير الثورة البروليتارية . وبعد النصر ، عادت السيادة الى الطبقة العاملة من تلقاء ذاتها ، دون ان ينازعها منازع . ومن جديد تبين الى اي حد كانت سيادة الطبقة العاملة هذه غير ممكنة حتى آنذاك ، اي بعد انقضاء عشرين سنة على المرحلة الموصوفة في هذا الكراس. فمن جهة تركت فرنسا باريس وشانها لحكم القدر ، مراقبة بلامبالاة كيف تنزف دماء باريس تحت قنابل ماكماهون ؛ ومن جهة اخرى ، استنفدت الكومونة قواها في صراع عقيم بين حزبين

انقسمت اليهما هما : حزب البلانكيين (الاغلبية) وحزب البرودونيين (الاقلية) ، ولم يكن لا هؤلاء ولا اولئك يعرفون ما ينبغي فعله وهكذا تبين ان الانتصار السهل في ١٨٧١ كان عقيما بقدر عقم الهجوم المفاجئ في ١٨٤٨

كانوا يأملون ان يدفنوا نهائيا ، مع كومونة باريس ، البروليتاريا المناضلة . ولكن نهوضها الاقوى يبدأ ، على العكس تماما ، منذ الكومونة والحرب الفرنسية البروسية . ثم ان تجنيد جميع السكان الصالحين للخدمة العسكرية في الجيوش التي كانت تضم آنذاك ملايين الجنود ، واستعمال السلاح الناري وقذائف المدفعية والمتفجرات التي تتميز بقوة فعل لا سابق لها ، ــ كل هذا احدث انقلابا تاما في جميع الشؤون العسكرية فمن جهة وضع هذا الانقلاب حدا على الفور للمرحلة البونابرتية من الحروب وامّن التطور الصناعي السلمي ، وجعل من المستحيل قيام اي حرب اخرى غير حرب عالمية لا سابق لقساوتها ويستحيل اطلاقا التكهن بمآلها . ومن جهة اخرى ، ادى هذا الانقلاب الى تزايد النفقات العسكرية بمتوالية هندسية ، واستتبع بصورة لا ندحة عنها ارتفاع الضرائب ارتفاعا فاحشا وقذف بالتالي الطبقات غير الميسورة من السكان الى احضان الاشتراكية . وقد امكن لضم الالزاس واللورين الى المانيا ، اي لاقرب سبب للسباق المسعور وراء التسلح ، ان يؤجج نيران شوفينية البرجوازية الفرنسية والبرجوازية الالمانية حيال بعضهما بعضا ، ولكنه لم يصبح بالنسبة لعمال البلدين غير حلقة واصلة اخرى . وقد غدا يوم الذكرى السنوية لكومونة باريس اول عيد عام مشترك للبروليتاريا باسرها .

ان حرب ١٨٧٠ ــ ١٨٧١ وهزيمة الكومونة قد نقلتا

موقتا مركز ثقل الحركة العمالية الاوروبية ، كما تنبأ ماركس ، من فرنسا الى المانيا . ففي فرنسا كان لا بدّ من سنوات وسنوات لأجل التعافي من عملية اراقة الدم التي أُجريت في ايار (مايو) ١٨٧١ . اما في المانيا حيث كان يتسارع اكثر فاكثر تطور الصناعة ، التي أمنت لها المليارات الفرنسية المفيدة (٤٦) ، بالاضافة ، احوالا دافئة حقا وفعلا ، فقد اخذت الاشتراكية-الديموقراطية ، على العكس ، تتنامى بمزيد من السرعة والدأب والثبات . وبفضل تلك المهارة التي استغل بها العمال الالمان الحق الانتخابي العام المقرر في عام ١٨٦٦ ، اصبح نمو الحزب المدهش واضحا للعالم كله من الارقام التالية التي لا مراء فيها ١٠٢٠٠٠ صوت اشتراكي-ديموقراطي في ١٨٧١ ، ٣٥٢٠٠٠ في ١٨٧٤ ، ٤٩٣٠٠٠ في ١٨٧٧ . ثم جاء الاعتراف بهذه النجاحات من اعلى بشكل القانون ضد الاشتراكيين (٤٧) ؛ فتحطم الحزب موقتا ، وهبط عدد الاصوات التي نالها في عام ١٨٨١ حتى ٣١٢٠٠٠ صوت . ولكن سرعان ما ذلل الحزب هذا الوضع ، واذا نمو سريع حقا وفعلا يبدأ في ظل كابوس القانون الاستثنائي ، بدون صحافة ، وبدون منظمة علنية ، وبدون حق الجمعيات والاجتماعات ٥٥٠٠٠٠ صوت في ١٨٨٤ ، ٧٦٣٠٠٠ في ١٨٨٧ ، ١٤٢٧٠٠٠ في ١٨٩٠ . وهنا ضعفت يد الدولة . فزال القانون ضد الاشتراكيين، وارتفع عدد الاصوات الاشتراكية حتى ١٧٨٧٠٠٠ صوت ، اي اكثر من ربع جميع الاصوات المعطاة . واستنفدت الدولة والطبقات السائدة جميع وسائلها ، ولكن عبثا ، سدى ، هباء . واضطرت السلطات ، ابتداء من الحارس الليلي حتى مستشار الريخ ، الى الارتضاء بانها حصلت — ومن العمال الحقراء ، زيادة في الطين بلة ! — على براهين محسوسة على عجزها ؛ وهذه البراهين كانت

بالملايين . ودخلت الدولة في مازق ؛ اما العمال ، فقد شرعوا للتو يسيرون في طريقهم

ولكن الى جانب هذه الخدمة الاولى التي قدمها العمال الالمان لقضية الطبقة العاملة بمجرد وجودهم بوصفهـــم اقوى الاحزاب الاشتراكية واكثرها انضباطاً واسرعها نمواً ، قدموا لها ايضاً خدمة كبيرة اخرى فقد اعطوا رفاقهم في جميع البلدان سلاحاً جديداً ــ من امضى الاسلحة ــ بتبيانهم لهم كيف ينبغي استغلال الحق الانتخابي العام .

ان الحق الانتخابي العام كان قائماً من زمان في فرنسا ، ولكنه كسب هناك شهرة سيئة بعد ان اساءت الحكومة البونابرتية استخدامه وبعد الكومونة لم يكن هناك حزب عمالي في وسعه استخدامه وفي اسبانيا ، كان هذا الحق مقرراً ايضاً في عهد الجمهورية ، ولكن الاستنكاف عن الاشتراك في الانتخابات كان من زمان في اسبانيا قاعدة عامة تتبعها جميع الاحزاب المعارضة الجدية . كذلك نتائج التجربة السويسرية فيما يخص الحق الانتخابي العام كانت اقل ما يمكنه ان يشجع الحزب العمالي . وكان العمال الثوريون في البلدان اللاتينية قد اعتادوا اعتبار الحق الانتخابي فخاً واداة بيد الحكومة للكذب والخداع . اما في المانيا ، فقد كان الحال آخر فان «البيان الشيوعي» كان قد اعلن ان نيل الحق الانتخابي العام ، نيل الديموقراطية هو مهمة من اولى واكبر مهام البروليتاريا المناضلة ، وكان لاسال قد تقدم بهذا المطلب من جديد وعندما اضطر بيسمارك الى اقرار الحق الانتخابي العام (٤٨) بوصفه الوسيلة الوحيدة لاثارة اهتمام الجماهير الشعبية بمشاريعه ، اخذ عمالنا فوراً المسالة على محمل الجد وارسلوا اوغست بيبل الى الريخستاغ التاسيسي الاول . ومذ ذاك استغلوا الحق الانتخابي الى حد ان هذا عاد عليهم بالذات بنفع جزيل وصار

مثالا لعمال جميع البلدان فان الحق الانتخابي ، كما جاء في البرنامج الماركسي الفرنسي ، تم بفضلهم transformé de moyen de duperie qu'il a été jusqu'ici en instrument d'emancipation تحويله من وسيلة للخداع كما كانها حتى الآن الى اداة للتحرر (٤٩) . وحتى لو افترضنا ان الحق الانتخابي العام لم يعد باي نفع غير النفع الناجم من كونه قد اتاح لنا ان نحسب قوانا مرة كل ثلاث سنوات ؛ وانه ، بفضل نمو عدد الاصوات نمواً فجائي السرعة وملحوظ بانتظام ، قوّى بالقدر نفسه ثقة العمال في النصر او ذعر الاعداء ، وصار بالتالي افضل وسيلة بين وسائلنا للدعاية ؛ وانه اعطانا معلومات دقيقة عن قوانا بالذات وعن قوى جميع احزاب اخصامنا ، وافسح بالتالي امامنا مجالا لا يقاس باي مجال آخر لأجل تقدير اعمالنا وتصرفنا ، ووقانا سواء من التردد في غير اوانه ام من الجراة الطائشة في غير اوانها ، — حتى لو كان هذا هو النفع الوحيد الذي اعطانا اياه حق التصويت ، لكان هذا اكثر من كافٍ . ولكنه اعطانا اكثر بكثير ففي حقبة التحريض قبل الانتخابات ، اعطانا هذا الحق افضل وسيلة للاتصال بالجماهير الشعبية حيث كانت لا تزال بعيدة عنّا ، ولاجبار جميع الاحزاب على الدفاع امام الشعب كله عن آرائها وتصرفاتها في وجه حملاتنا ؛ ناهيك بانه قدم لممثلينا في الريخستاغ منبراً كان في وسعهم ان يخاطبوا منه خصومهم في البرلمان والجماهير وراء جدرانه على السواء بقدر اكبر بكثير من الهيبة والنفوذ والحرية مما في الصحافة وفي الاجتماعات . واي فائدة كانت للحكومة والبرجوازية من قانونهما ضد الاشتراكيين ، اذا كان التحريض ما قبل الانتخابات والخطابات الاشتراكية في الريخستاغ تشق فيه الثغرات بلا انقطاع ؟

ولكن مع هذا الاستغلال الناجح للحق الانتخابي العام ، اخذ يوضع موضع التطبيق اسلوب جديد تماماً من اساليب نضال البروليتاريا ، وهذا الاسلوب تطور فيما بعد بسرعة . فقد وجدوا ان مؤسسات الدولة التي تنظم البرجوازية سيادتها بواسطتها ، توفر كذلك امكانيات اخرى لأجل نضال الطبقة العاملة ضد هذه المؤسسات بالذات . فشرع العمال يشتركون في الانتخابات الى لاندتاغات (مجالس) مختلف الدويلات والبلديات ومحاكم العمل ، وطفقوا ينافسون البرجوازية على كل منصب انتخابي ، اذا اشترك في الانتخابات لأجل اشغاله عدد كاف من العمال . وكانت النتيجة ان اخذت البرجوازية والحكومة تخافان من النشاط العلني لحزب العمال اكثر بكثير مما تخافان من نشاطه غير العلني ، اي من النجاحات في الانتخابات اكثر بكثير من النجاحات في الانتفاضة

لأن ظروف النضال تغيرت هنا ايضاً بصورة جوهرية فان الانتفاضة من الطراز القديم ، اي النضال في الشارع من وراء المتاريس ، الذي كان في كل مكان قبل عام ١٨٤٨ يبت في المسألة في آخر المطاف ، قد ولّ زمنه بصورة ملحوظة .

ولن نعلل انفسنا بالاوهام في هذا المجال فان انتصار الانتفاضة الفعلي على القوات المسلحة في نضال الشارع ، اي انتصاراً كالذي يحدث في معركة بين جيشين ، هو امر نادر للغاية . ولكن الثوار نادراً للغاية ايضاً ما أملوا في انتصار كهذا فان القضية كلها كانت تتلخص بالنسبة لهم في زعزعة معنويات القوات المسلحة بالتأثير المعنوي الذي لا يضطلع باي دور في النضال بين جيشي بلدين متحاربين او يضطلع على كل حال بدور اقل بكثير فاذا امكن هذا ، فان الجنود يرفضون اطلاق النار ، او يضيع الآمرون رؤوسهم فتنتصر الانتفاضة ؛ والاّ ، فان الافضليات الناجمة

عن التسلح الافضل والتدرب الافضل وعن القيادة الموحدة ، وعن الاستخدام المنهاجي للقوى القتالية وعن التقيد بالانضباط تفعل فعلها في صالح القوات المسلحة حتى وان كان عدد افرادها اقل واكثر ما تستطيع الانتفاضة بلوغه بالمعنى التاكتيكي الصرف انما هو بناء متراس منفرد ما والدفاع عنه حسب جميع قواعد الفن . فان المساندة المتبادلة ، وتوزيع الاحتياطيات واستعمالها بالطريقة المناسبة ، ــ وبكلمة ، تنسيق الاعمال بين مختلف الوحدات والتعاون فيما بينها ، الضروريين حتى لأجل الدفاع عن دائرة واحدة ما في المدينة ، وبالاحرى لأجل الدفاع عن مدينة كبيرة بكاملها ، ــ ان كل هذا ليس في المنال الا بقدر ضئيل جداً ، بل انه في معظم الاحوال مستحيل المنال اطلاقاً ؛ وهنا يزول من تلقاء ذاته عنصر حشد القوى القتالية في نقطة حاسمة واحدة . ولهذا كان الدفاع السلبي هو الشكل المهيمن بين اشكال النضال ؛ واذا ما شُنَّ هجوم في مكان ما ، فلا يُشَنُّ الا من قبيل الاستثناء ، لأجل الهجمات الصدفية والحملات الجانبية ؛ اما على العموم ، فان الهجوم يقتصر على احتلال المواقع التي تخلت عنها القوات المتراجعة . ناهيك بان القوات المسلحة تملك المدافع والوحدات الهندسية الحسنة التسلح والتدرب ، بينما الثوار لا يملكون البتة في جميع الاحوال تقريباً وسائل النضال هذه . ولذا لا غرابة اذا كانت حتى تلك المعارك من معارك المتاريس التي ضربت فيها اعظم آيات البطولة ــ في باريس في حزيران (يونيو) ١٨٤٨ ، في فيينا في تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٨ ، في درسدن في ايار (مايو) ١٨٤٩ ــ قد انتهت بهزيمة الانتفاضة ما ان طرح قادة القوات المسلحة المهاجمة جميع الاعتبارات السياسية جانباً وشرعوا يعملون انطلاقاً من وجهة النظر الحربية الصرف ، وامكنهم الاعتماد على جنودهم .

ان النجاحات العديدة التي احرزها الثوار قبل عام ١٨٤٨ تفسرهـا اسباب متنوعة جداً ففي باريس في تموز (يوليو) ١٨٣٠ وفي شباط (فبراير) ١٨٤٨ ، وكذلك في اغلبية معارك الشوارع في اسبانيا ، كان يقف الحرس الوطني بين الثوار والجنود ، وكان إمّا ينتقل مباشرة الى جانب المنتفضين ، واما يثير بسلوكه السلبي والمتردد التذبذبات في صفوف الجنود ايضاً ، وكان بالاضافة يقدم الاسلحة للمنتفضين وحيث كان هذا الحرس الوطني منذ البداية بالذات ضد الانتفاضة ، كما حدث في باريس في حزيران (يونيو) ١٨٤٨ ، كانت الانتفاضة تمنى بالهزيمة . وفي برلين في عام ١٨٤٨ ، انتصر الشعب ، جزئياً بسبب انضمام قوى قتالية جديدة كثيرة اليه في ليلة وصباح ١٩ آذار (مارس) ، وجزئياً بسبب اعياء الجنود وسوء تموينهم ، وجزئياً اخيراً بسبب الاوامر التي كانت تشل اعمالهم . ولكن المنتفضين كانوا يحرزون النصر في جميع الاحوال لأن الجنود كانوا يرفضون اطلاق النار ، ولأن الآمرين كانوا يفقدون الحزم والتصميم ، او لأن ايديهم كانت مقيدة

وهكذا ، حتى في الازمنة الكلاسيكية لمعارك الشوارع ، كان تأثير المتراس المعنوي اكبر من تأثيره المادي . فقد كان المتراس وسيلة لزعزعة صلابة الجنود . فاذا تسنّى له ان يصمد حتى بلوغ هذا الهدف ، فقد كان يتم احراز النصر ؛ والاّ ، فان النضال كان ينتهي بالهزيمة تلك هي النقطة الرئيسية التي يجب اخذها بالحسبان كذلك عند دراسة احتمالات النجاح والاخفاق ، عند دراسة معارك الشوارع الممكنة الوقوع في المستقبل •

• هذه الجملة لم ترد في النص الصادر في مجلة «Die Neue Zeit» وفي طبعة «النضال الطبقي في فرنسا» الصادرة على حدة في ١٨٩٥ . الناشر .

ولكن هذه الاحتمالات كانت في ١٨٤٩ سيئة جداً . ففي كل مكان كانت البرجوازية قد انتقلت الى جانب الحكومات ؛ وكان ممثلو «النور والملكية» يحيون ويضيّفون الجنود العاملين على قمع الانتفاضات . وكان المتراس قد فقد جاذبيته : فلم يعد الجنود يرون وراءه «الشعب» بل اخذوا يرون وراءه العصاة ، والمشاغبين، والنهابين ، وانصار التقاسم ، ونفايات المجتمع ؛ ومع مرور الزمن ، كان الضباط قد امتلكوا ناصية تاكتيك القتال في الشوارع ، فكفوا عن المضي رأساً وبلا تغطية الى متراس مرتجل ، وشرعوا يلتفون حوله عبر الحدائق والافنية والبيوت . واخذ هذا ، اذا ما اقترن ببعض الحذق والدهاء ، يتكلل الآن بالنجاح في تسع حالات من كل عشر

ولكن تغيرات كثيرة اخرى طرأت ايضاً مد ذاك ، وكلهـا في صالح الجنود . فاذا كانت المدن الكبيرة قد نمت بصورة ملحوظة ، فان عدد افراد الجيش قد نما بصورة اكبر . فمنذ عام ١٨٤٨ لم يزدد عدد سكان باريس وبرلين الى اربعة امثاله ، بينما ازداد عدد افراد حاميتيهما الى اكثر من اربعة امثالـه . وبفضل السكك الحديدية ، يمكن ، في ٢٤ ساعة ، زيادة عدد افراد هاتين الحاميتين اكثر من ١٠٠ بالمئة ، وزيادته في ٤٨ ساعة الى عدد افراد جيوش ضخمة . وسلاح هذا الجيش الذي نما نمواً فائقاً اصبح اكثر فعالية بما لا يقاس . ففي ١٨٤٨ ، ـ البندقية الزنادية الملساء الماسورة، التي تعبأ من الفوهة ؛ والآن البندقية الصغيرة العيار وذات الخزنة ، التي تعبأ من الخزنة ، وهي بندقية تطلق ابعد من القديمة باربع مرات وادق واسرع بعشر مرات من قبل ، مدفعية ذات كلل وقذائف ضعيفة الفعالية نسبياً ؛ والآن رمانات متفجرة تكفـي

الواحدة منها لتدمير خير متراس . من قبل معول عسكري الهندسة لشق جدار صامد للنار ؛ والآن اصبع ديناميت .

اما في صف الثوار ، فان جميع الظروف والشروط قد تغيرت ، على العكس ، نحو الاسوأ . فمن المشكوك فيه ان تتكرر الانتفاضة التي تعطف عليها جميع فئات الشعب ؛ ويجب الظن ان الفئات المتوسطة لن تلتف ابداً جميعها بلا استثناء ، في غمرة النضال الطبقي ، حول البروليتاريا بحيث يزول تقريباً الحزب الرجعي الملتف حول البرجوازية . وعليه ، سيعمل «الشعب» دائماً بصفوف متفرقة ، ولن يكون هناك بالتالي ذلك الرافع الجبار الذي كان شديد الفعالية في عام ١٨٤٨ . واذا ما انضم الى جانب المنتفضين عدد اكبر من الجنود الذين مروا بالخدمة العسكرية ، فان تسليحهم سيكون بالمقابل اصعب ثم ان بنادق الصيد والبنادق الغالية الصنع من مخازن الاسلحة ــ حتى اذا لم يعطلوها سلفاً ، بناء على اوامر البوليس ، بانتزاع هذا القسم او ذاك من مغاليقها ــ لا يمكنها البتة ، حتى في حال الاطلاق عن مسافة قريبة ، ان تضاهي بنادق الجنود ذات الخزنات قبل عام ١٨٤٨ ، كان بوسع المرء ان يصنع بنفسه من البارود والرصاص الشحنة الضرورية ؛ اما الآن فان كل بندقية تتطلب خراطيش خاصة لا يشبه بعضها بعضاً الا من حيث انها كلها من منتوج الصناعة الكبيرة المعقد ، ولا يمكن بالتالي صنعها على الفور بلا ابطاء ، ولذا تبقى البنادق بمعظمها غير نافعة اذا لم تتوفر لها خراطيش حربية مناسبة لها بالذات واخيراً ، يبدو كان الشوارع الطويلة ، المستقيمة ، العريضة في الاحياء المشيدة حديثاً بعد عام ١٨٤٨ في المدن الكبيرة مكيفة قصداً وعمداً لأجل عمل المدافع والبنادق الجديدة . وانه لمجنون ذلك الثوري الذي يختار بنفسه لأجل قتال المتاريس

الاحياء العمالية الجديدة في القسمين الشمالي والشرقي من برلين

فهل هذا يعني ان نضال الشوارع لن يضطلع في المستقبل باي دور ؟ كلا ، ابداً . فان هذا يعني فقط ان الظروف والشروط قد اصبحت منذ ١٨٤٨ اقل ملاءمة بكثير للمحاربين من السكان المدنيين ، واكثر ملاءمة بكثير للجنود . وهكذا لا يمكن ان يؤدي نضال الشوارع المقبل الى النصر الا اذا جاءت عناصر اخرى توازن هذه النسبة غير الملائمة بين القوى . ولهذا سيحدث نضال الشوارع في مستهل الثورة الكبيرة اقل مما سيحدث في مجراها اللاحق ، وسيتعين القيام به بقوى اكبر بكثير . وينبغي الظن ان هذه القوى ستفضل ، كما في سياق الثورة الفرنسية الكبرى كلها ، وكما في ٤ ايلول (سبتمبر) و٣١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٧٠ في باريس (٥٠) ، الهجوم السافر على تاكتيك المتاريس السلبي •

فهل يفهم القارئ الآن لماذا تريد الطبقات السائـــدة ان تستدرجنا من كل بدّ الى حيث تنطلق البنادق وتقطع السيوف ؟ لماذا يتهموننا الآن بالجبانة لأننا لا نرغب في الخروج الى الشارع على الفور دون روية واحتراس ، حيث تنتظرنا الهزيمة ، كما نعرف سلفاً ؟ لماذا يتوسلون الينا بمثل هذا الالحاح لنوافق في آخر الامر على الاضطلاع بدور طعام للمدافع ؟

ولكن عبثاً وسدى يفرط هؤلاء السادة في طلباتهم وتحدياتهم . فلسنا اغبياء الى هذه الدرجة . وبنفس القدر من النجاح يمكنهم ان يطلبوا في حرب مقبلة من عدوهم ان يصف قواته في خط كما في عهد فريتز العجوز •• او في طوابير من فرق كاملة كما في وغرام (٥١)

• كل هذا المقطع لم يرد في نـــص «Die Neue Zeit» وفي طبعـــة «النضال الطبقي في فرنسا» الصادرة على حدة في ١٨٩٥ . الناشر .

•• فريدريك الثاني . الناشر .

وواترلو (٥٢) ، ناهيك بان يسلحها ببنادق بقداحة صوانية واذا كانت قد طرأت تغيرات على الظروف والشروط لأجل الحرب بين الشعوب ، فلم تطرأ تغيرات اقل على الظروف والشروط لأجل النضال الطبقي . وقد ولى زمن الهجمات المفاجئة ، وزمن الثورات التي تقوم بها اقلية واعية ضئيلة تترأس الجماهير غير الواعية وحيث يكون المقصود تحويل النظام الاجتماعي تحويلا تاما ، ينبغي على الجماهير بالذات ان تشترك في هذا ، ينبغي عليها بالذات ان تدرك الهدف الذي يدور النضال من اجله ، الهدف الذي تهرق دماءها وتضحي بحياتها من اجله • . وهذا ما علّمنا اياه تاريخ السنوات الخمسين الاخيرة . ولكنه لا بدّ من عمل مديد دائب لكي تفهم الجماهير ما يجب فعله ، وهذا العمل على وجه الضبط هو ما نقوم به الآن ، ونقوم به بنجاح يدفع خصومنا الى احضان الياس والقنوط .

وفي البلدان اللاتينية ايضا اخذوا يفهمون اكثر فاكثر انه تنبغي اعادة النظر في التاكتيك القديم . والمثال الالماني لاستغلال الحق الانتخابي وللاستيلاء على جميع المواقع التي في منالنا يجد تطبيقات له في كل مكان ؛ وفي كل مكان تراجعت الحملات غير المحضرة الى المؤخرة •• . وفي فرنسا ، حيث التربة شقها عدد من الثورات منذ

• في نص «Die Neue Zeit» وطبعة «النضال الطبقي في فرنسا» الصادرة على حدة في ١٨٩٥ ، ورد «الهدف الذي ينبغي عليها النضال من اجله» عوضا عن «الهدف الذي تهرق دماءها وتضحي بحياتها من اجله» الناشر .

•• في نص «Die Neue Zeit» وطبعة «النضال الطبقي في فرنسا» الصادرة على حدة في ١٨٩٥ ، لم ترد كلمات «وفي كل مكان تراجعت الحملات غير المحضرة الى المؤخرة» . الناشر .

مائة سنة ونيف ، وحيث لا يوجد حزب لم يكن له ضلع في المؤامرات والانتفاضات وشتى الاعمال الثورية الاخرى ؛ في فرنسا حيث الحكومة لا تستطيع البتة ، من جرّاء هذا ، ان تعتمد بثقة على الجيش ، وحيث الاحوال على العموم لأجل الانتفاضات المفاجئة اكثر ملاءمة بكثير مما في المانيا ، ــ حتى في فرنسا يزداد الاشتراكيون اقتناعاً اكثر فاكثر بانهم لا يستطيعون ان يحرزوا نصراً راسخاً الا اذا اجتذبوا مسبقاً الى جانبهم جمهوراً واسعاً من الشعب ، اي من الفلاحين في الحالة المعنية . وهناك ايضاً يُعتبر العمل الدعائي الصبور والنشاط البرلماني اقرب مهام الحزب ولم تلبث النجاحات ان ظهرت . فلم يتم الظفر بجملة كاملة من البلديات وحسب ، بل هناك ايضاً ٥٠ اشتراكياً في المجلسين ، وقد اسقطوا حتى الآن ثلاث وزارات ، ورئيساً للجمهورية . وفي بلجيكا ، ظفر العمال في السنة الماضية بالحق الانتخابي واحرزوا النصر في ربع الدوائر الانتخابية . وللاشتراكيين في سويسرا وايطاليا والدانمارك وحتى في بلغاريا ورومانيا ، ممثلون عنهم في البرلمانات . وفي النمسا ، خلصت جميع الاحزاب بالاجماع الى استنتاج مفاده انه لم يبق من الممكن قطع الطريق امامنا الى الريخسرات . وسنتسرب لا محالة الى هناك ، وينحصر النقاش في معرفة اي باب سنتسرب منه . وحتى إذا انعقد في روسيا الزيمسكي سوبور الشهير ، ــ هذه الجمعية الوطنية التي يعارض نيقولاي الشاب عبثاً في دعوتها الى الانعقاد ، ــ ففي وسعنا ان نأمل عن ثقة ويقين في انه سيكون لنا هناك ايضاً ممثلون عنّا

وغني عن البيان ان رفاقنا في الخارج لا يتخلون ، من جرّاء هذا ، في اي حال من الاحوال ، عن حقهم في الثورة . ذلك ان الحق في الثورة هو «الحق» الوحيد «التاريخي» فعلاً ، الحق الوحيد الذي

ترتكز عليه جميع الدول الحديثة بلا استثناء ، بما فيها مكلنبورغ حيث انتهت ثورة النبلاء في ١٧٥٥ « بمعاهدة حول الوراثة » بهذه الوثيقة الاقطاعية المشهودة (٥٣) التي لا تزال سارية المفعول في الوقت الحاضر . ان الحق في الثورة قد ترسخ في الادراك العام الى حد ان الجنرال فون بوغوسلافسكي ذاته يستخلص من هذا الحق الشعبي وحده الحق في اجراء انقلاب في مصلحة امبراطوره .

ولكن ، مهما جرى في البلدان الاخرى ، فان الاشتراكية-الديموقراطية الالمانية تشغل وضعاً خاصاً ، وهذا ما يحدد مهمتها الخاصة للمستقبل القريب العاجل على الاقل . فان المليوني ناخب الذين ترسلهم الى صناديق الاقتراع ، وكذلك الشباب والنساء الذين يدعمونها مع انهم ليسوا ناخبين ، يشكلون الجمهور الاوفر عدداً والاشد تراصاً ، و« الفصيلة الصدامية » الحاسمة في الجيش البروليتاري الاممي . وهذا الجمهور يؤلف الآن اكثر من ربع جميع الاصوات المعطاة ، وهو ينمو باستمرار ، كما تثبت الانتخابات الاضافية الى الريخستاغ والانتخابات الى اللاندتاغات (المجالس) في مختلف الدويلات والى البلديات ومحاكم العمل . ونموها يجري بصورة عفوية ، وبلا انقطاع ، وبلا مردّ ، وفي الوقت نفسه بهدوء ، تماماً مثل اي تطور يجري في الطبيعة . وقد باءت بالفشل جميع محاولات الحكومة لعرقلة هذا النمو . وبوسعنا ان نامل الآن في كسب مليونين وربع مليون ناخب . واذا استمر الحال على هذا النحو ، فاننا سنكسب في اواخر هذا القرن القسم الاكبر من الفئات المتوسطة في المجتمع ، البرجوازية الصغيرة والفلاحين الصغار ، ونصير في البلد قوة حاسمة ينبغي على جميع القوى الاخرى ان تنحني امامها شاءت ام أبت . ومهمتنا الرئيسية ،

الاسهام بفائق الجهد في هذا النمو الى ان يعلو من تلقاء ذاته فوق رأس النظام الحكومي السائد ، وعدم القضاء على هذه الفصيلة الصدامية المتزايدة قوة يوماً بعد يوم في اشتباكات امامية ، بل الاحتفاظ بها في حرمة وحصانة حتى اليوم الحاسم • . ان وسيلة واحدة فقط من شأنها ان توقف موقتاً وحتى ان تدفع الى الوراء لفترة من الزمن نمو القوى الكفاحية الاشتراكية المتواصل في المانيا ، وهذه الوسيلة هي صدام كبير مع القوات المسلحة ، واهراق الدماء كما في ١٨٧١ في باريس . ولكننا سنتغلب على هذا ايضاً مع مرور الزمن اذا ما حدث . فمن المستحيل محو حزب يضم الملايين من على وجه الارض ؛ فلهذا الغرض لا تكفي جميع البنادق ذات الخزنات في اوروبا واميركا . ولكن من شأن هذا ان يكبح المجرى العادي للتطور ، وان يبقينا في اللحظة الحرجة ، كما يمكن الظن ، بدون فصيلة صدامية ، فتتاجل المعركة الحاسمة •• وتبتعد وتكلف تضحيات اشد وطأة وارهاقاً .

ان سخرية التاريخ العالمي تقلب كل شيء راساً على عقب . فنحن «الثوريين» ، «الانقلابيين» نحرز من النجاحات بالاساليب الشرعية اكثر مما نحرز بالاساليب غير الشرعية او بالانقلاب . اما

• في نص «Die Neue Zeit» وفي طبعة «النضال الطبقي في فرنسا» الصادرة على حدة في ١٨٩٥ ، لم ترد كلمات «وعدم القضاء على هذه الفصيلة الصدامية المتزايدة قوة يوماً بعد يوم في اشتباكات امامية ، بل الاحتفاظ بها في حرمة وحصانة حتى اليوم الحاسم» . الناشر .

•• في نص «Die Neue Zeit» وفي طبعة «النضال الطبقي في فرنسا» الصادرة على حدة في ١٨٩٥ ، لم ترد كلمات «وان يبقينا في اللحظة الحرجة ، كما يمكن الظن ، بدون فصيلة صدامية» ، ووردت كلمة «القرار» عوضاً عن كلمتي «المعركة الحاسمة» الناشر .

الاحزاب التي تسمي نفسها باحزاب النظام ، فانها تهلك من الوضع الشرعي الذي خلقته بنفسها وبدافع الياس تزعق مع اوديلون بارو : la légalité nous tue ، الشرعية تقتلنا ، في حين اننا نحن نكتسب في ظل هذه الشرعية عضلات مرنة وخدوداً حمراء ، ونزهر كالحياة الابدية . واذا ما انزلقنا نحن في لجة الحماقة الى حد ان ننجرّ الى نضال الشوارع لما فيه صالح هذه الاحزاب ، فلا يبقى لهذه الاحزاب في آخر المطاف غير امر واحد ، هو ان تنتهك بنفسها هذه الشرعية المشؤومة .

وفي هذه الاثناء ، تضع هذه الاحزاب قوانين جديدة ضد الانقلاب . ومن جديد يوضع كل شيء رأساً على عقب . ترى ألم يكن اعداء الانقلاب الالداء الحاليون هم انفسهم بالامس انقلابيين ؟ ترى هل نحن الذين استثرنا الحرب الاهلية في ١٨٦٦ ؟ ترى هل نحن الذين طردنا ملك هانوفر ، وكورفورست (امير) هيسن ، ودوق ناساو من اراضيهم الاصلية ، الشرعية ، الموروثة واستولينا على هذه الاراضي ؟ وهؤلاء الذين قلبوا الاتحاد الالماني وثلاثة تيجان هي من نعمة الله يتذمرون الآن من الانقلاب ! Quis tulerit Gracchos de seditione querentes?* . ومن ذا الذي يمكنه ان يسمح لانصار بيسمارك بشتم الانقلاب ؟

ولكن ، ليطبقوا مشاريع قوانينهم ضد الانقلاب ، وليجعلوها اشد وحشية وضراوة ، وليحولوا جميع القوانين الجزائية الى مطاط ، فانهم لن يتوصلوا الا الى ما يشكل برهاناً جديداً على عجزهم فلأجل ايذاء الاشتراكية ـ الديموقراطية جدياً ، ينبغي

---

* ترى ، هل يمكن الصبر عندما يغتاظ غراكوس من الفتنة ؟ (يوفينال ، الاهجية الثانية) . الناشر .

عليهم اللجوء ايضا الى اجراءات مختلفة تماما فضد الانقلاب الاشتراكي ـ الديموقراطي الذي يعمل في صالحه في الظرف الراهن التقيد بالقوانين على وجه الدقة ، لا يمكنهم اللجوء الاّ الى انقلاب تقوم به احزاب النظام ، الى انقلاب لا يمكن ان يتحقق بدون انتهاك القوانين . ان السيد روسلر ، البيروقراطي البروسي ، والسيد فون بوغوسلافسكي ، الجنرال البروسي ، قد بيّنا لهم الوسيلة الوحيدة التي يمكن استعمالها ، على الارجح ، ضد العمال حين لا يسمحون بجرهم الى نضال الشوارع . بمخالفة الدستور ، الديكتاتورية ، العودة الى الحكم المطلق regis voluntas supremа lex! * المزيد من الجرأة ، ايها السادة ، فلا مجال هنا للثرثرة ، هنا يجب العمل !

ولكن لا تنسوا ان الامبراطورية الالمانية ، مثلها مثل جميع الدول الصغيرة ومثل جميع الدول الحديثة على العموم ، هي **نتاج اتفاق** : اولا اتفاق بين الملوك ، وثانيا ، اتفاق بين الملوك والشعب . فاذا خالف احد الطرفين الاتفاق ، فان الاتفاق بمجمله يفقد قوته ، ويتحرر الطرف الآخر ايضا من التزاماته . وهذا ما قدم لنا عليه بيسمارك البرهان الساطع في عام ١٨٦٦ وعليه ، اذا خالفتم دستور الامبراطورية ، فان الاشتراكية ـ الديموقراطية ستتحرر هي ايضا من التزاماتها وسيكون بوسعها ان تتصرف حيالكم حسبما تراه ضروريا اما ما ستفعله على وجه التدقيق ، فهذا سر من المشكوك فيه ان تفشيه لكم الآن **

---

* ارادة الملك هي القانون الاعلى ! الناشر .

** في نص «Die Neüe Zeit» وفي طبعة «النضال الطبقي في فرنسا» الصادرة على حدة في ١٨٩٥ ، لم ترد الجمل الثلاث الاخيرة من هذا المقطع الناشر .

منذ قرابة ١٦٠٠ سنة ، كان يعمل في الامبراطورية الرومانية حزب للانقلاب شديد الخطر . فقد قوض هذا الحزب الدين وجميع اسس الدولة ، وانكر صراحة ان تكون ارادة الامبراطور القانون الاعلى ، وكان بلا وطن ، كان اممياً ؛ وقد انتشر في جميع اقاليم الامبراطورية ، من بلاد الغال الى آسيا ، وتسرب الى مـــا وراء حدودها . وزمناً طويلا جاهد خفية وعمل سراً ، ولكنه شعر خلال حقبة مديدة نسبياً بانه صار من القوة بحيث يستطيع العمل جهاراً وعلناً . فان حزب الانقلاب هذا ، المعروف باسم حزب المسيحيين ، قد كسب لنفسه عدداً كبيراً من الانصار في صفوف القوات المسلحة ايضاً : فقد غدت فيالق برمتها مسيحية . وعندما كانوا يرسلونها الى حضور احتفالات الكنيسة السائدة الوثنية من اجل اداء المراسم العسكرية ، كان الجنود المنتمون الى حزب الانقلاب يتجاسرون ويعلقون على خوذاتهم علامات خاصة هي الصلبان ، دليـــلا على احتجاجهم . بل ان المضايقات العادية في الثكنات من جانب الرؤساء كانت تبقى بلا جدوى . ولم يبق بوسع الامبراطور ديوقليسيانوس ان يرى بهدوء كيف يتقوض النظام والطاعة والانضباط في صفوف قواته ، فاتخذ تدابير حازمة قبل فوات الاوان . فقد اصدر قانوناً ضد الاشتراكيين ــ اي ضد المسيحيين ومُنعت اجتماعـــات الانقلابيين ، واُغلقت اماكن اجتماعاتهم بل انها دُمّرت ، ومنعت الشارات المسيحية ــ الصلبان وغير ذلك ــ كما منعت في سكسونيا المناديل الجيبية الحمراء . وحُرم المسيحيون من حق شغـــل الوظائف الحكومية ، ولم يكن بوسعهم ان يكونوا حتى جنوداً اولين . وبما انه لم يكن هناك بعد في ذلك الوقت قضاة مروضون كما ينبغي حسب اصول «التحزب» ، قضاة يرتاي وجودهم مشروع القانون الذي تقدم به السيد فون كيللر بشان درء الانقلابات (٥٤) ،

فقد كان ممنوعاً بكل بساطة على المسيحيين ان يفتشوا عن الحماية في المحكمة ولكن هذا القانون الاستثنائي بقي هو ايضاً بلا جدوى . وبدافع التهكم والازدراء ، كان المسيحيون ينزعون نص القانون عن الجدران ، بل انهم ، كما يقال ، حرقوا في نيقوميديا قصراً كان يقيم فيه الامبراطور حينذاك وحينذاك انتقم من المسيحيين باضطهادهم بالجملة في عام ٣٠٣ بعد الميلاد . وقد كان ذلك آخر اضطهاد من هذا النوع وكان اثره قوياً الى حد ان الاغلبية الساحقة من الجيش كانت تتألف بعد ١٧ سنة على انقضائه من المسيحيين ، والى حد ان قسطنطين ، الحاكم المطلق التالي لعموم الامبراطورية الرومانية ، الذي لقّبه رجال الكنيسة بقسطنطين الكبير ، اعلن المسيحية دين الدولة .

لندن ، ٦ آذار (مارس) ١٨٩٥

فريدريك انجلس

صدرت (مع اختصارات) في مجلة «Die Neue Zeit» المجلد ٢، العددان ٢٧ و ٢٨ لعامي ١٨٩٤ـ١٨٩٥ ، وفي كتاب :
Karl Marx. «Die Klassenkämpfe in Frankreich 1848 bis 1850». Berlin, 1859

تصدر حسب نص بروفات الكتاب بعد مقارنته بالمخطوطة تمت الترجمة نقلا عن الالمانية

رسائل

من ماركس الى بافل فاسيليفيتش اننكوف

في باريس

بروكسل في ٢٨ كانون الاول (ديسمبر) [عام ١٨٤٦]

عزيزي السيد اننكوف !

لو ان بائع الكتب الذي اتعامل معه لم يتأخر في ارسال كتاب السيد برودون «بؤس الفلسفة» الى حتى الاسبوع الماضي ، لكنت تلقيت من زمان جوابا عن رسالتك بتاريخ اول تشرين الثاني (نوفمبر) . ولقد تصفحت الكتاب في مدى يومين لكي اتمكن من اطلاعك على رأيي فوراً . وبما اني قرأته بسرعة كبيرة ، فلا يسعني ان اتناوله بالتفصيل . انما استطيع فقط ان اتحدث عن الانطباع العام الذي تركه في نفسي . واذا شئت ، فبمقدوري ان اكتب لك عنه بمزيد من التفصيل في رسالة تالية .

اعترف صراحة اني اجد الكتاب على العموم رديئا ، رديئا جداً . وانت نفسك تمزح في رسالتك بصدد «الزاوية من الفلسفة الالمانية» التي يتغندر فيها السيد برودون بهذا المؤلف الدعي والعديم الشكل ، ولكنك تظن ان السم الفلسفي لم يسمم دراساته الاقتصادية . وانا ايضا بعيد عن اعتبار فلسفة السيد برودون سبب اخطاء دراساته الاقتصادية . فان السيد برودون لا ينتقد

الاقتصاد السياسي انتقاداً خاطئاً لأنه صاحب فلسفة مضحكة ـ بل انه يقدم لنا فلسفة مضحكة لأنه لم يفهم النظام الاجتماعي الحديث بتعشيقاته [engrènement] اذا استعملنا كلمة يستقرضها السيد برودون مثل كثيرين غيره من فوريه .

لماذا يتكلم السيد برودون عن الله وعن العقل العام وعن عقل البشرية العديم الشخصية ، الذي لا يخطىء ابداً والذي كان دائماً مساوياً لنفسه والذي حسبنا ان نكوّن فكرة صحيحة عنه حتى نمتلك الحقيقة ؟ لماذا يلجأ الى الهيغلية التي فهمها فهماً سطحياً لكي يرسم عن نفسه صورة مفكر عميق ؟

انه هو نفسه يعطينا المفتاح لفض اللغز . فان السيد برودون يرى في التاريخ عدداً معيناً من التطورات الاجتماعية ويجد في التاريخ تحقيق التقدم ويجد اخيراً ان الناس ، ماخوذين كافراد منفردين ، لم يعرفوا ما يفعلون ، وانهم كوّنوا فكرة خاطئة عن حركتهم بالذات ، مفادها ان تطورهم الاجتماعي يبدو ، من النظرة الاولى ، شيئاً متميزاً ، منفصلا ، مستقلا عن تطورهم الفردي . وليس بمقدوره ان يفسر هذه الوقائع ، ولذا تظهر هنا بالذات الفرضية القائلة بالعقل العام المتجلي . وعندما ينقص العقل السليم ، ليس ثمة ما هو اسهل من اختراع الاسباب الصوفية ، اي من تلفيق الجمل الفارغة .

ولكن السيد برودون ، حين يعترف بعدم فهمه التام لتطور البشرية التاريخي ، ـ وهو يعترف بهذا عندما يلجأ الى الكلمات المدوية عن العقل العام وعن الله ، وما الى ذلك ، ـ ألا يعترف بالتالي من كل بدّ بانه عاجز عن فهم التطور الاقتصادي ايضاً ؟

ما هو المجتمع ، ايا كانت اشكاله ؟ نتاج تعاون الناس . هل الناس احرار في اختيار هذا الشكل او ذاك من اشكال المجتمع ؟

كلا ، ابداً . خذ درجة معينة من تطور قوى الناس المنتجة ، تحصل على شكل معين للتبادل (commerce) والاستهلاك . خذ درجة معينة من تطور الانتاج والتبادل والاستهلاك ، تحصل على نظام اجتماعي معين ، وتنظيم معين للعائلة او الفئات او الطبقات ، ــ وبكلمة مجتمع مدني معين . خذ مجتمعاً مدنياً معيناً ، تحصل على نظـــام سياسي معين لا يعدو ان يكون تعبيراً رسمياً عن المجتمع المدني . وهذا ما لن يفهمه السيد برودون ابداً لأنه يتصور بانه يجترح شيئاً مـــا عظيماً عندما يستعيض عن الدولة بالمجتمع المدني ، اي عن خلاصة المجتمع الرسمية بالمجتمع الرسمي .

ومن نافل الكلام ان نضيف الى هذا ان الناس ليسوا احراراً في اختيار **قواهم المنتجة** التي تشكل اساس تاريخهم كله لأن كل قوة منتجة هي قوة مكتسبة ، هي نتاج نشاط سابق . وعليه تكون القوى المنتجة نتيجة طاقة الناس العملية ، ولكن هذه الطاقة ذاتها تحددها الظروف التي يعيش في ظلهـــا الناس ، والقوى المنتجة المكتسبة سابقا ، وشكل المجتمع الذي كان موجوداً قبلهم ، والذي لم يصنعـــه هؤلاء الناس ، بل صنعه الجيل السابق . وبفضل هذا الواقع البسيط وهـــو ان كل جيل لاحق يجد القوى المنتجة التي اكتسبها الجيل السابق ، وان هذه القوى المنتجة تؤلف بالنسبة له مادة خاما لأجل الانتاج الجديد ، ــ بفضل هذا الواقع تتشكل الصلة في التاريخ البشري ، يتشكل تاريخ البشرية الذي يصبح اكثر فاكثر تاريخ البشرية بقدر مـــا تتنامى قوى الناس المنتجة ، وبالتالي علاقاتهم الاجتماعية . ومن هنا استنتاج ضروري : ان تاريخ الناس الاجتماعي انما هو دائما مجرد تاريخ تطورهـــم الفردي ، سواء ادركوا هذا ام لا ان علاقاتهـــم المادية تشكل اساس جميـــع علاقاتهم . وهذه العلاقات المادية ليست غير الاشكال الضرورية التي يجري بها نشاطهم المادي والفردي .

ان السيد برودون يخلط الافكار والاشيـــاء فان الناس لا يتخلون ابداً عما اكتسبوه ، ولكن هذا لا يعني انهم لن يتخلوا عن ذلك الشكل من اشكال المجتمع الذي اكتسبوا فيه قوى منتجـــة معينة . بل بالعكس . فلكي لا يفقد الناس النتيجة الحاصلة ، لكي لا يخسروا ثمار الحضارة ، ينبغي عليهم ان يغيروا جميع الاشكال الاجتماعية الموروثة عندما لا يبقى اسلوب تعاملهم (commerce) متطابقاً مع القوى المنتجة المكتسبة . ــ وانا استعمل هنا كلمـــة «commerce» باوسع معانيها ، بالمعنى الذي تستعمل به في الالمانية كلمة «Verkehr» . ــ مثلا : ان الامتيازات ، وطوائف الحـــرف ، والجمعيات ، وكل منهاج التنظيم الحرفي في القرون الوسطى ، انما كانت عبارة عن علاقات اجتماعية مطابقة وحدها دون غيرها للقوى المنتجة المكتسبـــة وللنظام الاجتماعي الموجود من قبل ، والذي انبثقت منه هذه المؤسسات . وفي ظل منهـــاج التنظيم الحرفي ، تراكمت الرساميـــل ، وتطورت التجـــارة البحريـــة ، وأُسست المستعمرات ؛ ولو ان الناس ارادوا صيانة الاشكال التي نضجت في ظلها ثمار كل هذا ، لكانوا حرموا انفسهم من هذه الثمار . ولهذا دوت ضربتان كدوي الرعد ، هما ثورتا ١٦٤٠ و ١٦٨٨ فان جميع الاشكال الاقتصادية القديمة ، والعلاقات الاجتماعية المطابقة لها ، والنظام السياسي الذي كان التعبير الرسمي عن المجتمع المدني القديم ، ــ كل هذا تـــم تدميره في انجلترا . وعليه تكون الاشكال الاقتصادية التي ينتج في ظلها الناس ويستهلكون ويتبادلون اشكالا **عابرة وتاريخية** . ومع اكتساب قوى منتجة جديدة ، يغير الناس اسلوب الانتاج ، ومع اسلوب الانتاج يغيرون جميـــع العلاقـــات الاقتصادية التي لم تكن علاقات ضرورية الا لاسلوب الانتاج المعين هذا .

وهذا ما لم يفهمه السيد برودون ، ناهيك بانه لم يبيّنه . وبما ان السيد برودون عاجز عن تتبع السير الفعلي للتاريخ ، يتحفنا ، عوضاً عن هذا ، بسلسلة من الاوهام تدعي بأن تكون سلسلة ديالكتيكية من هذا النوع وهو لا يشعر بالحاجة الى الكلام عن القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر لأن تاريخه يجري في ذرى الخيال ما فوق الغيوم ، ويحلق عالياً ما وراء حدود الزمان والمكان . وبكلمة ، ان هذا من النفايات الهيغلية وليس تاريخاً ، ليس تاريخاً عادياً ، تاريخ البشر ، بل تاريخ مقدس ، اي تاريخ الافكار . فالانسان من وجهة نظر برودون ليس غير اداة يستخدمها الفكر او العقل السرمدي من اجل تطوره . ان **التطورات** (evolutions) التي يتحدث عنها السيد برودون هي ، حسب تفسيره ، تطورات تجري في اجواء الفكر المطلق الخفية واذا نزعت الغطاء عن كل هذا الكلام الغامض ، لرأيت ان السيد برودون يرسم لك نظاماً تقوم مقولاته الاقتصادية في رأسه ولا داعي لي الى المزيد من الجهد لكي اثبت لك ان هذا نظام رأس مشوش جداً

يستهل السيد برودون كتابه بمحاكمة حول **القيمة** ، وهي موضوعه المفضل . وهذه المرة لن احلل هذه المحاكمات

ان جملة من تطورات العقل السرمدي الاقتصادية تبدأ من **تقسيم العمل** فان تقسيم العمل هو ، بنظر السيد برودون ، شيء بسيط تماماً . ولكن الم يكن نظام الفئات المغلقة شكلا معيناً من تقسيم العمل ؟ الم يكن النظام الحرفي شكلا آخر من تقسيم العمل ؟ وتقسيم العمل في مرحلة المانيفاكتوره التي تبدأ في منتصف القرن السابع عشر وتنتهي في انجلترا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ألا يتميز تماماً وكلياً عن تقسيم العمل في الصناعة الكبيرة ، في الصناعة العصرية ؟

ان السيد برودون يفهم كنه المسالة بصورة رديئة الى حد انه يغيب عن باله حتى ما لا ينساه الاقتصاديون العاديون فهو حين يتكلم عن تقسيم العمل ، لا يشعر ابداً بالحاجة الى الكلام عن السوق العالمية هكذا اذن ! ولكن تقسيم العمل في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، حين لم تكن ثمة بعد مستعمرات ، حين لم تكن بعد اميركا موجودة بالنسبة لاوروبا ، وحين لم تكن الصلة مع آسيا الشرقية تقوم الا عبر القسطنطينية ، ترى ، ألم يكن يتميز من كل بدّ بصورة جذرية عن تقسيم العمل في القرن السابع عشر ، حين كانت قد ظهرت مستعمرات متطورة تماما ؟

ولكن هذا ليس بعد كل ما في الامر ترى ، أليس تنظيم الشعوب الداخلي كله وعلاقاتها العالمية كلها تعبيراً عن شكل معين من تقسيم العمل ؟ ترى ، ألا ينبغي ان يتغير كل هذا مع تغير تقسيم العمل ؟

ان السيد برودون بعيد عن فهم مسالة تقسيم العمل الى حد انه لا ينبس ببنت كلمة عن فصل المدينة عن القرية ، الذي جرى ، في المانيا مثلا ، من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر ضمناً ولهذا كان هذا الفصل ، بنظر السيد برودون ، قانوناً سرمدياً ، لأنه لا يعرف لا منشاه ولا تطوره . وهو يحاكم في كل كتابه كان هذا النتاج لاسلوب انتاج معين سيظل قائماً حتى آخر الدهر . وكل ما يقوله السيد برودون عن تقسيم العمل لا يعدو ان يكون خلاصة ـ ناهيك بانها خلاصة سطحية جداً وغير كاملة ـ لما قاله من قبله آدم سميث وكثيرون آخرون .

التطور الثاني ـ هو الآلات . ان الصلة بين تقسيم العمل والآلات عند السيد برودون خفية تماماً فكل شكل من اشكال تقسيم العمل كانت تناسبه ادوات انتاج خاصة به . فمنذ منتصف القرن

السابع عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر ، مثلا ، لم يكن الناس يصنعون كل شيء بايديهم كانت عندهم ادوات ، بله ادوات معقدة جداً ، كالآلات ــ الادوات والسفن والامخال ، وهكذا دواليك وهلمجراً .

وعليه من السخف اطلاقاً ان نعتبر ظهور الآلات نتيجة لتقسيم العمل بوجه عام .

والاحظ عرضاً ان السيد برودون قلّما فهم تاريخ تطـــور الآلات وكذلك تاريخ منشئها . يمكن القول ان مقتضيات الاستهلاك قد ازدادت على العموم قبل عام ١٨٢٥ ــ اي قبل عهد الازمـــة العامة الاولى ــ باسرع مما ازداد الانتاج ، وان تطور الآلات كان نتيجة محتمة لحاجات السوق . ومنذ عام ١٨٢٥ لم يكن اختراع الآلات واستعمالها الا نتيجة للحرب بين ارباب العمل والعمال ولكن هذا القول لا يصح الا على انجلترا اما الامم الاوروبية ، فان مزاحمـــة انجلترا ، سواء في سوقهـــا بالذات ام في السوق العالمية ، هي التي اجبرتها على استعمال الآلات . واخيراً ، بـــدأ استعمال الآلات في اميركا الشمالية سواء من جرّاء المزاحمة مع الشعوب الاخرى ام من جرّاء نقص الايدي العاملة اي من جرّاء عدم التطابق بين الحاجات الصناعية في اميركا الشماليـــة وبين سكانها . ومن هذه الوقائع بوسعك ان تستخلص وتعرف اي حدة ذهن يبديها السيد برودون عندما استحضر شبح المزاحمة بوصفه التطور الثالث ، بوصفه نقيض الآلة !

واخيراً ، من غير المعقول عموما تحويل **الآلات** الى مقولة اقتصادية الى جانب تقسيم العمل ، والمزاحمة ، والتسليف ، الخ

ان الآلة ، شانها شان الثور الذي يجر المحـــراث ، قلّمـــا تكون مقولة اقتصادية . فان استعمال الآلات في الوقت الحاضر هو

احدى علاقات نظامنا الاقتصادي المعاصر ، ولكن اسلوب استثمار الآلات ليس ابداً الآلات ذاتها فالبارود يبقى بارودا سواء استعمل لاجل اصابة رجل بجراح ، ام لأجل علاج جراح الرجل نفسه

ان السيد برودون يتجاوز نفسه بنفسه حين يخلق في رأسه المزاحمة والاحتكار والضريبة او البوليس والميزان التجاري والتسليف والملكية في الترتيب الذي اوردتها به الآن فان مؤسسات التسليف جميعها تقريباً قد تطورت في بريطانيا في مستهل القرن الثامن عشر ، اي قبل اختراع الآلات ان تسليف الدولة لم يكن غير اسلوب جديد لزيادة الضرائب وتلبية الحاجات الجديدة الناجمة عن وصول طبقة البرجوازية الى الحكم

واخيراً تشكل **الملكية** المقولة الاخيرة في منهج السيد برودون . اما في العالم الفعلي ، فالامر بالعكس ؛ فان تقسيم العمل وجميع مقولات السيد برودون الاخرى هي عبارة عن علاقات اجتماعية تشكل بمجموعها ما يسمونه في الوقت الحاضر **بالملكية** ؛ وخارج هذه العلاقات ، ليست الملكية البرجوازية غير وهم ميتافيزيائي وحقوقي . فان ملكية عصر آخر ، الملكية الاقطاعية ، تتطور في ظل علاقات اجتماعية مختلفة تماماً . وان السيد برودون ، اذ يصف الملكية بانها علاقة مستقلة ، يقترف ما هو اسوأ من غلطة منهاجية ؛ فهو يبيّن عدم فهمه لتلك الصلة التي تربط بين جميع اشكال الانتاج **البرجوازي** ؛ وهو يبين عدم فهمه **للطابع التاريخي والعابر** لاشكال الانتاج في عصر معين . وبما ان السيد برودون لا يرى ان مؤسساتنا الاجتماعية هي نتاج التطور التاريخي ولا يفهم لا منشاها ولا تطورها ، فلا يسعه ان يسلط عليها غير نقد عقائدي جامد .

ولتفسير التطور ، يضطر السيد برودون للجوء الى الوهم فهو يتصور ان تقسيم العمل ، والتسليف ، والآلات ، والخ . . ـ ان كل هذا قد أُخترع من اجل خدمة فكرته الثابتة ، فكرة المساواة وتفسيره ساذج للغاية . فان كل هذه الاشياء قد ابتكرت من اجل المساواة ، ولكنها ، مع الأسف ، انقلبت على المساواة وفي هذا تتلخص كل محاكمته ، اي انه ياخذ فرضية اعتباطية ؛ ولكن لما كان التطور الفعلي يناقض وهمه لدى كل خطوة ، فهو يستنتج من هذا انه يوجد تناقض بيد انه يخفي ان هذا التناقض لا يوجد الا بين افكاره الثابتة والحركة الفعلية

وهكذا لم يفهم السيد برودون ، ـ وذلك في المقام الاول لعدم وجود معارف تاريخية عنده ـ ان الناس ، اذ يطورون قواهم المنتجة ، اي اذ يعيشون ، يطورون علاقات معينة بعضهم مع بعض ، وان طابع هذه العلاقات يتغير حتما مع تحول ونمو هذه القوى المنتجة . ولم يفهم ان المقولات الاقتصادية ليست غير تجريدات لهذه العلاقات الفعلية وليست عبارة عن حقائق الا ما دامت هذه العلاقات موجودة . وعليه يقع في خطأ الاقتصاديين البرجوازيين الذين يرون في هذه المقولات الاقتصادية قوانين ابدية ، لا قوانين تاريخية ، ـ اي قوانين لا يسري مفعولها الا في مرحلة معينة من التطور التاريخي ، في مرحلة معينة من تطور القوى المنتجة . وبدلا من ان يعتبر السيد برودون ، بالتالي ، المقولات الاقتصادية السياسية تجريدات للعلاقات الاجتماعية التاريخية العابرة ، الفعلية ، يشوه المسالة بصورة صوفية ، ويرى في العلاقات الفعلية مجرد تجسيد لهذه التجريدات . وما هذه التجريدات الا صيغ كانت نائمة في حضن الاله الوالد منذ خلق العالم بالذات .

وهنا يبدأ عند صاحبنا الطيب السيد برودون مخاض فكري عسير . فاذا كانت جميع هذه المقولات الاقتصادية فيض من قلب الاله ، واذا كانت تشكل حياة الناس المخفية والابديـــة ، فكيف امكن بالتالي ، اولا ، انه يوجد تطور ، وثانياً ، ان السيد برودون ليس محافظاً ؟ وهذه التناقضات البيّنة يفسرها بنظـام كامل من التناحرات .

ولنلقي النور على نظام التناحرات هذا ، ناخذ مثلا

الاحتكار صالح ، لأنه مقولة اقتصادية ولأنه بالتـــالي فيض من الاله . والمزاحمة صالحة لأنها هي ايضا مقولة اقتصاديـــة اما ما هو طالح ، فهو واقع الاحتكار وواقع المزاحمة . ومـــا هو اسوأ ، هو ان الاحتكار والمزاحمة يلتهمان احدهما الآخر فمـــا العمل ؟ بما ان هاتين الفكرتين البرمديتين مـن افكار الالـــه تتناقضان ، فانه يبدو للسيد برودون من الجلي انه يوجد كذلك في حضن الاله مركّب من هاتين الفكرتين توازن فيه المزاحمة شر الاحتكار ، و vice versa * . اما عالبة الصراع بين هاتين الفكرتين ، فانها ستكون ظهور جانبهما الصالح فقط فينبغـي انتزاع هذه الفكرة السرية من الاله ، ثم تطبيقها ، فيغدو كل شيء بديعـا ، رائعا . ينبغي ايجاد الصيغة المركبة المخفية في ظلمة عقل البشرية اللامشخّص ودون التردد دقيقة واحدة ينبري السيـد برودون بوصفه الشخص الذي يفض هذا السر .

ولكن لنلق نظرة خاطفة الى الحياة الفعلية فانت لا تجد في الحياة الاقتصادية المعاصرة المزاحمة والاحتكار وحسب ، بل تجد كذلك جميعتهما ، وهذه الجميعة ليست صيغة بل حركة . فالاحتكار

---

* ــ والعكس بالعكس . الناشر .

يولد المزاحمة ، والمزاحمة تولد الاحتكار . ولكن هذه المعادلة لا تقضي على مصاعب الوضع الراهن ، كما يتصور الاقتصاديون البرجوازيون ، بل تخلق في النتيجة وضعاً اشد عسراً واكثر غموضاً وتشوشاً . وهكذا بتغييرك الاساس الذي ترتكز عليه العلاقات الاقتصادية العصرية ، وبقضائك على اسلوب الانتاج العصري ، لا تقضي على المزاحمة والاحتكار وتناحرهما وحسب ، بل تقضي ايضاً على وحدتهما ، على جميعتهما ـ اي على الحركة التي يجري فيها بالذات التوازن الفعلي بين المزاحمة والاحتكار .

والآن اقدم لك نموذجاً من ديالكتيك السيد برودون .

الحرية والعبودية تشكلان تناحراً . ولا داعي لي الى الكلام لا عن جوانب الحرية الصالحة ولا عن جوانبها الطالحة . اما العبودية ، فلا حاجة الى الكلام عن جوانبها الطالحة والشيء الوحيد الذي ينبغي توضيحه ، هو الجانب الصالح من العبودية . والمقصود هنا ليس العبودية غير المباشرة ، ليس عبودية البروليتاريا . المقصود هنا العبودية المباشرة ، عبودية الزنوج في سورينام والبرازيل وفي المناطق الجنوبية من اميركا الشمالية .

ان العبودية المباشرة هي اساس صناعتنا العصرية ، شانها شان الآلات والتسليف ، الخ . . فلا قطن بدون العبودية ، ولا صناعة عصرية بدون القطن . والعبودية جعلت للمستعمرات قيمة ، والمستعمرات خلقت التجارة العالمية ، والتجارة العالمية هي الشرط الضروري للصناعة الآلية الكبيرة . وقبل اقامة التجارة بالزنوج ، كانت المستعمرات تعطي العالم القديم قدراً قليلا جداً من المنتوجات ، ولم تغير وجه العالم تغييراً ملحوظاً نوعاً . وهكذا تكون العبودية مقولة اقتصادية هائلة الشان فلولا العبودية ، لكانت تحولت اميركا الشمالية ، البلد الاكثر تقدماً ، الى بلد بطريركي امحوا اميركا الشمالية وحدها من خريطة العالم ، تحصلوا على

الفوضى وتدهور التجارة والحضارة العصرية تدهوراً تاماً ولكن القضاء على العبودية من شانه ان يعني في هذه الحال ان اميركا تنمحي من خريطة العالم . وهكذا نجد العبودية عند جميع الشعوب منذ خلق العالم ، وذلك على وجه الضبط لكونها مقولة اقتصادية . وكل ما استطاعته الشعوب العصرية ، هو تمويه العبودية عندها بالذات وتطبيقها على المكشوف في العالم الجديد فما عسى ان يفعل السيد برودون الفائق الطيبة بعد هذه الآراء في العبودية ؟ انه سيفتش عن جميعة للحرية والعبودية ، عن وسط ذهبي حقيقي ، اي ، بتعبير آخر ، عن التوازن بين العبودية والحرية .

ان السيد برودون يعرف جيداً جداً ان الناس ينتجون الجوخ والجنفاص والقماش الحريري ، وليست تلك بمائرة كبيرة ان يفهم المرء مثل هذه القلة من الامور ! ولكن ما لم يفهمه السيد برودون ، هو ان الناس ينتجون وفقاً لقواهم المنتجة **علاقات اجتماعية** ينتجون في ظلها الجوخ والجنفاص . وفهم السيد برودون فهماً اقل ان الناس ، اذ ينتجون العلاقات الاجتماعية وفقاً لانتاجهم المادي ، يخلقون كذلك **افكاراً ومقولات** ، اي تعابير مجردة ، فكرية عن هذه العلاقات الاجتماعية ذاتها . وهكذا قلّما تكون المقولات ابدية ، شانها في هذا شان العلاقات التي هي تعبير عنها فالمقولات منتوجات تاريخية وعابرة اما السيد برودون ، فالامر بالعكس تماماً في نظره ؛ فان التجريدات ، المقولات هي السبب الاولي وهو يرى انها هي التي تصنع التاريخ ، لا البشر ان **التجريد ، المقولة مأخوذاً بصفته هذه** ، اي بمعزل عن البشر ونشاطهم المادي ، هو ، بالطبع ، خالد ، ثابت لا يتغير ولا يتحرك . وهو لا يعدو ان يكون وليد العقل الصافي ، وهذا يعني بكل بساطة ان التجريد بوصفه تجريداً هو مجرد . فيا **للتكرار** البديع !

وعليه ، ان العلاقات الاقتصادية مدروسة بشكل مقولات ، هي بنظر السيد برودون ، صيغ سرمدية لا منشأ لها ولا تطور .

وبتعبير آخر نقول ان السيد برودون لا يؤكد مباشرة ان الحياة البرجوازية هي بنظره حقيقة سرمدية ، بل يؤكد هذا بصورة غير مباشرة ، بتأليهه المقولات التي تعبر بشكل الافكار عن العلاقات البرجوازية . وبما ان منتوجات المجتمع البرجوازي تبدو له بالاحرى بشكل مقولات وافكار ، فهو يعتبرها كائنات سرمدية انبثقت من تلقاء ذاتها ، وتملك حياة خالدة فهو اذن لا يتخطى حدود الافق البرجوازي وبما انه يتناول افكاراً برجوازية ، ويعتبرها حقائق سرمدية ، فانه يفتش عن جميعة لهذه الافكار ، عن توازن لها ، ولا يرى ان الاسلوب العصري لتوازنها هو الاسلوب الوحيد الممكن .

وهو من حيث جوهر الامر يفعل ما يفعله جميع البرجوازيين الطيبين . فانهم جميعهم يقولون لكم ان المزاحمة والاحتكار ، الخ . ، هي من حيث المبدأ ، اي اذا أُخذت كمفاهيم مجردة ، الاسس الوحيدة للحياة ، ولكنها تحمل في الواقع على تمني الكثير وجميعهم يريدون المزاحمة بدون عواقبها الوخيمة . وجميعهم يريدون المستحيل ، اي ظروف الحياة البرجوازية بدون العواقب الضرورية الناجمة عن هذه الظروف . وجميعهم لا يدركون ان اسلوب الانتاج البرجوازي هو شكل تاريخي وعابر مثلما كان الشكل الاقطاعي تاريخياً وعابراً ان هذا الخطأ ينبع من ان الانسان ــ البرجوازي هو بنظرهم الاساس الوحيد للمجتمع ، كل مجتمع ، من انهم لا يتصورون نظاماً اجتماعياً لا يكون فيه هذا الانسان برجوازيا .

ولهذا كان السيد برودون ، بلا مناص ، **عقائديا جامداً** . فان الحركة التاريخية التي تحدث انقلاباً في العالم المعاصر ، تتلخص بنظره في مهمة اكتشاف التوازن الحقيقي بين فكرتين برجوازيتين ، اكتشاف جميعة هاتين الفكرتين وهكذا يكتشف هذا الفتى الفطن بالحيلة فكرة الاله السرية ، ووحدة فكرتين منفصلتين ليستا منفصلتين الا لأن السيد برودون يفصلهما عن الحياة العملية ، عن الانتاج المعاصر ، الذي هو جمع للوقائع التي تعبر عنها هاتان الفكرتان وعوضاً عن الحركة التاريخية العظيمة التي تولد من النزاع بين القوى المنتجة التي اكتسبها الناس وبين علاقاتهم الاجتماعية التي لم تعد تتطابق مع هذه القوى المنتجة ؛ وعوضاً عن الحروب الرهيبة التي تهيأ بين مختلف الطبقات في امة واحدة وكذلك بين مختلف الامم ؛ وعوضاً عن نشاط الجماهير العملي والثوري الذي سيتمكن وحده دون غيره من فض هذه الاصطدامات ، ــ عوضاً عن هذه الحركة الرحبة والمديدة والمعقدة ، يقدم السيد برودون حركة بدائية [mouvement cacadauphin] تجـــري في رأسه . وهكذا فالتاريخ يصنعه علماء ، اناس بوسعهم ان يختطفوا من الالـــه فكرته الحميمة . اما الشعب البسيط ، فينبغي عليه فقط ان يطبق كشفهم في الواقع .

وانك لتفهم الآن لماذا كان السيد برودون عدواً لدوداً لكل حركة سياسية . فان حل القضايا المعاصرة يتلخص ، بنظره ، لا في العمل الاجتماعي ، بل في الدورات الديالكتيكية الجارية في رأسه . وبما ان المقولات هي ، بنظره ، القوى المحركة ، فلا داعي الى تغيير الحياة العملية من اجل تغيير المقولات . فالامـــر بـــالعكس تماماً . يجب تغيير المقولات ، ونتيجة لهذا يتغير المجتمع القائم .

ورغبة في التوفيق بين التناقضات ، يتجنب السيد برودون تماماً السؤال التالي : ألا ينبغي نسف هذه التناقضات من الاساس

بالذات ؟ وهو يشبه في كل شيء عقائدياً جامداً سياسياً يرغب في الحفاظ في آن واحد على الملك ومجلس النواب ومجلس الشيوخ كاجزاء لا تتجزأ من الحياة الاجتماعية ، كمقولات سرمدية . وهو لا يفعل غير ان يفتش عن صيغة جديدة لكي يوازن بين هاتين القوتين اللتين يقوم توازنهما على وجه الضبط في الحركة المعاصرة حيث تكون احدى هاتين القوتين تارة هي الظافرة وطوراً عبدة للاخرى . ففي القرن الثامن عشر ، مثلا ، حاولت كثرة من الرؤوس المتوسطة الذكاء ان تجد صيغة صحيحة لكي توازن بين الفئات الاجتماعية والنبلاء والملك والبرلمانات ، الخ . ، واذا بها تستفيق في اليوم التالي فلا تجد لا الملك ولا البرلمانات ولا النبلاء لقد كان الاسلوب الصحيح لتوازن هذا التناحر نسف جميع العلاقات الاجتماعية التي كانت اساس هذه المؤسسات الاقطاعية واساس التناحر بين هذه المؤسسات الاقطاعية .

وبما ان السيد برودون يضع في جانب الافكار السرمدية ، مقولات العقل الخالص ، وفي جانب آخر الناس وحياتهم العملية التي هي ، بنظره ، تطبيق لهذه المقولات ، فانك تجد عنده بادئ ذي بدء **الاثنينية** بين الحياة والافكار ، بين الروح والجسد ، ــ وهي اثنينية تتكرر في اشكال مختلفة . وانك لترى الآن ان هذا التناحر لا يعدو ان يكون مجرد عجز السيد برودون عن فهم اصل المقولات التي يؤلهها وعن فهم تاريخها العادي .

لقد استطالت رسالتي اكثر من اللزوم ، ولذا لم يبق بامكاني ان اتناول حملات السيد برودون المضحكة على الشيوعية . ولكنك توافق معي على ان المرء الذي لم يفهم وضع المجتمع في الظرف الراهن أعجز ايضاً عن فهم الحركة التي تسعى الى تدمير هذا المجتمع وعن فهم التعابير الادبية لهذه الحركة الثورية .

ان **النقطة الوحيدة** التي اتفق فيها كليا مع السيد برودون ، هي اشمئزازه من العاطفية الاشتراكية . فقبله استثرت ضدي عداوة كبيرة بسخري من الاشتراكية البليدة ، العاطفية ، الطوبوية . ولكن ألا يخلق السيد برودون نفسه لنفسه اوهاما غريبة حين يعارض بعاطفيته كبرجوازي صغير ، ــ واقصد بياناته بصدد العائلة والحب الزوجي وجميع ابتذالاته ، ــ العاطفية الاشتراكية التي هي ، عند فوريه مثلا ، اعمق بكثير من غثاثات صاحبنا الطيب برودون الدعية ؟ وهو نفسه يشعر بتفاهة حججه وبعجزه التام عن الكلام عن جميع هذه الاشياء ، ويشعر بهما جيداً جداً الى حد انه ينسى نفسه فجأة ويتملكه الغيظ ، وفي irae hominis probi • يشرع يزعق ويرغي ويزبد ويشتم ، ويفضح ، ويتهم ، ويلعن ويضرب صدره ويتبجح امام الرب والبشر انه نقي من الرذائل الاشتراكية ! انه لا ينتقد العاطفية الاشتراكية او ما يعتبره عاطفية . وهو ، مثل القديس ، مثل البابا ، يلقي الحرم على الخطاة المساكين ويمجد البرجوازية الصغيرة واوهام الموقد البيتي الغرامية والبطريركية الحقيرة . وهذا ليس من قبيل الصدفة فان السيد برودون من رأسه الى اخمص قدميه فيلسوف واقتصادي البرجوازية الصغيرة **والبرجوازي الصغير** في مجتمع متطور يصبح ، بحكم وضعه بالذات ، من جهة اشتراكياً ، ومن جهة اخرى اقتصادياً ، اي ان أبهة البرجوازية الكبيرة تبهره ، وانه يعطف على آلام الشعب . وهو في آن واحد البرجوازي والشعب معاً . وهو يعتز في اعماق نفسه بانه غير متحيز وبانه وجد التوازن الصحيح الذي يدعي بالتميز عن الوسط الذهبي ومثل هذا البرجوازي الصغير يؤله **التناقض** لأن التناقض

• ــ الغيظ النبيل . الناشر .

هو اساس جوهره . وهو نفسه لا يعدو ان يكون تجسيداً للتناقض الاجتماعي . ويجب عليه ان يبرر في النظرية ما هو عليه في الواقع العملي ، ومائرة السيد برودون انه المعبر العلمي عن البرجوازية الصغيرة الفرنسية ؛ وانها لمائرة فعلية لأن البرجوازية الصغيرة هي جزء لا يتجزأ من جميع الثورات الاجتماعية المقبلة .

واني اود لو تسنح لي الفرصة لأرسل لك مع هذه الرسالة كتابي عن الاقتصاد السياسي (٥٥) ، ولكني لم افلح حتى الآن لا في طبع هذا العمل ، ولا في طبع نقدي للفلاسفة والاشتراكيين الالمان • الذي حدثتك عنه في بروكسل . وليس بوسعك ان تتصور اي مصاعب يصطدم بها هذا الطبع في المانيا ، اولا من قبل البوليس ، وثانيا من قبل الناشرين الذين هم انفسهم ممثلون ذوو مصلحة لجميع التيارات التي احمل عليها . اما فيما يخص حزبنا ، فهو ليس فقيراً وحسب ، بل ان قسما كبيراً من اعضاء الحزب الشيوعي الالماني غاضبون عليّ فضلا عن ذلك لأني اعارض طوبولياتهم وبياناتهم الطنانة . . .

صدرت للمرة الاولى بلغتها الاصلية في كتاب : «م . م . ستاسوليفتش ومعاصروه في مراسلاتهم» المجلد ٣ ، سانت بطرسبورغ ، ١٩١٢

تصدر حسب نص الكتاب تمت الترجمة نقلا عن الفرنسية

• كارل ماركس وفريدريك انجلس . «الايديولوجية الالمانية» . الناشر .

من ماركس الى يوسف فيديماير

في نيويورك

لندن في ٥ آذار (مارس) ١٨٥٢

... وفيما يخصني ، ليس لي لا فضل اكتشاف وجود الطبقات في المجتمع المعاصر ولا فضل اكتشاف النضال فيما بينها . فقد سبقني بوقت طويل مؤرخون برجوازيون بسطوا التطور التاريخي لهذا النضال بين الطبقات ، واقتصاديون برجوازيون بسطوا تركيب الطبقات الاقتصادي . وان الجديد الذي اعطيته يتلخص في اقامة البرهان على ما ياتي : ١ ــ ان **وجود الطبقات** لا يقترن الا **بمراحل تاريخية معينة من تطور الانتاج** ، ٢ ــ ان النضال الطبقي يفضي بالضرورة الى **ديكتاتورية البروليتاريا** ، ٣ ــ ان هذه الديكتاتورية نفسها لا تعني غير الانتقال الى **القضاء على كل الطبقات** والى **المجتمع الخالي من الطبقات** ...

صدرت بنصها الكامل للمرة الاولى في مجلة «Jungsozialistische Blätter» ١٩٣٠.

تصدر حسب المخطوطة .
تمت الترجمة نقلا عن الالمانية

من ماركس الى لودفيغ كوغلمان

في هانوفر

لندن في ١٢ نيسان (ابريل) ١٨٧١

امس تلقينا نبأ لا يطمئن مفاده ان لافارغ (لا لورا) موجود في الوقت الحاضر في باريس .

واذا القيت نظرة الى الفصل الاخير من كتابي «الثامن عشر من برومير» • رأيت اني اعلنت ان المحاولة التالية التي ستقوم بها الثورة الفرنسية ينبغي ان تتلخص فيما يلي لا ينبغي نقل الآلة البيروقراطية العسكرية من يد الى يد ، كما حدث حتى الآن ، بل ينبغي **تحطيمها** ، وهذا هو على وجه التحقيق الشرط المسبق لكل ثورة شعبية فعلية في القارة . وفي هذا بالذات تقوم محاولة رفاقنا الباريسيين البواسل اية مرونة ، اية مبادرة تاريخية ، اية مقدرة على التضحية بالنفس عند هؤلاء الباريسيين ! فبعد مجاعة دامت ستة اشهر وبعد خراب تسببت به الخيانة الداخلية اكثر بكثير مما تسبب به العدو الخارجي ، ينتفضون تحت الحراب البروسية ، كانما لم تدر رحى الحرب بين فرنسا والمانيا ، وكان العدو لم يكن واقفا على ابواب باريس ! ان التاريخ لا يعرف بعد مثالا على البطولة كهذا المثال ! واذا ما غُلبوا على امرهم ، فلن يكون الذنب في ذلك غير «شهامتهم» . فقد كان ينبغي الزحف فوراً على فرساي ، ما ان فر فينوا ، وفي اثره القسم الرجعي من الحرس الوطني الباريسي ، من باريس . لقد فُوّتت الفرصة بسبب الضمير الحي . فلم يريدوا **البدء بالحرب الاهلية** كان القزم المسيخ تيير لم يكن قد بدأ بالحرب الاهلية بمحاولته نزع سلاح باريس ! الخطأ الثاني : ان اللجنة المركزية (٥٦) قد تنازلت عن صلاحياتها عاجلا جداً لكي تخلي المكان للكومونة . ومن جديد بفضل «الاستقامة» المدفوعة الى حد القلق المفرط ! ومهما يكن من امر ، فان الانتفاضة الباريسية الحالية ، حتى ولو قضى عليها ذئاب المجتمع القديم وخنازيره وكلابه السافلة ، هي امجد مأثرة قام بها

• راجع هذه الطبعة ، الجزء الاول ، ص ص ٢٧٧–٢٩٩ . الناشر .

حزبنا منذ انتفاضـــة حزيران (يونيو) في باريس فليقارنوا بهؤلاء الباريسيين المستعدين لمهاجمة السماء عبيد الامبراطورية الرومانية المقدسة الالمانية البروسية بمساخرها من قبل الطوفان التي تفوح منها رائحة الثكنات والكنيسة واليونكر ، وتفوح منها ، اشد ما تفوح ، رائحة التفاهة وضيق الافق .

وللمناسبة وردت في **الطبعة الرسمية** لوثائق المعونـــات المالية المقدمة مباشرة من خزينة لويس بونابرت اشارة الى ان **فوغت** قبض في آب (اغسطس) ١٨٥٩ مبلغ ٤٠٠٠٠ فرنك ! وقد ابلغت ليبكنخت هذا الامر لكي يستفيد منه في المستقبل .

بوسعك ان ترسل الىّ هاكستهاوزن (٥٧) ، لأني اتلقـــى في **الآونة الاخيرة** بدون ضياع مختلف الكراريس وما شاكلها ، لا من المانيا وحسب ، بل حتى من بطرسبورغ ايضاً .

شكراً على ارسال مختلف الجرائد (ارجو ارســـال المزيد منها ، لأني اريد ان اكتب شيئاً ما عن المانيا والريخستاغ وما الى ذلك) .

صدرت للمرة الاولى مع اختصارات في مجلة «Die Neue Zeit» ، المجلد الاول ، العدد ٢٣ . شتوتغارت ، ١٩٠١ـ١٩٠٢ . صدرت بنصها الكامل باللغة الروسية في كتاب «رسائل ماركس الى كوغلمان» ، عام ١٩٢٨

تصدر حسب المخطوطة تمت الترجمة نقلا عن الالمانية

من ماركس الى لودفيغ كوغلمان

في هانوفر

[لندن] في ١٧ نيسان (ابريل) ١٨٧١

تلقيت رسالتك انا في الوقت الحاضر مشغول لما فوق رأسي . لهذا بضع كلمات فقط . فانا لا افهم البتة كيف يمكنك ان تشبه مظاهرات البرجوازيين الصغار la à ١٣ حزيران (يونيو) عام ١٨٤٩ (٥٨) وخلافها بالنضال الحالي في باريس

قد يكون من السهل جداً ، بالطبع ، صنع تاريخ العالم لو كان النضال لا يقوم الا ضمن ظروف تؤدي حتماً الى النجاح . ومن جهة اخرى ، قد يتسم التاريخ بطابع صوفي جداً لو كانت «الصدف» لا تضطلع باي دور . فان هذه الصدف تدخل هي ذاتها ، بالطبع ، كجزء لا يتجزأ ، في المجرى العام للتطور وتوازنها صدف اخرى . ولكن التسارع والتباطؤ رهن بمقدار كبير بهذه «الصدف» التي ترد بينها ايضاً «صدفة» مثل طبع الناس الذين يقفون في البدء على راس الحركة .

وهذه المرة لا يجب البحث باي حال من الاحوال عن «الصدفة» الحاسمة غير الملائمة في ظروف المجتمع الفرنسي العامة ، بل يجب البحث عنها في وجود البروسيين في فرنسا ، في وقوفهم على ابواب باريس بالذات . وهذا ما كان الباريسيون يعرفونه جيداً جداً . وهذا ما كان يعرفه ايضاً الاوباش الفرساليون البرجوازيون . ولهذا وضعوا امام الباريسيين حلين لا ثالث لهما اما قبول التحدي الى النضال ، واما الاستسلام بلا نضال . ولو تحقق الحل الثاني ، لكان تفسخ معنويات الطبقة العاملة كارثة اعظم

بكثير من خسارة اي عدد كان من «الزعماء» . وبفضل كومونة باريس ، دخل نضال الطبقة العاملة ضد طبقة الرأسماليين ودولتها في مرحلة جديدة . وايا يكن مآل القضية المباشر هذه المرة ، فقد تم الظفر مع ذلك بنقطة انطلاق جديدة ذات اهمية تاريخية عالمية .

صدرت للمرة الاولى مع اختصارات في مجلة «Die Neue Zeit» المجلد الاول ، العدد ٢٣ . شتوتغارت ، ١٩٠١ـ١٩٠٢

تصدر حسب المخطوطة

تمت الترجمة نقلا عن الالمانية

صدرت بنصها الكامل باللغة الروسية في كتاب «رسائل ماركس الى كوغلمان» ، عام ١٩٢٨

من ماركس الى فريدريك بولته

في نيويورك

[لندن] في ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧١

لقد اسست **الاممية** بغية الاستعاضة عن الشيع الاشتراكية ونصف الاشتراكية بمنظمة حقيقية للطبقة العاملة من اجل النضال وان النظام الداخلي الاولي • والبيان التاسيسي •• يشيران فوراً الى هذا . ومن جهة اخرى ، ما كان في وسع الاممية ان تترسخ ، لو لم يكن مجرى التاريخ قد حطم التشيع ان تطور

• كارل ماركس . «النظام الداخلي المؤقت للجمعية» الناشر .

•• كارل ماركس . «البيان التاسيسي لجمعية الشغيلة العالمية» . الناشر .

التشيع الاشتراكي وتطور الحركة العمالية الحقيقية هما مناقضان دائما احدهما للآخر . وليس للشيع مبرر (تاريخي) الا طالما لم تنضج الطبقة العاملة لأجل التحرك التاريخي المستقل . ومـــا ان تبلغ حد النضج هذا حتى تمسي جميع الشيع رجعية من حيث جوهر الامر . وفضلا عن ذلك ، تكرر في تاريخ الاممية نفس ما يتكشف دائما في التاريخ . فان ما شاخ يحاول ان يتجدد ويترسخ في اطار الاشكال المنبثقة حديثا .

ان تاريخ الاممية كان ايضا عبارة عن **نضال مستمر خاضه المجلس العام** ضد الشيـــع وضد محاولات الهواية المبتذلة التي سعت الى التوطد داخل الاممية ذاتها خلافا للحركة الحقيقية للطبقة العاملة . وقد جرى هذا النضال في **المؤتمرات** ، كما جرى بمقدار اكبر عن طريق المفاوضات غير العلنية بين المجلس العام ومختلف المحافل .

وبمـــا ان البرودونيين (الموتوليتيين) (٥٩)) كانوا في باريس في عداد مؤسسي الجمعيـــة ، فمن الطبيعي ان يكونوا قد وقفوا هناك في السنوات الاولى على راس الحركة . وفيمـــا بعد ، تشكلت مقابلها ، هناك ايضا ، بالطبـع ، فرق جماعية ووضعية وغيرها من الفرق .

في المانيا ــ زمرة اللاساليين . وانا نفسي تراسلت في غضون سنتين مع شفيتسر الدائم الصيت ، وبرهنت له بما لا يقبل الجدل ان المنظمة اللاسالية منظمة متشيعة صرف ، وانها ، بصفتها هذه ، معادية لتنظيم الحركة العمالية **الحقيقية** الذي تسعى الاممية وراءه . ولكن كان له «مبرره» لكي لا يفهم هذا .

في اواخر ١٨٦٨ ، انتسب الروسي باكونين الى **الاممية** لكي ينشئ في قلبها ، **تحت قيادته بالذات ، اممية ثانية** اسمها **«حلف**

الديموقراطية الاشتراكية» (٦٠) . وقد ادعى ، وهو الذي لا يملك اي معارف نظرية ، بان يكون في هذه المنظمة الخاصة ممثل الدعاية **العلمية** للاممية ويجعل من هذه الدعاية اختصاصا تختص به هذه **الاممية** الثانية **داخل الاممية** .

كان برنامجه عبـــارة عن خليط من الافكار الماخوذة بصورة سطحية من هنا وهناك ــ **المساواة بين الطبقات** (!) ، **الغاء حق الوراثة** بوصفه **نقطة انطلاق** الحركة الاجتماعية (نفايات ســـان سيمونية) ، **الالحاد** المفروض على اعضاء الاممية بوصفه **عقيدة** ، الخ . ؛ اما العقيدة الرئيسية (**على النمط البرودوني**) فهي **الامتناع عن الاشتراك في الحركة السياسية** .

ان حكايات الاطفال هذه قد لقيت قبولا وديا (ولا تزال تلقاه الآن بدرجة معينة) في ايطاليا واسبانيا حيث المقدمات الفعلية للحركة العماليـــة قلّمـــا تطورت حتى الآن ، وكذلك بين بعض العقائديين الفارغين ، المدعين ، المغرورين ، في سويسرا الرومانية وفي بلجيكا .

ان السيد باكونين كان ولا يزال يرى في مذهبه (وهو هراء يتالف من مقاطع منتزعة من مؤلفات برودون وســـان سيمون وغيرهما) قضية من المرتبة الثانية ، مجرد وسيلة لأجل تعظيمه بالذات . ولكن اذا كان في الحقل النظري صفراً ، فهو في حقل التآمر من اربابه .

فقد اضطر المجلس العام طوال سنوات الى النضال ضد هذا التآمر (الذي حظي ، لدرجة معينة ، بتاييد البرودونيين الفرنسيين ولا سيما في **فرنسا الجنوبية**) واخيراً سدد بقرارات الاجتماع الموسع ــ القرارات الاول والثاني والثالث والتاسع والسادس عشر والسابع عشر ــ ضربة هيأها من زمان (٦١) .

وغني عن البيان ان المجلس العام لن يدعم في اميركا ما يناضل ضده في اوروبا . فان القرارات الاول والثاني والثالث والتاسع تعطي الآن لجنة نيويورك سلاحا شرعيا لأحل وضع حد لكل تشيع ولكل فرق الهواية المبتذلة ، ولأجل طردها عند الاقتضاء . . .

وبديهي ان للحركة السياسية للطبقة العاملة هدفها النهائي ، وهو الظفر بالسلطة السياسية في صالحها ؛ ولهذا الغرض ، لا بدّ بالطبع من تنظيم تحضيري للطبقة العاملة يبلغ درجة معينة من التطور ، وينبثق ويتنامى من النضال الاقتصادي نفسه .

اما من الجهة الاخرى ، فان كل حركة تضاد فيها الطبقة العاملة ، بوصفها طبقة ، الطبقات السائدة ، وتجهد للتغلب عليها بالضغط من الخارج ، انما هي حركة سياسية . فان السعي ، مثلا ، بواسطة الاضرابات وخلافها ، الى اكراه بعض الرأسماليين في مصنع من المصانع او حتى في فرع من فروع الصناعة الى تقصير وقت العمل ، انما هو حركة اقتصادية صرف اما الحركة التي تستهدف الاجبار على اصدار قانون بيوم العمل من ثماني ساعات ، والخ . ، فهي حركة سياسية . وهكذا تنشأ في كل مكان ، من حركات العمال الاقتصادية المتفرقة حركة سياسية اي حركة طبقة تسعى وراء تحقيق مصالحها في شكل عام مشترك ، اي في شكل يتسم بقوة القانون بالنسبة للمجتمع كله . واذا كانت هذه الحركات تفترض بعض التنظيم التحضيري ، فانها من جهتها ، وبالقدر نفسه ، وسيلة لتطوير هذا التنظيم .

وحيث لم تحرز الطبقة العاملة بعد ما يكفي من النجاح في تنظيمها لأجل القيام بزحف حاسم على السلطة الجماعية ، اي على السلطة السياسية للطبقات السائدة ، ينبغي في كل حال اعدادها لهذا الغرض عن طريق التحريض الدائب ضد هذه السلطة واتخاذ

موقف عدائي حيال سياسة الطبقات السائدة . والا بقيت الطبقة العاملة العوبة في ايدي الطبقات السائدة ، كما اثبتت ذلك ثورة ايلول (سبتمبر) في فرنسا ، وكما تثبته ، الى درجة معينة ، اللعبة التي يفلح حتى الآن السيد غلادستون وشركاه في لعبها في انجلترا .

صدرت للمرة الاولى مع اختصارات في كتاب «Briefe und Auszüge aus Briefen von Joh. Phil. Becker, Jos Dietzgen, Friedrich Engels, Karl Marx u A. an F.A. Sorge und Andere».
شتوتغارت ، عام ١٩٠٦

تصدر حسب المخطوطة ونص الكتاب
تمت الترجمة نقلا عن الالمانية

صدرت بنصها الكامل باللغة الروسية في المؤلفات الكاملة لكارل ماركس وفريدريك انجلس . الطبعة الاولى ، المجلد ٢٦ ، عام ١٩٣٥

من انجلس الى اوغست بيبل

في غوبرتوسبودغ

لندن في ٢٠ حزيران (يونيو) ١٨٧٢

اجيب اولا عن رسالتك لأن رسالة ليبكنخت لا تزال عند ماركس ولا يسعه ان يجدها في الحال .

ليس غوبنر على الاطلاق ، بل رسالة يورك الى غوبنر ، المكتوبة باسم اللجنة ، هي التي حملتنا هنا على التخوف من ان تستغل قيادة الحزب ـ اللاسالية حتى مخ العظام ، مع الأسف ـ

وجودك في السجن لكي تحول «Vorksstaat» (٦٢) الى ضرب من «Neuer Social-Demokrat» (٦٣) «شريفة» ان هذا القصد واضح تماماً من تصرفات يورك ؛ وبما ان اللجنة منحت نفسها حق تعيين المحررين واقالتهم ، فان الخطر كان ، بلا ريب ، كبيراً جداً . ثم ان نفي غوبنر العتيد اعطى امكانيات اوسع لأجل تحقيق هذه الخطط . وفي هذه الاحوال كان ينبغي لنا ان نعرف بكامل الدقة سير الامور ؛ ومن هنا هذه المراسلة ...

اما فيما يخص موقف الحزب من اللاسالية ، ففي وسعك ، بالطبع ، ان ترى خيراً منّا اي تاكتيك يجب تطبيقه في كل حالة بمفردها . ولكنه يجب ان يؤخذ الامر التالي ايضاً بالحسبان . عندما يترتب ، كما ترتب عليك ان تنافس الى درجة معينة اتحاد العمال الالماني العام (٦٤) ، فمن السهل ان تشرع بايلاء الخصم قدراً من الانتباه اكثر من اللزوم وان تعتاد التفكير به قبل كل شيء في اي مناسبة كانت . ولكن اتحاد العمال الالماني العام وحزب العمال الاشتراكي ـ الديموقراطي ، ماخوذين معاً ، لا يشكلان بعد غير اقلية ضئيلة من الطبقة العاملة الالمانية . اما في راينا ، الذي اكدت صحته خبرة سنوات عديدة ، فان التاكتيك الصحيح في الدعاية لا يقوم في استمالة افراد او جماعات من اعضاء منظمات الخصم ، بل يقوم في التاثير على الجماهير الواسعة التي لم تجتذب بعد الى التنظيم . فان انساناً جديداً واحداً ننتزعه بانفسنا من الحالة البدائية لأثمن من عشرة مرتدين لاساليين يحملون دائماً معهم الى الحزب عناصر من نظراتهم الخاطئة . ولو كان من الممكن كسب الجماهير وحدها بدون زعمائها المحليين ، لكان ذلك افضل . ولكنه يتعين دائماً ان ناخذ بالاضافة عدداً كبيراً جداً من امثال هؤلاء الزعماء المقيدين بتصريحاتهم العلنية السابقة ، ان لم يكن بآرائهم

السابقة ، والذين يتوجب عليهم ، مهما كلف الامر ، ان يبينوا انهم لم يتنكروا لمبادئهـــم وان حزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي يروج ، على العكس ، اللاسالية الحقيقية . وهذا بالذات ما كان في ايزيناخ (٦٥) بلية ــ ربما كان لا مناص منها في ذلك الوقت ــ ولكن هذه العناصر اضرت الحزب بكل تاكيد ، وانا لا اعرف ما يلي : لو لم تنضم هذه العناصر الى الحزب ، هل كان الآن ، في اضعف تقدير ، اقل قوة . وعلى كـل حال ، اعتبر من سوء الحظ لو تلقت هذه العناصر مدداً .

ولا يجوز لنا ان ندع الزعيق «بالاتحاد» يحيّرنا ويربكنا . فان اولئك الذين اشد ما يرفعون هذا الشعار انما هـــم بالذات المبادرون الرئيسيون الى الخلافات ؛ وانهـــم لكذلك الباكونيون الحاليون من المنطقة السويسرية من جبال جورا ، المبادرون الى جميع الانشقاقات ، والذين يزعقون ، اشد ما يزعقون ، بالاتحاد . ان انصار الاتحاد المتعصبين هؤلاء هم إمّا اناس محدودون يرغبون في خلط كل شيء في خليط غير واضح حسبه ان يترسب حتى تبرز التناقضات من جديد بشكل احدّ ، لأن جميع هذه العناصر ستظهر آنذاك في مرجـل واحد (وعندكم في المانيا مثال ممتاز بشخص السادة الذين يروجون للتوفيق بين العمال وصغار البرجوازيين) ، وإمّا اناس يرغبون عن غير وعي (ميولبرغر ، مثلا) او عن وعي في تزييف الحركة ولهذا يعمد المتشيعون المدمنون وكبـــار الغشاشين والميالين الى المشاحنة ، في اوقات معينة ، الى الزعيق بالاتحاد باشد مما يزعق الجميع . ونحن لم نر في حياتنـــا من احد منغصات وحيل اكبر من التي رأيناها من دعاة الاتحاد الصياحين .

يقينا ان كل قيادة حزبية تسعى وراء النجاح ، وهذا حسن جداً . ولكنه تطرأ ظروف لا بدّ فيهـــا من الرجولة للتضحيـــة

بالنجاح الفوري من اجل امور اهم وان حزبا ، كحزبنا على الاخص ، الذي نجاحه النهائي مضمون اطلاقا والذي نما في زمننا وامام عيوننا نمو العمالقة ، لا يحتاج البتة دائما وبلا قيد ولا شرط الى النجاح الفوري خذ ، مثلا ، الاممية (٦٦) لقد احرزت نجاحا هائلا بعد الكومونة . واذا البرجوازيون ، كانما اَصَمَتَهم العاصفة ، يعلنون انها كلية الجبروت . وظنت الاغلبية الساحقة من اعضاء الاممية ان هذا الحال سيستمر الى الابد ولكننا كنا نعرف بكل وضوح انه لا بدّ للفقاعة ان تنفقع والتصقت النفايات من كل شاكلة ونوع بالاممية وتواقح المتشيعون الموجودون في الاممية ، واساؤوا استغلالها ، أملا منهم في انه سيتاح لهم اقتراف اعظم الحماقات والسفالات . ولكننا لم نصبر على هذا . فقد كنا نعرف بكل وضوح انه لا بد للفقاعة ان تنفقع في يوم من الايام ، ولهذا بذلنا جهدنا ، لا لتاجيل الكارثة ، بل لاخراج الاممية منها نقية غير مزيفة . وقد انفقعت الفقاعة في لاهاي (٦٧) ، وانت تعرف ان اغلبية مندوبي المؤتمر قد تفرقوا وعادوا الى بيوتهم وهم في خيبة امل مريرة والحال ، ان هؤلاء الذين خاب أملهم في ان يجدوا في الاممية المثال الاعلى للتآخي الشامل والمصالحة العامة ، قد اندفعوا جميعهم تقريبا في مشاحنة اقسى من التي احتدمت في لاهاي ! والآن يدعو المشاحنون المتشيعون الى التصالح ويصيحون باننا نحن اناس مشاكسون ، ديكتاتوريون ! ولو اننا سعينا في لاهاي وراء المصالحة ، ولو اننا حلنا دون وقوع الانشقاق ، فايا كانت العواقب ؟ لو اننا فعلنا ذلك ، لكان المتشيعون ، واعني بهم الباكونينيون ، حصلوا على سنة اضافية من الوقت لكي يرتكبوا باسم الاممية قدراً من الحماقات والسفالات اكبر بكثير ؛ ولكان عمال اكثر البلدان تطوراً

اداروا ظهورهم باشمئزاز ؛ ولما كانت الفقاعة انفقعت ، بل لكانت تقلصت ببطء بفعل وخز الدبابيس ولكان تحول المؤتمر المقبل ، الذي كان ينبغي ان تنفجر فيه الازمة مع ذلك ، الى فضيحة بين اسفل اسافل الناس ، لأنه كان ضُحّي بالمبدأ في لاهاي ! ولكانت الاممية هلكت بالفعل آنذاك ، وهلكت بسبب «الوحدة» ! ــ وعوضاً عن هذا ، ابعدنا ، لما فيه شرفنا ، العناصر المتعفنة ، ــ يقول اعضاء الكومونة الذين حضروا الجلسة الاخيرة ، الحاسمة ، ان اياً من جلسات الكومونة لم تحدث في نفوسهم انطباعاً فائق العادة كالذي احدثته هذه المحاكمة بحق خونة البروليتاريا الاوروبية ، ــ وقد اتحنا لهم الفرصة في سياق عشرة اشهر للكذب والافتراء والتآمر بكل ما يملكون من القوى ؛ ولكن ماذا كان الحاصل ؟ ان هؤلاء الممثلين المزعومين للاغلبية الهائلة من الاممية يصرحون الآن هم انفسهم انهم لن يتجاسروا على حضور المؤتمر المقبل (التفاصيل في مقال ارسله في آن واحد مع هذه الرسالة من اجل فولكستآت «Volksstaat» *) . واذا ما اضطررنا الى العمل مرة اخرى ، لما سلكنا عموماً واجمالا سلوكا آخر ؛ ولكن الاخطاء التاكتيكية هي دائما بالطبع امر ممكن .

وعلى كل حال ، انا واثق بان خيرة العناصر من عداد اللاساليين ستقع من تلقاء نفسها في ايديكم مع ممر الزمن ؛ ولهذا ليس من الصواب قطف الثمرة قبل ان تنضج ، كما يريد ذلك انصار الاتحاد .

وعلى كل حال ، قال هيغل العجوز في زمنه ان الحزب يبرهن على حيويته باقدامه على الانشقاق وبقدرته على الصمود لهذا

---

* فريدريك انجلس . «في الاممية» . الناشر .

الانشقاق (٦٨) . ان حركة البروليتاريا تمر حتماً بمختلف درجات التطور ؛ وفي كل درجة يتوقف قسم من الناس ولا يمضي الى ابعد . وهذا هو السبب الوحيد الذي يوضح لنا لماذا يتحقق «تضامن البروليتاريا» في الواقع وفي كل مكان في صورة تكتلات حزبية مختلفة يخوض بعضها ضد بعض نضال حياة او موت ، مثلها مثل الشيع المسيحية في الامبراطورية الرومانية في مرحلة اقسى الملاحقات .

كذلك ينبغي ألاّ يغيب عن بالك انه اذا كان عدد المشتركين في «Neuer Social-Demokrat» ، مثلا ، اكبر منه في «Volksstaat» فمرد هذا الى ان التعصب الاعمى ملازم حتماً لكل شيعة ، وبفضل هذا التعصب الاعمى ، ــ ولا سيما حيث الشيعة جديدة (كاتحاد العمال الالماني العام في شليزفيغ-هولشتاين ، مثلا) ــ تحرز نجاحات فورية اكبر بكثير من النجاحات التي يحرزها حزب يمثل بكل بساطة الحركة الفعلية ، بدون اي اوهام شيعية ولكن التعصب الاعمى ليس طويل العمر .

انهي رسالتي ، فالبريد يوشك ان يمضي . بعجلة اكتب لك عن امر آخر : ماركس لا يستطيع ان ينصرف الى لاسال (٦٩) قبل ان تنتهي الترجمة الفرنسية (في اواخر تموز ــ يوليو ــ تقريباً) ، فضلا عن انه بامسّ الحاجة الى الراحة لأنه مرهق جداً . . .

صدرت للمرة الاولى مع اختصارات في كتاب : F. Engels. «Politisches Vermächtnis. Aus unveröffentlichten Briefen». Berlin, 1920

صدرت بنصها الكامل باللغة الروسية في مجلة «بولشفيك» ، العدد ١٠ ، عام ١٩٣٢

تصدر حسب المخطوطة

تمت الترجمة نقلا عن الالمانية

من ماركس الى ولهلم بلوس

في هامبورغ

لندن في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٧

انا «لا اغضب» (كما يقول هينه)* وكذلك انجلس (٧٠) . فكلانا لن يدفع ، وان متليكا عتيقا ، من اجل الشعبيـــة . اليك ، مثلا ، برهانا : لاشمئزازي من كل عبادة للفرد ، لم اسمح يوما ، طوال وجود الاممية ، بنشر الرسائـــل العديدة التي كانت تعترف بافضالي والتي ازعجوني بها من مختلف البلدان ، بل اني لم ارد عليها ابدا ، الا اني في حالات نادرة قرّعت مرسليها . وعندما انتسبنا انجلس وانا للمرة الاولى الى جمعية سرية للشيوعيين** ، وضعنا شرطا لا محيد عنـه ، وهـو ان يشطب من النظام الداخلي (٧١) كل ما يسهم في عبادة اعاظم الرجال الخرافية (وفيما بعد ، اتبع لاسال سلوكا معاكسا تماما)

صـدرت للمـــرة الاولى في مجلـــة «Der Wahre Jacob» العدد ٥٦٥ (٦) ، تصدر حسب المخطوطة تمت الترجمة نقلا عن الالمانية ١٧ آذار (مارس) ١٩٠٨

---

* هينه . حلقة «الفاصل الغنائي» ، القصيدة الثامنة عشرة . الناشر .

** ــ عصبة الشيوعيين . الناشر .

من انجلس الى كارل كاوتسكي

في فيينا

لندن في ١٢ ايلول (سبتمبر) ١٨٨٢

انك تسألني مـــا هو رأي العمال الانجليز في السياسة الاستعمارية انه تماما نفس رأيهم في السياسة بوجه عام اي نفس رأي البرجوازيين فيها . فلا يوجد هنا حزب عمالي ، انما يوجد فقط حزب محافظ وحزب ليبيرالي راديكالي ؛ اما العمال فانهم يتمتعون معهما بكل هدوء باحتكار انجلترا الاستعماري وباحتكارها في السوق العـــالميـــة . واني ارى ان المستعـــرات بكـــل معنى الكلمـــة ، اي البلـــدان التـــي يشغلهـــا الاوروبيون ، كندا والكاب* واوستراليا ستغدو جميعها مستقلة ؛ اما البلدان المستعبدة فقط والتي يقطنها سكانها الاصليون ، الهند والجزائر والممتلكات الهولندية والبرتغالية والاسبانية ، فانه يقتضى لها ، بالعكس ، ان تأخذها البروليتاريا في يدهـا لفترة من الزمن وتسير بها باسرع ما يمكن نحو الاستقلال . من الصعب القول كيف ستتطور هذه الحركة . فقد تقوم الهند بثورة بل ان هذا الامر جد محتمل ، ولما كانت البروليتاريا بسبيل التحرر لا تستطيع خوض حروب استعمارية ، فينبغي القبول بالثورة ، ومع ذلك فان الثورة لن تتم ، بالطبع ، دون شتى انواع التدمير . ولكن مثل هذا الامر ملازم لكل ثورة . وقد يجري الشيء نفسه في بلدان اخرى ايضا ، مثلا ، في الجزائر وفي مصر ، وهذا سيكون بالنسبة لنا ، وبكل تأكيد ، خير حل . اذ سيترتب علينا القيام باشياء كثيرة عندنا

* اقليم الكاب (الرجاء الصالح) في افريقيا الجنوبية . الناشر .

ان اعادة تنظيم اوروبا واميركا الشمالية توفر لنا فوراً قوة هائلة ومثالا بليغاً الى حد ان البلدان شبه المتمدنة ستسير من تلقاء نفسها وراءنا ؛ والحاجات الاقتصادية وحدها تتعهد بهذه المهمة . ولكن ايـــة اطوار اجتماعية وسياسية يترتب على هذه البلدان اجتيازها قبل ان تبلغ ايضاً التنظيم الاشتراكي ، فهذا ما لا نستطيع اليوم ، كما اعتقد ، ان نجيب عليه الا بفرضيات لا طائل تحتها . غير ان ثمة امراً لا يقبل الشك ، هو ان البروليتاريـا الظافرة لا تستطيع ان تفرض اية سعـــادة على شعب اجنبي دون ان تقوض بذلك انتصارها بالذات . وطبيعي ان ذلك لا ينفي ابداً قيام حروب دفاعية ذات طبيعة متنوعة . . .

صدرت للمرة الاولى بنصها الكامل باللغة الروسية في «ارشيف ماركس وانجلس» ، المجلد الاول (الفصل السادس) عام ١٩٣٢

تصدر حسب المخطوطة
تمت الترجمة نقلا عن الالمانية

من انجلس الى كونراد شميدت

في برلين

لندن في ٥ آب (اغسطس) ١٨٩٠

قرأت في مجلة «Deutsche Worte» الصادرة في فيينا نقداً لكتاب باول بارت (٧٢) بقلم المنحوس موريس فيرت (٧٣) ؛ وقد ترك هذا النقد في نفســي انطبـــاعـــاً غير مستطـــاب عن الكتاب نفسه ايضاً اني سأراجعه ولكنه يجب عليّ ان اقول انه اذا كان موريس يستشهد به بصورة صحيحة ، فان بارت يزعم انه لم يستطع ان يجد في جميع مؤلفات ماركس غير مثال واحد

على تبعية الفلسفة وغيرها لظروف الوجود المادية ، واعني بذلك كون ديكارت يعلن ان الحيوانات آلات انا ، بكل بساطة آسف لرجل يكتب اشياء كهذه . وبما ان هذا الرجل لمّا يفهم واقع ان كون ظروف الوجود المادية primum agens • لا ينفي ان يكون للميادين الايديولوجية بدورها تاثير مقابل ، ولكن ثانوي ، على هذه الظروف المادية ؛ وبما ان هذا غير واضح له ، فهو عاجز عن ان يفهم ايضاً الموضوع الذي يكتب عنه ولكن كل هذا ــ واكرر قولي ــ ليس من المصدر الاولي ، اما موريس فهو صديق خطر . ولدى المفهوم المادي عن التاريخ الآن كثرة من امثال هؤلاء الاصدقاء الذين يشكل هذا المفهوم بالنسبة لهم ذريعة للامتناع عن دراسة التاريخ . ان الحال يشبه الآن تماماً ما كان عليه عندما تحدث ماركس عن «الماركسيين» الفرنسيين من اواخر العقد الثامن «انا اعرف امراً واحداً فقط ، هو اني لست ماركسياً» .

كذلك قام في «Volks-Tribüne» (٧٤) نقاش حول توزيع المنتوجات في المجتمع المقبل أيتحقق وفقاً لكمية العمل ام بطريقة اخرى . وقد تناولوا المسالة بطريقة «مادية» صرف ايضاً خلافاً للجمل المثالية المعروفة عن العدالة . ولكنه لم يخطر في بال احد ، مهما بدا هذا مستغرباً ، ان اسلوب التوزيع يتوقف بصورة جوهرية على كمية المنتوجات التي ينبغي توزيعها ، وان هذه الكمية تتغير بالطبع تبعاً لتقدم الانتاج وتنظيم المجتمع ، وانه لا بد بالتالي ان يتغير اسلوب التوزيع ايضاً . ولكن جميع المشتركين في النقاش لا يعتبرون «المجتمع الاشتراكي» شيئاً يتغير ويتقدم باستمرار ، بل يعتبرونه شيئاً ثابتاً ، اقيم مرة واحدة والى الابد ،

• ــ السبب الاول . الناشر .

وانه ينبغي له بالتالي ان يكون لديه كذلك اسلوب للتوزيع اقيم مرة واحدة والى الابد . ولكن اذا فكر المرء تفكيراً سليماً ، امكنه مع ذلك : ١ ــ ان يحاول البحث عن اسلوب للتوزيع يجب البدء منه و٢ ــ ان يحاول ايجاد الاتجاه العام للتطور اللاحق . ولكني لا اجد اي كلمة عن هذا في النقاش كله .

ان كلمة «المادي» هي على العموم بالنسبة لكثيرين من الكتاب الشباب في المانيا كلمة بسيطة يطلقونها على كل ما يطيب لهم ، دون ان يكلفوا انفسهم عناء الدراسة باطراد ، اي انهم يلصقون هذا النعت ويعتبرون انهم حلوا المسالة بذلك . ولكن مفهومنا للتاريخ هو في المقام الاول مرشد للدراسة ، وليس رافعاً للبناء على طريقة الهيغلية ينبغي لنا ان ندرس التاريخ كله من جديد ، ينبغي لنا ان نبحث بالتفصيل ظروف وجود التشكيلات الاجتماعية المختلفة ، قبل ان نحاول ان نستخلص منها مفاهيم سياسية وحقوقية وجمالية وفلسفية ودينية وما الى ذلك ، مناسبة لها . وما تحقق في هذا المضمار حتى الآن قليل لأن عدداً قليلا جداً من الناس عكفوا على ذلك بصورة جدية . ونحن في هذا المضمار بحاجة الى عون كبير ، فالميدان رحب الى ما لا نهاية ، وان من يريد ان يشتغل بصورة جدية يمكنه ان يفعل كثيراً ويبرز . ولكن عوضاً عن هذا ، لا يشكل الكلام عن المادية التاريخية (فمن الممكن تحويل كل شيء الى كلام بكلام) عند كثيرين من الالمان من جيل الشباب غير ذريعة لتصنيف وترتيب معارفهم التاريخية الخاصة ، القليلة جداً نسبياً (فالتاريخ الاقتصادي لا يزال بعد في الاقمطة !) باسرع ما يمكن ، وثم للاغتزار بانفسهم بوصفهم من اعاظم الرجال . وآنذاك يمكن ان يظهر رجل ما من طراز بارت ويعكف على ما انحط في بيئته ، على كل حال ، الى جملة فارغة .

ولكن كل هذا سيجري اصلاحه بالطبع . فنحن الآن في المانيا نملك من القوة ما يكفي لاحتمال الكثير . ومن اعظم الخدمات التي قدمها لنا القانون ضد الاشتراكيين (٧٥) ، انه حررنا من لجاجة الطالب الالماني الاشتراكي الصبغة . ونحن الآن نملك من القوة ما يكفي لاحتمال هذا الطالب الالماني ايضاً الذي اخذ من جديد يشمخ بانفه كثيراً . وانت الذي فعلت شيئاً حقاً وفعلا ، لاحظت بنفسك ، اغلب الظن ، بين الادبـــاء الشباب المرتبطين بالحزب ، اي عدد قليل منهم يكلفون انفسهم عناء دراسة الاقتصاد السياسي وتاريخ الاقتصاد السياسي ، وتاريخ التجارة والصناعة والزراعة والتشكيلات الاجتماعية . وهل هناك كثيرون منهم يعرفون عن موريز اكثر من مجرد اسمه ! لا بدّ لاعجاب الصحفي بنفسه ان يذلل كل شيء ، وهذا ما تطابقه النتائج . ان هؤلاء السادة يتصورون ان كل شيء يصلح للعمال . ولكني اود لـو يعرفون ان ماركس كان يعتبر ان خيرة اعماله ليست مع ذلك جيدة بالقدر الكافي لأجل العمال ، وانه كان يعتبر تقديم شيء للعمال ليس افضل الاشياء جريمة ! . .

صدرت للمرة الاولى بنصها الكامل في مجلة «Sozialistische Monatshefte» العـدد ١٨ـ١٩ ، عام ١٩٢٠

تصدر حسب المخطوطة
تمت الترجمة نقلا عن الالمانية

من انجلس الى اوتو بونيغك

في برسلاو[1]

فولكستون بجوار دوفر
في ٢١ آب (اغسطس) ١٨٩٠

لا استطيع الجواب عن اسئلتك الا بايجاز وبالخطوط الكبرى ، والا فان الجواب عن السؤال الاول يتطلب مني كتابة بحث كامل .

ا ــ ان ما يسمى «المجتمع الاشتراكي» ليس ، حسبما اعتقد ، شيئاً ما اعطي مرة واحدة والى الابد ، بل ينبغي اعتباره ، مثله مثل كل نظام اجتماعي آخر ، قابلا لتغيرات وتحولات دائمة . ان ميزته الفاصلة عن النظام الحالي تقوم بالطبع في تنظيم الانتاج على اساس الملكية العامة لامة واحدة في البدء لجميع وسائل الانتاج . وانا لا ارى اي مصاعب على الاطلاق تعترض سبيل تحقيق هذا الانقلاب غداً بالذات ، اذ ان المقصود تحقيقه تدريجياً . واما ان عمالنا قادرون على هذا فتثبته جمعياتهم العديدة للانتاج والاستهلاك التي تدار حسناً مثل الشركات المساهمة البرجوازية ، بل بصورة اكثر استقامة بكثير ، حيث لم يقوضها البوليس قصداً وعمداً . ولا يسعني ان افهم كيف يمكنك الحديث عن جهل الجماهير في المانيا بعد البرهان الساطع الذي قدمه عمالنا على نضجهم السياسي في غمرة النضال المظفر ضد القانون بشأن الاشتراكيين واني ارى الغطرسة العلمية المزعومة عند من يسمون بالمتعلمين عقبة جدية اكبر بكثير يقيناً انه ليس لدينا بعد العدد الكافي من التكنيكيين

[1] واسمها حاليا : فروتسلاف . الناشر .

والمهندسين الزراعيين والمهندسين والكيماويين والمعماريين ، الخ ولكن بمقدورنا في اسوأ الاحتمالات ان نشتريهم من اجلنا كما يفعل الرأسماليون ؛ واذا ما عوقب بعض الخونة ــ الذين سيظهرون من كل بد في هذا المجتمع ــ العقاب اللازم عبرة لغيرهم ، فانهم سيدركون ان من مصلحتهم بالذات ان يكفوا عن سرقتنا ولكن باستثناء هؤلاء الاختصاصيين الذين اصنف ايضاً معلمي المدارس في عدادهم ، نستطيع تماماً ان نستغني عن «المتعلمين» الباقين وعلى سبيل المثال اذكر ان تدفق الادباء والطلاب القوي الحالي على الحزب مقرون بشتى الاضرار اذا لم نبق هؤلاء السادة ضمن الاطارات اللازمة .

واذا توفرت القيادة التكنيكية اللازمة ، يمكن بدون جهد تأجير لاتيفونديات اليونكر في شرقي نهر الالب من العمال المياومين والاجراء الزراعيين الحاليين ، ويمكن استثمارها حسب المبادىء الجماعية اما اذا حدثت في هذه الحال تجاوزات ما ، فان المسؤولين عنها هم السادة اليونكر الذين ، رغم كل التشريع المدرسي القائم ، دفعوا الناس الى هذا الحد من التوحش

والعقبة الكبرى سيكونها الفلاحون الصغار واولئك المتعلمون اللجوجون الفائقو الذكاء الذين يتظاهرون بانهم يعرفون كل شيء بقدر ما يدركون هذه المسألة اقل .

وهكذا متى توفر العدد الكافي من الاتباع بين الجماهير ، سيكون من الممكن تحويل الصناعة الكبيرة والزراعة الكبيرة من طراز اللاتيفونديات بسرعة كبيرة الى ملكية عامة ، لأن السلطة السياسية ستكون في ايدينا . واثر هذا ياتي الباقي بدرجات متفاوتة من السرعة او البطء . اما في ميدان الانتاج الكبير ، فاننا سنكون اسياد الوضع .

انت تتحدث عن فقدان الادراك المناسب ان هذا واقع ، ولكنه من جانب المتعلمين المتحدرين من اوساط النبلاء والبرجوازيين ، والذين لا يتصورون حتى اي قدر كبير من الاشياء لا يزال يترتب عليهم ان يتعلموها من العمال ...

صدرت للمرة الاولى بنصها الكامل باللغة الروسية في مجلة «مسائل تاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي» ، العدد ٢ ، عام ١٩٦٤ ، وبلغة الاصل في مجلة «Beitrage zur Geschichte der deutschen Arbeiterbewegung» العدد ٢ ، عام ١٩٦٤

تصدر حسب المخطوطة تمت الترجمة نقلا عن الالمانية

من انجلس الى يوسف بلوخ

في كونيغسبرغ

لندن في ٢١ [ـ٢٢] ايلول (سبتمبر) ١٨٩٠

... وفقا للمفهوم المادي عن التاريخ ، يشكل انتاج وتجديد انتاج الحياة الفعلية العنصر الحاسم ، في آخر المطاف ، في العملية التاريخية . واكثر من هذا لم نؤكد في يوم من الايام ، لا ماركس ولا انا . اما اذا شوه احدهم هذه الموضوعة بمعنى ان العنصر الاقتصادي هو ، على حد زعمه ، العنصر الحاسم الوحيد ، فانه يحول هذا التاكيد الى جملة مجردة ، لا معنى لها ، ولا تدل على شيء . ان الوضع الاقتصادي انما هو الاساس ، ولكن مختلف عناصر البناء الفوقي تؤثر هي ايضا في مجرى النضال التاريخي ، وتحدد على الاغلب

شكله في كثير من الاحيان ؛ ونقصد بهذه العناصر اشكال النضال الطبقي السياسية ونتائجه ـ النظام السياسي الذي تقيمه الطبقة الظافرة بعد كسب المعركة ، وما الى ذلك ـ والاشكال الحقوقية وحتى انعكاس جميع هذه المعارك الفعلية في عقول المشتركين فيها ، والنظريات السياسية والحقوقية والفلسفية ، والآراء الدينية وتطورها اللاحق وصيرورتها نهجاً من العقائد . وجميع هذه العناصر تتفاعل ، وفي هذا التفاعل تشق الحركة الاقتصادية لنفسها في آخر المطاف ، بوصفها حركة ضرورية ، طريقاً عبر كثرة لا عد لها من الصدف (اي من الاشياء والاحداث التي صلتها الداخلية بعيدة او عسيرة البرهان الى حد انه يمكننا اهمالها واعتبارها غير موجودة) . والا كان تطبيق النظرية على اي من المراحل التاريخية اسهل من حل معادلة بسيطة من المرتبة الاولى .

نحن نصنع تاريخنا بانفسنا ، ولكننا ، اولا ، نصنعه في ظل مقدمات وظروف محددة جداً ، الاقتصادية منها هي الحاسمة في آخر المطاف . ولكن الظروف السياسية وغيرها ، وحتى التقاليد التي تعشش في رؤوس الناس ، تلعب هي ايضا دوراً معيناً ، وان لم يكن الدور الحاسم . فان الدولة البروسية قد نشأت وتطورت كذلك بفضل اسباب تاريخية ، واقتصادية في آخر المطاف . ولكن هل يسع المرء ، ان لم يكن دهياً ، ان يزعم ان براندنبورغ بالذات كانت معدة بين الدويلات الصغيرة الكثيرة في المانيا الشمالية للقيام بدور دولة كبرى تتجسد فيها الفوارق الاقتصادية واللغوية ، ثم الدينية منذ الاصلاح ، بين الشمال والجنوب وان هذا قد حددته سلفاً الضرورة الاقتصادية وحدها ، بينما العناصر الاخرى لم تمارس اي تاثير (وفي المقام الاول منها ، واقع انجرار براندنبورغ الى ميدان الشؤون البولونية بفضل امتلاكها لبروسيا ، وعبر الشؤون البولونية

الى ميدان العلاقات السياسية الدولية التي كانت حاسمة كذلك عند تشكيل ممتلكات البيت النمساوي) . وهل يفلح احد ، ان لم يجعل من نفسه اضحوكة ، في ان يفسر من الناحية الاقتصادية وجود كل دويلة المانية صغيرة في الماضي وفي الحاضر او منشأ الاصوات الساكنة في المانيا العليا الذي حول الانقسام الجغرافي بسبب السلسلة الجبلية الممتدة من السوديت الى تاونوس ، الى شق حقيقي يعبر المانيا باسرها .

ثانياً ، يُصنع التاريخ بنحو تحصل معه النتيجة النهائية دائما من تصادم كثرة من الارادات الفردية ، مع العلم ان كلا من هذه الارادات تصبح ما هي عليه بالفعل ، وذلك من جديد بفضل طائفة من الاحوال الحياتية الخاصة . وهكذا يوجد عدد لا يحصى من القوى المتشابكة ، مجموعة لا نهاية لها من متوازيات اضلاع القوى ، ومن هذا التشابك تنجم قوة مُحَصِّلة واحدة هي الحدث التاريخي وهذه النتيجة يمكن ايضا اعتبارها نتاج قوة واحدة تفعل فعلها ككل واحد ، بلا وعي ولا ارادة . ذلك ان ما يريده امرؤ يلقى المعارضة من جانب اي امرئ آخر ، وتكون النتيجة النهائية ظهور شيء لم يرغب فيه احد . وعلى هذا النحو يسير التاريخ ، كما سار حتى الآن ، اشبه بتطور طبيعي ، ويخضع ، من حيث جوهر الامر ، لنفس قوانين الحركة . ومن هذا الواقع ، وهو ان ارادات مختلف الافراد الذين يريد كل منهم ما تدفعه اليه بنيته الجسدية والظروف الخارجية ، اي الاقتصادية في آخر المطاف (او ظروفه الخاصة الشخصية او الاجتماعية العامة) ان هذه الارادات لا تبلغ ما تريده ، بل تتمازج في شيء وسط ، في قوة مُحَصِّلة مشتركة واحدة ، ـ من هذا ، لا يجوز مع ذلك الاستنتاج ان هذه الارادات تساوي صفراً بل بالعكس . فان كل ارادة تشترك في القوة المحصِّلة وتندرج فيها بالقدر نفسه .

ثم ارجوك ان تدرس هذه النظرية في مصادرها الاولى ، لا بالواسطة ، ـ لأن هذا ، والحق يقال ، اسهل بكثير ان ماركس لم يكتب شيئاً لم تضطلع فيه هذه النظرية بدور . وان «**الثامن عشر من برومير لويس بونابرت**» هو ، على الاخص ، مثال بديع على تطبيق هذه النظرية كذلك يشتمل «**راس المال**» على كثرة من الاشارات اليها . ثم اني على حق ، اغلب الظن ، في الاشارة الى مؤلفي «السيد اوجين دوهرينغ يقلب العلم» و«لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» اللذين قدمت فيهما عرضاً للمادية التاريخية هو ، حسب علمي ، اكثر العروض الموجودة تفصيلا واسهاباً .

وماركس وكذلك انا مسؤولان جزئياً عن كون الشباب يعلقون احياناً على الجانب الاقتصادي اهمية اكبر مما يجب . وقد اضطررنا ، اثناء الاعتراض على اخصامنا ، الى تأكيد المبدأ الرئيسي الذي انكروه ، ولكننا كنا دائماً لا نجد الوقت والمكان والامكانية لتقدير العناصر الباقية المشتركة في التفاعل حق قدرها . ولكن ما ان بلغت الامور حد تحليل مرحلة ما من المراحل التاريخية ، اي حد التطبيق العملي ، حتى تغير الحال ، ولم يبق من الممكن هنا ان يقع اي خطأ ولكن ، مع الاسف ، يعتقدون في غالب الاحيان انهم فهموا النظرية الجديدة فهماً تاماً وان بوسعهم تطبيقها على الفور ما ان يستوعبوا موضوعاتها الاساسية ، مع العلم انهم لا يستوعبونها دائماً بصورة صحيحة . وعلى هذا استطيع ان اوم كثيرين من «الماركسيين» الجدد ؛ اذ انه بفضل هذا ايضاً نشأ تشوش مدهش . . .

صدرت للمرة الاولى في مجلة «Der Sozialistische Akademiker». العدد ١٩ ، عام ١٨٩٥

تصدر حسب نص المجلة
تمت الترجمة نقلا عن الالمانية

من انجلس الى كونراد شميدت

في برلين

لندن في ٢٧ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٠

عزيزي شميدت !

استغل اول دقيقة حرة لكي اجيبك . اني اعتقد انك تسلك سلوكا صحيحا اذا قبلت اقتراح «Züricher Post» (٧٦) . ففي وسعك ان تتعلم هناك شيئاً ما في ميدان الاقتصاد ، ولا سيما اذا لم يغب عن بالك ان زوريخ ليست غير سوق للنقود والمضاربة من المرتبة الثالثة ، ولهذا تضعف جميع الانطباعات الناجمة هناك ، من جرّاء انعكاسها للمرة الثانية والثالثة او تُشوّه قصداً وعمداً . ولكنك ستطلع في الواقع على الآلية كلها وستضطر الى تتبع تقارير البورصة من مصادرها الاولى ، ــ من لندن ونيويورك وباريس وبرلين وفيينا ، وآنذاك تظهر امامك السوق العالمية في انعكاسها بوصفها سوقا للنقود وسوقا للاوراق المالية . ان حال الانعكاسات الاقتصادية والسياسية وغيرها من الانعكاسات يشبه تماما حال الانعكاسات في العين البشرية . فهي تجري عبر عدسة جامعة ولهذا تبدو بشكل مقلوب ، راسا على عقب . الا انه لا وجود للجهاز العصبي الذي يوقفها من جديد على عقبها امام ابصارنا . ان رجل البورصة لا يرى حركة الصناعة والسوق العالمية الا في الانعكاس المقلوب راسا على عقب لسوق النقود وسوق الاوراق المالية ، ولهذا تغدو النتيجة بنظره سببا . وهذا ما سبق لي ولاحظته في سنوات العقد الخامس في منشستر : فان تقارير بورصة لندن لم تكن تصلح اطلاقاً لتكوين فكرة بموجبها عن سير تطور الصناعة وعن

نقاطها العليا والدنيـــا الدورية ، لأن هؤلاء السادة كانوا يحاولون تفسير جميع الظاهرات بازمات سوق النقود التي كانت هي نفسها بمعظمها مجرد عوارض كان المقصود آنذاك انكار منشأ الازمات الصناعية من فيض الانتاج الموقت انكاراً تاماً ، ولهذا كان للمسألة ، فضلا عن ذلك ، جانب متغرض يحمل على اللجـــوء الى التشويه اما الآن فان هذه النقطة تفقد اهميتها ــ بالنسبة لنا ، على الاقل ، مرة واحدة والى الابد ؛ وبالاضافة الى هذا ، هناك واقع لا مراء فيه هو انه يمكن ان تكون لسوق النقود ايضاً ازماتها الخاصة التي لا تضطلع فيها المخالفات المباشرة للانتاج الصناعي الا بدور ثانوي تابع او حتى لا تضطلع فيها باي دور . هنا لا بدّ ايضاً من توضيح ودراسة شيء ما ، ولا سيمـــا على الصعيد التاريخي في السنوات العشرين الاخيرة .

وحيث يوجد تقسيم العمل على صعيد المجتمع ، تصبح عمليات العمل المنفردة مستقلة بعضها حيال بعض . ان الانتاج هو الحاسم في آخر المطاف . ولكن ما ان تنفصل تجارة المنتوجات عن الانتاج بمعنى هذه الكلمة الاصلي ، حتى تسير في حركتها الخاصة التي تهيمن عليها حركة الانتاج كلياً وتماماً ولكن التي تسير مع ذلك ، في بعض اقسامهـــا وداخل هذه التبعية العامة ، حسب قوانينهـــا الخاصة الملازمة لطبيعة هذا الواقع الجديد . ولهذه الحركة اطوارها الخاصة، وهي تؤثر بدورها تأثيراً مقابلا في حركة الانتاج . فان اكتشاف اميركا قد تسبب به التعطش الى الذهب ، الذي كان قبل ذلك قد دفع البرتغاليين الى افريقيـــا دفعاً (قارن زوتبر «استخراج المعادن الكريمة») ، لأن الصناعـــة الاوروبية التي تطورت ببالغ القوة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، والتجارة المناسبـــة لها قد اقتضتا المزيد من وسائل التبادل ، الامر الذي لم تستطع المانيا ــ

بلد الفضة الكبير من عام ١٤٥٠ الى عام ١٥٥٠ ــ ان تؤمنه . وقد كان الهدف من استيلاء البرتغاليين والهولنديين والانجليز على الهند من عام ١٥٠٠ الى عام ١٨٠٠ هو **الاستيراد من** الهند . اما التصدير الى الهند ، فلم يفكـــر به احد . ومع ذلك ، اي تاثير مقابل هائل في الصناعـــة كان لهذه الاكتشافات والفتوحات التي دفعت اليهـــا المصالح التجارية الصرف : فان الحاجة الى **التصدير الى** هذه البلدان هي وحدها التي خلقت الصناعة الكبيرة وطورتها .

كذلك الحال فيما يخص سوق النقود . فما ان تنفصل تجارة النقود عن تجارة البضائع حتى تكتسب ــ في ظروف معينة يحددها الانتاج وتجارة البضائع ، وضمن هذه الحدود ــ تطوراً خاصاً بها ، وحتى تغدو لها قوانين خاصة واطوار خاصة تحددهـــا طبيعتهـــا الخاصة . وعندمـــا تتسع تجارة النقود ، فضلا عن ذلك ، خلال تطورها ، حتى تشمل تجارة الاوراق المالية ــ مع العلـــم ان هذه الاوراق المالية لا تتالف من سندات الدولة فقط ، بل تتالف ايضاً من اسهم مؤسسات الصناعة والنقليات ، ولن تجارة النقود تظفر بالتالي بالسيادة المباشرة على قسم من الانتاج الذي يسود عموماً واجمالا عليها ، ــ عند ذاك يصبح التاثير المقابل لتجارة النقود على الانتاج اقوى واعقد ان تجار النقود هم مالكو السكك الحديدية والمناجم ومصانع التعدين ، والخ .. ان وسائل الانتاج هذه تكتسب طابعا مزدوجا : فان عملها يجب ان يتكيف تارة لمصالح الانتاج المباشر ، وطوراً لمطالب المساهمين لأنهـــم هم اصحاب مصارف . واسطع مثال على هذا ، السكك الحديدية في اميركا الشمالية . فان كل عملها رهن في الوقت الحاضر بعمليات البورصة التي يقوم بها جاي غولد او فندربيلت او اي آخر ، وهي عمليات غريبة تماماً عن نشاط سكة بعينها وعن مصالحها بوصفهـــا وسيلة للمواصلات

وحتى هنا ، في انجلترا ، شاهدنا صراعاً استمر طوال عشرات السنين بين مختلف شركات السكك الحديدية بسبب تعيين حدود اراضيها صراعـــاً انفقت في سياقه اموال طائلـــة ، لا في مصلحة الانتاج والنقليات ، بل بوجه الحصر من جرّاء المزاحمة التي لا تستهدف في معظم الاحوال غير تسهيل عمليات البورصة على تجـــار النقود الذين يملكون الاسهم .

في هذه الملاحظات القليلة عن فهمي للعلاقة بين الانتاج وتجارة البضائع وللعلاقة بينهما وبين تجارة النقود ، اجبت ، اساساً ، عن اسئلتك حول المادية التاريخية عموماً وهذا ما يمكن فهمه على ايسر نحو من وجهة نظر تقسيم العمل . فان المجتمع يخلق وظائف عامة معينة لا يمكنه الاستغناء عنها . والناس المعدون لهذا الغرض يشكلون فرعـــاً جديداً من فروع تقسيم العمل داخل المجتمع ، وتظهر عندهم بالتالي مصالح خاصة ايضاً حيال الذين عهدوا اليهم بهذه الوظائف ؛ ويصبحون مستقلين حيالهم ، ــ فتظهر الدولة ثم يحدث ما حدث في ظل تجارة البضائع وفيمـــا بعد في ظل تجارة النقود . صحيح انـــه يجب على القوة المستقلة الجديدة ان تتبع كلياً وتماماً حركة الانتاج ، ولكنها تؤثر بدورها تأثيراً مقابلاً في ظروف ومجرى الانتاج بحكم الاستقلال النسبي الملازم لهـــا او ، بالاصح ، الذي نالته ذات مرة وتطور تدريجياً اكثر فاكثر . وهذا انما هو تفاعل قوتين مختلفتين : من جهة الحركة الاقتصادية ، ومن جهة اخرى القوة السياسية الجديدة التي تسعى وراء اكثر ما يمكن من الاستقلال ، والتي ، بحكم وضعهـــا موضع التطبيق ، تكتسب كذلك حركة خاصة بها . ان الحركة الاقتصادية ستشق على العموم طريقا لنفسها ، ولكنها ستشعر ايضـــاً بتأثير مقابل من الحركة السياسية التي انشاتها الحركة الاقتصادية نفسهـــا والتي تكسب

استقلالا نسبيـــا . ففي الحركة الاقتصادية ، تؤثر من جهة حركة سلطة الدولة ، ومن جهة اخرى ، حركة معارضة ولدت في آن واحد مع سلطة الدولة . وكما تنعكس حركة السوق الصناعية عمومـــا واجمالا ، ومع التحفظـــات المذكورة اعلاه ، على سوق النقود ، وتنعكس طبعا بشكل مشوه ، كذلك ينعكس النضال بين الطبقات الموجودة والمتناضلة حتى ذاك على النضال بين الحكومة والمعارضة ، وينعكس كذلك بشكل مشوه : لا مباشرة بل بصورة غير مباشرة ، لا كنضال بين الطبقات ، بل كنضال في سبيل المبادئ السياسية ، وينعكس بشكل مشوه الى حد انه مرت آلاف السنين قبل ان يتضح لنا كنه المسالة .

ان تاثير السلطة السياسية المقابل في التطور الاقتصادي يمكن ان يكون ثلاثي الوجوه فقد تفعل في نفس اتجاه التطور فيسير التطور بمزيد من السرعـــة ؛ او قد تفعـــل ضد اتجـــاه التطور الاقتصادي ، فتمنى بالاخفاق في الوقت الحاضر عند كل شعب كبير بعد مرور حقبة معينة من الزمن ؛ او قد تقيم عقبات امام التطور الاقتصادي في اتجاهات معينة وتدفعه في اتجاهات اخرى وهذه الحالة تؤول في آخر المطاف الى احدى الحالتين السابقتين . ولكنه واضح انه من الممكن ان تتسبب السلطة السياسية في الحـــالتين الثانية والثالثـــة للتطور الاقتصادي بافدح الضرر وبتبذير القوى والمواد بمقادير كبيرة جداً .

وعلاوة على ذلك ، هناك حالة اخرى قوامهـــا كسب موارد اقتصادية والقضاء عليها بغظاظة ، ومن جرّاء هذا كانت جميـــع نتائج التطور الاقتصادي لمنطقة بكاملها او لامة باسرها تتبدد من قبل في ظروف معينة . اما الآن ، فان لهذه الحالة في معظم الاحيان عواقب معاكسة ، على الاقل عند الشعوب الكبيرة . فان المغلوب

على امره يكسب بالنتيجة احيانا ، سواء في الميدان الاقتصادي او السياسي او المعنوي ، اكثر مما يكسب الغالب .

كذلك بالضبط هو حال الحق . فما ان يغدو من الضروري اجراء تقسيم جديد للعمل يخلق الحقوقيين المحترفين ، حتى يتكشف ميدان مستقل جديد يملك ، رغم كل تبعيته العامة ازاء الانتاج والتجارة ، قدرة خاصة على احداث تاثير مقابل في هذين الميدانين . ففي الدولة الحديثة ، ينبغي للحق ، لا ان يطابق الوضع الاقتصادي العام وحسب ، لا ان يكون تعبيراً عنه وحسب ، بل ان يكون ايضا تعبيراً منسقا داخليا لا يدحض نفسه بنفسه بحكم التناقضات الداخلية . ولأجل بلوغ هذا الغرض ، تُنتهك اكثر فاكثر دقة انعكاس العلاقات الاقتصادية . وهذا ما تتكاثر حالات وقوعه بقدر ما تندر الحالات التي تمثل فيها مجموعة القوانين تعبيراً حاداً ، غير مُلَطَّف ، غير مشوَّه ، عن سيادة طبقة واحدة ، اذ ان من شأن هذا ان يناقض «مفهوم الحق» . ان المفهوم الخالص ، المنسجم عن الحق عند البرجوازية الثورية في مرحلة ١٧٩٢ـ١٧٩٦ قد ورد مزيفا في كثير من النواحي في مجموعة قوانين نابوليون ؛ وبالقدر الذي يتجسد به هذا المفهوم عن الحق في مجموعة القوانين هذه ، لا بدَّ له ان يتعرض بالقدر نفسه كل يوم لشتى عمليات التلطيف بفضل تنامي قوة البروليتاريا . ولكن هذا لا يمنع من ان تكون مجموعة قوانين نابوليون مجموعة قوانين تقوم في اساس جميع التشريعات الجديدة في جميع انحاء الكرة الارضية . وعليه يتلخص سير «تطور الحق» في معظم الاحوال في انهم يحاولون بادئ ذي بدء ازالة التناقضات الناجمة عن ترجمة العلاقات الاقتصادية مباشرة الى مبادئ حقوقية ، واقرار نظام حقوقي متناسق ، ولكن تاثير التطور الاقتصادي اللاحق وقوته الالزامية يحطمان دائما هذا النظام

من جديد ويجرانه الى لجة تناقضات جديدة (وانا هنا اقصر كلامي الآن على الحق المدني) .

ان انعكاس العلاقات الاقتصادية في صورة مبادئ حقوقية يضع هذه العلاقات رأساً على عقب بحكم الضرورة ذاتها . فان عملية الانعكاس هذه تجري بمعزل عن ادراك العنصر الفاعل ؛ فالحقوقي يتصور انه يعمل بموضوعات بديهية ، بينما هي لا تعدو ان تكون انعكاساً للعلاقات الاقتصادية . وهكذا يقف كل شيء رأساً على عقب . اما ان هذا التشويه الذي يمثل ، طالما لم نكشفه ، ما نسميه **بالعقيدة الايديولوجية** ، يؤثر بدوره تأثيراً مقابلا في البناء التحتي الاقتصادي ويمكنه ضمن حدود معينة ان يعدله ، ــ فان هذا يبدو لي من باب تحصيل الحاصل . ان اساس حق الوراثة اقتصادي ، اذا افترضنا درجة واحدة لتطور العائلة . ورغم هذا ، سيكون من العسير جداً تقديم البرهان على ان حرية الايصاء المطلقة في انجلترا ، مثلا ، والتضييق الشديد عليه في فرنسا لا يفسرهما بكل تفاصيلهما غير الاسباب الاقتصادية . ولكن هذا وتلك يؤثران تأثيراً مقابلا ملحوظا جداً في الاقتصاد لأنهما يؤثران في قسمة الاموال

اما الميادين الايديولوجية التي تحلق على مستوى اعلى في عالم الخيال ، ــ اي الدين والفلسفة ، والخ . ، ــ فان لها مضموناً من قبل التاريخ ، وجدته واقتبسته المرحلة التاريخية ، مضموناً قد نسميه الآن سخافة فان هذه التصورات الخاطئة المختلفة عن الطبيعة ، وعن جوهر الانسان نفسه ، وعن الارواح ، وعن القوى السحرية ، والخ . ، تقوم بمعظمها على اساس اقتصادي ، ولكن بالمعنى السلبي فقط ؛ وللتطور الاقتصادي المنخفض في مرحلة ما قبل التاريخ تصورات خاطئة عن الطبيعة ، بوصفها اضافات ، واحياناً بوصفها شرطا وحتى بوصفها سببا . ومع ان الضرورة الاقتصادية كانت

واصبحت اكثر فاكثر مع مر الزمن النابض الرئيسي للتقدم في معرفة الطبيعة ، الا انه من باب الادعاء الفارغ ان يحاول احد من الناس ايجاد اسباب اقتصادية لجميع هذه السخافات البدائية ان تاريخ العلوم هو تاريخ القضاء تدريجياً على هذه السخافة او الاستعاضة عنها بسخافة جديدة ، ولكنها مع ذلك اقل سخفاً . واولئك الذين يقومون بهذا انما ينتسبون الى ميادين خاصة من تقسيم العمل ويخيل اليهم انهم يدرسون ميداناً خاصاً . وبما انهم يشكلون جماعة مستقلة داخل التقسيم الاجتماعي للعمل ، فان منتوجاتهم ، بما فيها اخطاؤهم ، تؤثر تأثيراً مقابلا في كامل التطور الاجتماعي ، وحتى في التطور الاقتصادي . ولكنهم رغم كل هذا يجدون انفسهم مع ذلك تحت التأثير السائد للتطور الاقتصادي . ففي الفلسفة ، مثلا ، تمكن البرهنة على ذلك باسهل وجه فيما يخص العهد البرجوازي فقد كان هوبس اول مادي حديث (بروح القرن الثامن عشر) ، ولكنه كان يعيش في زمن كانت فيه المَلَكية المطلقة في عموم اوروبا تمر بمرحلة ازدهارها ، ودخلت فيه في انجلترا في صراع مع الشعب وكان نصير الحكم المطلق . وكان لوك ، في الدين كما في السياسة ، ابن المساومة الطبقية التي جرت في عام ١٦٨٨ . وكان انصار مذهب التاليه السببي الانجليز واتباعهم الاكثر انسجاماً منهم ، اي الماديون الفرنسيون ، فلاسفة البرجوازية الحقيقيين ، بل ان الفرنسيين كانوا فلاسفة الثورة البرجوازية . وفي الفلسفة الالمانية ، ابتداء من كانط حتى هيغل ، انعكست صورة البرجوازي الصغير الالماني ، تارة بالمعنى الايجابي وطوراً بالمعنى السلبي ولكن الفلسفة بوصفها ميداناً خاصاً من ميادين تقسيم العمل ، تجد في كل عهد تحت تصرفها ، على سبيل المقدمة ، مادة تفكيرية معينة انتقلت اليها من اسلافها ومنها تنطلق . وهذا يفسر واقع ان البلدان

المتاخرة اقتصادياً تستطيع مع ذلك ان تضطلع في الفلسفة بالدور الاول فرنسا في القرن الثامن عشر بالنسبة لانجلترا التي اعتمد الفرنسيون على فلسفتها ، ثم المانيا بالنسبة لفرنسا وانجلترا ولكن الفلسفة ، مثلها مثل الازدهار العام الذي عرفه الادب في ذلك العصر ، كانت كذلك ، سواء في فرنسا ام في المانيا ، نتيجة للنهوض الاقتصادي ان هيمنة التطور الاقتصادي في هذه الميادين ايضاً ثابتة لا مراء فيها بنظري ، ولكنها تقوم ضمن ظروف يمليها الميدان المعني بالذات : ففي الفلسفة مثلا ، يمليها فعل المؤثرات الاقتصادية (التي لا تمارس فعلها مع ذلك في معظم الاحوال الا في تعبيرها السياسي وخلافه من تعابيرها) في المادة الفلسفية المتوفرة التي قدمها الاسلاف . وهنا لا يصنع الاقتصاد اي شيء من جديد ولكنه يحدد نوع التغير في المادة التفكيرية المتوفرة ويحدد تطورها اللاحق، بل انه يفعل ذلك في معظم الاحيان بصورة غير مباشرة ، بينا التاثير المباشر الاهم تمارسه على الفلسفة الانعكاسات السياسية والحقوقية والاخلاقية .

وعن الدين قلت الضروري الضروري في الفصل الاخير من كراسي عن فورباخ •

ولذا ، اذا كان بارت يعتقد اننا انكرنا كل تاثير مقابل للانعكاسات السياسية وغيرها من انعكاسات الحركة الاقتصادية على هذه الحركة بالذات ، فانه بكل بساطة يقاتل طواحين هواء . حسبه ان يلقي نظرة الى كتاب ماركس «الثامن عشر من برومير» •• حيث يدور الكلام كليا تقريبا حول الدور الخاص الذي يضطلع به النضال

• راجع هذا المجلد ، ص ص ٦٢ـ٦٧ . الناشر .

•• راجع الطبعة الحالية ، الجزء الاول ، ص ص ١٤٨ـ٢٩٩ . الناشر .

السياسي وتضطلع به الاحداث ، طبعـــاً ، في نطاق تبعيتها العامة للظروف الاقتصاديـــة ؛ او ان يراجع ، مثلا ، في «راس المال» القسم المتعلق بيوم العمل ، والذي يبين اي تاثير حاسم يمارســـه التشريع الذي هو عمل سياسي، او القسم المكرس لتاريخ البرجوازية (الفصل الرابع والعشرون) . ولماذا نناضل في سبيل الديكتاتورية السياسية للبروليتاريا اذا كانت السلطة السياسية عاجزة اقتصادياً؟ ان العنف (اي سلطة الدولة) ، انما هو ايضاً قوة اقتصادية

ولكن الوقت لا يسمح لي الآن بانتقـــاد الكتاب نفسه اولا ينبغي ان يصدر المجلد الثالث • ثم اعتبر عموماً ان برنشتين مثلا يستطيع ان يفعل هذا بصورة ممتازة .

لا شيء ينقص جميع هؤلاء السادة كما ينقصهم الديالكتيك فهم دائماً يرون هنا السبب فقط وهناك النتيجـــة انهم لا يرون ان هذا تجريد فارغ وان هذه المتناقضات الميتافيزيائية لا توجد في العالم الفعلي الا في زمن الازمات وان السير العظيم للتطور يجري كله بشكل تفاعل (رغـــم ان القوى المتفاعلة على درجة كبيرة من التفاوت ؛ والحركـــة الاقتصادية بينهـــا هي الاقوى ، الاولية ، الحاسمة) ، وانه لا وجود هنـــا لأي شيء مطلق ، وان كل شيء نسبي . وبنظرهم ، لم يكن هيغل موجوداً . . .

صدرت للمرة الاولى بنصها الكامل في مجلة «Sozialistische Monatshefte» العـــدد ٢٠ـ٢١ ، عام ١٩٢٠

تصدر حسب المخطوطة تمت الترجمة نقلا عن الالمانية

• ـ من «راس المال» . الناشر .

من انجلس الى فرانتس مهرينغ

في برلين

لندن في ١٤ تموز (يوليو) ١٨٩٣

عزيزي السيد مهرينغ !

اليوم فقط استطيع اخيراً ان اشكرك على تلطفك وارسالك لي «اسطورة ليسينغ» واني اود ان لا اكتفي بمجرد بعث تاكيد صريح لك باستلامي الكتاب ، بل ان اقول لك ايضاً شيئاً ما عنه بالذات ، عن مضمونه . وهذا سبب تاخري في الجواب .

ابدأ من النهاية ، من الملحق «في المادية التاريخية» (٧٧) الذي عرضت فيه كنه المسالة عرضاً ممتازاً ، ومقنعاً لكل امرئ لا راي مسبقاً له . واذا كانت تظهر عندي بعض الاعتراضات ، فليس ذلك الا على انك تنسب الي من الافضال اكثر مما ينبغي ، حتى وان اعتبرنا كل ما يبلغ اليه تفكيري ، اغلب الظن ، ــ مع مر الزمن ــ بصورة مستقلة ، وما اكتشفه ماركس قبلي بزمن طويل ، وهو الذي يتحلى بنظر ابعد وافق اوسع ان من حالفه الحظ وعمل في سياق ٤٠ سنة مع رجل مثل ماركس ، لا يتمتع عادة في حياتــه بذلك التقدير الذي يمكنه ، على ما يبدو ، ان يامل به . ولكن عندمــا يموت الرجل العظيم ، يحدث بكل سهولة ان يشرعوا في تقديــر رفيقه الاقل شاناً منه باكثر مما يستحق ، وهذا ما يحدث لي الآن ، على ما يظهر بيد ان التاريخ يضــع كل شيء في مكانــه في آخر المطاف ، ولكن حتى ذاك ، سامضي مع السلامة الى العــالم الآخر ، ولن اعرف شيئاً عن اي شيء .

وعدا ذلك ، وقع تقصير في عنصر آخر فقط ، لم يتناوله التاكيد الكافي ، على العموم ، والحق يقال ، لا في اعمال ماركس ولا في اعمالي ، والذنب في هذا المجال نتشاطره جميعنا بالقدر نفسه واعني به اننا ركزنا بصورة رئيسية ، وكان ينبغي علينا ان نركز ، بادئ ذي بدء ، على استخلاص التصورات السياسية والحقوقية وغيرها من التصورات الايديولوجية ، والافعال التي تشترطها من الوقائع الاقتصادية التي تقوم في اساسها وبسبب المضمون ، اهملنا آنذاك مسالة الشكل : اي سبل يتبعها تشكل هذه التصورات ، وما الى ذلك . وهذا ما اعطى خصومنا الحجة المنشودة من اجل الاشاعات الكاذبة ، وكذلك من اجل تشويه يقدم باول بارت المثال الساطع عليه .

ان الايديولوجية انما هي عملية يقوم بها من يسمى بالمفكر ، وان عن ادراك ، ولكن عن ادراك خاطئ فان القوى المحركة الحقيقية التي تحمله على النشاط تظل مجهولة بالنسبة اليه ، والا لما كانت العملية عملية ايديولوجية . ولذا يصنع لنفسه تصورات عن قوى حافزة كاذبة او ظاهرية . وبما ان الكلام يتناول عملية التفكير ، فانه يستخلص المضمون وشكله على السواء من التفكير الصرف ، ــ إما من تفكيره بالذات ، وإما من تفكير اسلافه وهو يعنى بوجه الحصر بمادة تفكيرية ؛ وهو يعتقد صراحة ان هذه المادة وليدة التفكير ، وهو على العموم لا ينصرف الى دراسة اي مصدر آخر ، اكثر بعداً ومستقل عن التفكير . فان هذا الموقف من المسالة يبدو له بديهيا لأن كل عمل يبدو له مرتكزاً في آخر المطاف على التفكير ، اذ انه يتحقق بواسطة التفكير

ان الايديولوجي التاريخي (والتاريخي هنا يعني مجرد تعبير جامع يشمل المفهوم السياسي والحقوقي والفلسفي واللاهوتي ــ

وبكلمة ، جميع الميادين المتعلقة **بالمجتمع** لا بالطبيعة) يجد تحت تصرفه في كل ميدان من ميادين العلوم مادة معينة تشكلت بصورة مستقلة من تفكير الاجيال السابقة واتبعت سبيلا مستقلا ، خاصا بها من التطور في ادمغة هذه الاجيال المتعاقبة واحداً تلو آخر يقيناً انه من الممكن ان تؤثر ايضا في هذا التطور كاسباب مرافقة ، وقائع خارجية تتعلق بهذا او ذاك من الميادين ، ولكن هذه الوقائع ، كما يفترض ضمناً ، هي مع ذلك مجرد ثمرات عملية التفكير ، وعليه لا تزال دائماً في مضمار الفكر الخالص الذي يبدو كانه هضم بسلامة حتى اشد الوقائع عناداً .

ان ظاهرية التاريخ المستقل لاشكال البنيان السياسي والنظم الحقوقية والتصورات الايديولوجية في اي ميدان كان ، هي التي تعمي ، قبل غيرها ، اغلبية الناس فاذا كان لوثر وكالفين «يتغلبان» على الدين الكاثوليكي الرسمي ، واذا كان هيغل «يتغلب» على كانط وفيخته ، واذا كان روسو «يتغلب» بعقده الاجتماعي الجمهوري (٧٨) على الدستوري مونتسكيو بصورة غير مباشرة ، فان هذه عملية تبقى داخل اللاهوت والفلسفة وعلم الدولة ، وهي تمثل مرحلة في تطور ميادين التفكير هذه ولا تتخطى اطلاقا حدود التفكير . ومنذ ان ظهر ، علاوة على هذا ، الوهم البرجوازي حول خلود الانتاج الرأسمالي وكماله المطلق ، منذ ذلك الحين ، يعتبر «تغلب» الفيزيوقراطيين (٧٩) وآدم سميث على انصار المركنتيلية انتصاراً خالصا للفكر ، لا انعكاسا في ميدان التفكير للوقائع الاقتصادية المتغيرة ، يعتبر انه الفهم الحقيقي ، الذي تم بلوغه في آخر الامر ، للظروف الفعلية القائمة في كل مكان دون اي تغير ينجم مما سبق انه لو ان ريتشارد قلب الاسد وفيليب ـ اوغست

طبقا حرية التجارة بدلا من ان ينجرا الى الحروب الصليبية (٨٠) ، لامكن تجنب ٥٠٠ سنة من الفقر والجهل .

واني اعتقد اننا جميعنا اولينا هذا الجانب من القضية الذي لم استطع ان المسه هنا الا لمسا ، قدراً من الاهتمام اقل مما يستحق . وهذه حكاية قديمة : دائما في البدء لا يهتمون بالشكل بسبب المضمون . واكرر اني اقترفت هذا الخطا بنفسي ، وكان هذا الخطا يفقا عيني دائما «post festum» • ولهذا لست بعيداً وحسب عن توجيه اللوم اليك بالارتباط مع هذا ــ فليس لي اي حق في هذا لأني اذنبت قبلك في الامر نفسه ، بل بالعكس ، ــ ولكني وددت مع ذلك لو الفت انتباهك الى هذه النقطة من اجل المستقبل .

وبالارتباط مع هذا ، يوجد ايضا تصور سخيف عند الايديولوجيين : فنحن لا نقر بالتطور التاريخي المستقل لمختلف الميادين الايديولوجية التي تضطلع بدور في التاريخ ، فننكر بالتالي كل امكانية لتأثيرها في التاريخ . وفي اساس هذا ، يقوم تصور سطحي ، غير ديالكتيكي ، عن السبب والنتيجة يعتبرهما قطبين متضادين احدهما للآخر ابداً ودائما ، ويغيب عن البال كلياً التفاعل بينهما . ان هؤلاء السادة ينسون في كثير من الاحيان ، قصداً وعمداً تقريبا ، ان الظاهرة التاريخية ، التي تولدها بالاحرى اسباب من طراز آخر هي في آخر المطاف اسباب اقتصادية ، تصبح على الفور بدورها عاملا فعالا ، ويمكنها ان تؤثر بالمقابل في البيئة المحيطة وحتى في الاسباب التي ولدتها بارت ، مثلا ، بصدد المرتبة الدينية والدين ، عندك في ص ٤٧٥ فقد اعجبني

• حرفيا : بعد العيد ، اي بعد فوات الاوان . الناشر .

جداً كيف صفيت حساب هذا الكائن السافل الى درجة لا تصدق وهذا الكائن يعينونه استاذ التاريخ في ليبزيغ ! مع انه كان هناك العجوز فاكسموت ، وهو ، والحق يقال ، رجل ضيق الافق مثل بارت ، ولكنه رجل من طراز آخر تماما ، ويمتلك ناصية الوقائع بصورة ممتازة !

اما فيما يخص الكتاب ، ففي وسعي على العموم ان اكرر فقط ما سبق وقلته غير مرة بصدد المقالات التي ظهرت في «Neue Zeit» ! فهو افضل عرض بين العروض المتوفرة عن ولادة الدولة البروسية ، بل ان في وسعي ، اغلب الظن ، ان اقول انه العرض الجيد الوحيد الذي يكشف بصورة صحيحة ، في معظم الاحوال ، جميع الصلات المتبادلة ، بما فيها تفاصيلها الصغيرة. الا انه يمكن الاسف لأنك لم تستطع ان تدرس كذلك كل التطور اللاحق حتى بيسمارك : وبصورة عفوية ، يولد الأمل بانك ستفعل هذا في المرة القادمة وتعطي لوحة عامة في عرض مترابط ، ابتداء من الكورفورست (الامير) فريدريك غليوم وانتهاء بغليوم العجوز • ذلك انك قمت بالعمل مسبقاً ، بل انه يمكن القول انك قمت به نهائياً ، على الاقل في المسائل الاساسية والحال كان ينبغي القيام بذلك قبل ان ينهار كل هذا الصرح المتداعي . صحيح ان تدمير الاساطير المَلَكية الوطنية ليس مقدمة ضرورية بالقدر المظنون لأجل القضاء على المَلَكية التي تستر السيادة الطبقية (لأن الجمهورية الخالصة ، البرجوازية في المانيا صارت مرحلة من الماضي قبل ان تنشأ) ، ولكنه يشكل مع ذلك واحداً من اكثر الروافع فعالية لأجل هذا القضاء

• غليوم الاول . الناشر .

وآنذاك سيتوفر لك مزيد من المجال والامكانيات لأجل تصوير تاريخ بروسيا وحدها بوصفها جزءاً من العاهة الالمانية العامة وهذا ما يشكل تلك النقطة التي اختلف معك في شيء ما بصددها ، واعني بها فهمك لمقدمات تجزؤ المانيا ولفشل الثورة البرجوازية الالمانية في القرن السادس عشر . واذا تسنى لي وعدلت المقدمة التاريخية لكتابي «حرب الفلاحين» ، الامر الذي سيحدث ، كما اظن ، في الشتاء القادم ، فاني ساستطيع ان اطور فيها المسائل المتعلقة بهذا الموضوع . وليس ذلك لأني اعتبر المقدمات التي اوردتها غير صحيحة ، بل لأني ساقدم الى جانبها مقدمات اخرى واصنفها بنحو مختلف نوعاً .

عند دراسة التاريخ الالماني الذي هو عبارة عن حقارة وحسب ، اقتنعت دائما بان المقارنة مع العهود المقابلة من تاريخ فرنسا هي وحدها التي تعطي البعد الصحيح ، لأنه حدث في فرنسا تماما عكس ما حدث عندنا . فهناك ـ تشكل الدولة القومية من disjectis membris • الدولة الاقطاعية ؛ وعندنا ، في الوقت نفسه ـ الهبوط الاعمق . هناك ـ منطق موضوعي بديع في كل سير التطور ؛ وعندنا ـ بلبلة رهيبة ، مشتدة اكثر فاكثر هناك ـ في مرحلة القرون الوسطى ، كان الفاتح الانجليزي الذي يتدخل في مصلحة قوم اقليم بروفانس ضد قوم فرنسا الشمالية ، ممثلا للتدخل الاجنبي . والحروب ضد الانجليز هي نوع من حرب الثلاثين سنة (٨١) التي تنتهي هناك مع ذلك بطرد الاجانب المتدخلين وبخضوع الجنوب للشمال . ثم يعقب نضال السلطة المركزية ضد

• ـ اقسام مبعثرة . الناشر .

التابع البورغوندي * الذي يعتمد على ممتلكاته في الخارج والذي يوازي دوره دور براندنبورغ ـ بروسيا ، ولكن هذا النضال ينتهي بانتصار السلطة المركزية وينجز تشكيل الدولة القومية . اما عندنا ، فان الدولة القومية تنهار نهائياً في هذا الوقت بالذات (هذا اذا كان من الممكن تسمية «المملكة الالمانية» ضمن حدود الامبراطورية الرومانية المقدسة (٨٢) بالدولة القومية) ويبدأ ، على نطاق كبير ، سلب الاراضي الالمانية وهذه مقارنة مخجلة للغاية بالنسبة للالمان ، ولكنها لهذا السبب على وجه الضبط ذات دلالة خاصة ؛ ومنذ ان قدم عمالنا المانيا من جديد الى الصفوف الاولى من حركة التاريخ ، اصبح من الاسهل علينا بعض الشيء احتمال خزي الماضي .

ان السمة المميزة الخاصة تماماً التي يتميز بها التطور الالماني تقوم ايضاً في ان القسمين اللذين يشكلان الامبراطورية واللذين تقاسما بينهما في آخر المطاف المانيا بأسرها ، ليسا كلاهما الماليين صافيين ، بل كانا مستعمرتين في الارض السلافية المفتوحة : النمسا مستعمرة بافارية ، وبراندنبورغ مستعمرة ساكسونية ؛ ولم يظفرا بالسلطة في المانيا **بالذات** الا لأنهما كانا يعتمدان على ممتلكاتهما الاجنبية ، غير الالمانية النمسا ـ على المجر (فضلا عن بوهيميا) ، براندنبورغ على ـ بروسيا وعلى الحدود الغربية المتعرضة للخطر الاكبر ، لم يكن هناك اي شيء من هذا القبيل ؛ وعلى الحدود الشمالية ، عهدوا الى الدانماركيين انفسهم بامر حماية المانيا من الدانماركيين ؛ وفي الجنوب كانت الحاجة الى الحماية على

---

* ـ كارل الجريء . الناشر .

درجة من التفاهة بحيث ان الذين كان ينبغي عليهم ان يحموا الحدود ــ اي السويسريين ــ استطاعوا ان ينفصلوا عن المانيا !

ولكني انسقت وراء محاكمات متنوعة ؛ فلتكن هذه الثرثرة بالنسبة لك ، على كل حال ، برهانا على مبلغ الاهتمام الحي الذي استثاره عملك في نفسي .

مرة اخرى الشكر القلبي والتحية من المخلص لك

ف . انجلس

صدرت للمرة الاولى مع اختصارات في كتاب فرانتس مهرينغ «Geschichte des Deutschen Sozialdemokratie», Bd. III, Th II شتوتغارت ، عام ١٨٩٨

وصدرت بنصها الكامل باللغة الروسية في «مؤلفات كارل ماركس وفريدريك انجلس» الطبعة الاولى ، المجلد ٢٩ ، عام ١٩٤٦

تصدر حسب المخطوطة

تمت الترجمة نقلا عن الالمانية

من انجلس الى ف. بورغيوس (٨٣)

في بريسلاو*

لندن في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٨٩٤

سيدي الكريم !

اجيب عن اسئلتك :

١ ــ اننا نفهم بالعلاقات الاقتصادية التي نعتبرها الاساس المحدد لتاريخ المجتمع ، الاسلوب الذي ينتج به الناس في مجتمع معين وسائل العيش ويتبادلون به المنتوجات (ما دام يوجد تقسيم

* اسمها الحالي : فروتسلاف . الناشر .

العمل) . وعليه ، يدخل هنا **كل تكنيك** الانتاج والنقل . ووفقا لنظراتنا ، يحدد هذا التكنيك اسلوب التبادل ايضا ، ثم اسلوب توزيع المنتوجات ، وبالتالي ، بعد تفسخ النظام العشائري ، الانقسام الى طبقات ، وعلاقات السيادة والخضوع ، والدولة ، والسياسة ، والحق ، والخ ثم ان مفهوم العلاقات الاقتصادية يشمل ايضا **الاساس الجغرافي** الذي تتطور عليه هذه العلاقات ، وبقايا درجات التطور الاقتصادي السابقة ، البقايا التي انتقلت عمليا من الماضي والتي لا تزال قائمة ، جزئيا بفضل التقاليد فقط او بفضل vis inertiae • ، وكذلك ، طبعا ، البيئة الخارجية التي تحيط بهذا الشكل من اشكال المجتمع .

واذا كان التكنيك . كما تؤكد ، يتوقف بقدر ملحوظ على حالة العلم ، فان العلم يتوقف ، بقدر اكبر بكثير على **حالة التكنيك وحاجاته** . فاذا ظهرت عند المجتمع حاجة تكنيكية ، فان هذا يدفع العلم الى امام اكثر مما تدفعه عشر جامعات ان الهيدروستاتيكا كلها •• (توريتشيللي ، وغيره) قد اخرجتها الى النور الحاجة الى ضبط السيول الجبلية في ايطاليا في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ولم نعرف شيئا ما معقولا عن الكهرباء الا منذ اكتشاف امكان تطبيقها تكنيكيا . وفي المانيا ، اعتادوا ، مع الاسف ، ان يكتبوا تاريخ العلوم كانما العلوم هبطت من السماء .

٢ ـ نحن نعتقد ان الظروف الاقتصادية تشترط في آخر المطاف التطور التاريخي . والعرق نفسه عامل اقتصادي . ولكنه ينبغي هنا الا يغيب عن البال الامران التاليان :

• ـ بقوة الاستمرار . **الناشر** .

•• علم توازن الموائع وضغطها . **المترجم** .

أ ــ ان التطور السياسي ، والحقوقي ، والفلسفي ، والديني ، والأدبي ، والفني ، والخ .. ، يرتكز على التطور الاقتصادي ولكنها جميعها تؤثر كذلك بعضها في بعض وفي البناء التحتي الاقتصادي ولكنه ليس من الصحيح اطلاقا ان الوضع الاقتصادي وحده دون غيره هو السبب ، وانه هو وحده دون غيره الفعّال ، بينما الباقي كله لا يعدو ان يكون نتيجة منفعلة . كلا . فهنا يوجد تفاعل على اساس الضرورة الاقتصادية التي تشق لنفسها دائما طريقا في آخر المطاف . فان الدولة ، مثلا ، تمارس تأثيرها بواسطة رسوم الحماية الجمركية ، او بواسطة حرية التجارة ، او بواسطة سياسة ضرائبية صالحة او طالحة . بل ان ما يعانيه البرجوازي الصغير الالماني من ارهاق قاتل وعجز فاضح ، اشترطهما وضع المانيا الاقتصادي الحقير في الحقبة الممتدة من عام ١٦٤٨ الى عام ١٨٣٠ ، ووجدا تعبيراً عنهما في التقوى (٨٤) اولا ثم في العاطفية وفي التزلف العبودي امام الامراء والنبلاء لم يبق بدون تأثير في الاقتصاد . وكان هذا من اكبر العقبات امام النهوض الجديد ، وهذه العقبة لم تتزعزع الا لأن الحروب الثورية والنابليونية جعلت الفقر المزمن حاداً مدقعاً . وعليه لا يمارس الوضع الاقتصادي تأثيره بصورة اوتوماتيكية ، كما يتصور بعضهم لتسهيل الامر ، بل ان الناس هم الذين يصنعون تاريخهم ، ولكن في بيئتهم المعنية ، التي تشترطهم ، وعلى اساس العلاقات الفعلية القائمة التي تؤلف بينها الظروف الاقتصادية ــ مهما كان تأثير الظروف الاخرى ، السياسية والايديولوجية وغيرها قويا عليها ــ العنصر الحاسم مع ذلك في آخر المطاف وتشكل ذلك الخيط الاحمر الذي يتخلل التطور كله ويقود وحده الى فهم التطور .

ب ــ ان الناس هم الذين يصنعون تاريخهم ، ولكنهم صنعوه حتى الآن ، دون ان يسيروا على هدى ارادة مشتركة ، وخطة

مشتركة واحدة ، وحق خارج اطار مجتمع معني ، محدود بصورة واضحة . ان مطامحهم ومساعيهم تتشابك ، ولهذا تسود في جميع هذه المجتمعات **الضرورة** التي **الصدفة** تكملة لها وشكل لتجليها ان الضرورة التي تشق لنفسها طريقا هنا عبر جميع الصدف هي مع ذلك في آخر المطاف اقتصادية . وهنا نجابه مسالة من يسمون بالرجال العظام ان واقع ظهور هذا الرجل العظيم وهذا الرجل العظيم بالذات لا غيره في زمن معين وفي بلد معين هو بالطبع مجرد صدفة . ولكن اذا أُزيل هذا الرجل ، ظهر طلب بـاحلال بديل محله ، وهذا البديل ينوجد ، ويكون موفقا الى هذا الحد او ذاك ، ولكنه ينوجد مع مر الزمن . اما ان نابليون ، هذا الكورسيكي على وجه الضبط ، كان ذلك الديكتاتور العسكري الذي غدا ضروريـا للجمهورية الفرنسية التي انهكتهـا الحرب ، فان هذا كان صدفة . ولكن لو لم يكن نابليون موجوداً ، لقام بدوره رجل آخر . وهذا ما يثبته انه دائما كان ينوجد مثل هذا الرجل عندما كانت تظهر الحاجة اليه : قيصر ، اوغسطوس ، كروموبل ، الخ .. واذا كان ماركس هو الذي اكتشف المفهوم المادي للتاريخ ، فان تييري ومينيه وغيزو وجميع المؤرخين الانجليز قبل عام ١٨٥٠ يشكلون برهاناً على ان الامور كانت تسير نحو هذا ، بينا يبين اكتشاف مورغان للمفهوم ذاته ان الزمن قد نضج لهذا الغرض وانه كان لا بدّ من تحقيق هذا الاكتشاف .

كذلك بالذات هو حال جميع الصدف الاخرى وجميع الصدف الظاهريـة في التاريخ . وبقدر ما يبتعد الميدان الذي ندرسه عن الميدان الاقتصادي ، وبقدر مـا يقترب من الميدان الايديولوجي المجرد الصرف ، بقدر ما نجد المزيد من الصدف في تطوره ، ويزداد خطه المنحنى تعرجاً والتواء . واذا رسمت المحور الاوسط للخط المنحني ، وجدت انه بقدر ما تكون المرحلة المدروسة اكثر طولا، والميدان المدروس اكثر سعة ، بقدر ما يقترب هذا المحور من محور التطور الاقتصادي ويسير بموازاته .

ان ما يلقاه التاريخ الاقتصادي في الادب من اهمال لا غفران له هو في المانيـــا اكبر عقبة امام الفهم الصحيح . فليس من الصعب جداً وحسب التخلي عن التصورات بصدد التطور التاريخي المغروسة في المدرسة ، بل انه من الاصعب ايضـــاً جمع المادة اللازمة لأجل هذا الغرض . فمن ذا الذي قـــرأ ، مثلا ، وإنْ مؤلفـــات العجوز غ . فون غوليخ الذي جمع في مجموعـــة جافة من المواد (٨٥) الكثير والكثير من الاشياء القيمة لأجل تفسير كثرة لا عد لهـــا من الوقائع السياسية !

امـــا على العموم ، فاني اعتقد ان ذلك النموذج البديع الـذي اعطاه ماركس في «الثامن عشر من برومير» • لا بدّ له ان يعطيك الجواب الكامل عـــن اسئلتك لأنه على وجه الضبط مثـــال عملي واغلبية الاسئلة ، كما يخيل اليّ ، تناولتها في «ضد دوهرينغ» القسم الاول ، الفصل التاسع والعاشر والحادي عشر ، والقسم الثاني ، الفصل الثاني والثالث والرابع ، والقسم الثالث ، الفصل الاول ، او في المقدمة ، وعدا ذلك ، في الفصل الاخير من «فورباخ» ••

ارجوك الاّ تنظر بعين التعنت الى كل كلمة في المعروض اعلاه ، والاّ تغيب عن بالك ابداً الصلة العامة المشتركة ؛ فمع الاسف ، لم يتوفر لي الوقت لكي اعرض لك كل شيء بما ينبغي من الوضوح والدقة لو كان هذا معداً للطبع والنشر . . .

صدرت للمرة الاولى في مجلة «Der Sozialistische Akademiker» العدد ٢٠ ، عام ١٨٩٥

تصدر حسب نص المجلة تمت الترجمة نقلا عن الالمانية

• راجع الطبعة الحالية . الجزء الاول ، ص ص ١٤٨ــ٢٩٩ . الناشر .
•• راجع هذا المجلد ، ص ص ٨ــ٦٩ . الناشر .

ملاحظات

١ ــ يبين مبحث انجلس «**لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية**» عملية نشوء الفلسفة الماركسية ويكشف جوهرها ، ويقدم عرضا منهاجيا لأسس المادية الديالكتيكية والتاريخية ، ويبسط كذلك موقف الماركسية من الفلسفات السابقة في شخص اكبر ممثلين عن الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، هيغل وفورباخ .

وفي هذا المبحث ، يكشف انجلس أهم خاصة من خصائص تاريخ الفلسفة في سياق وجودها ، وهي الصراع بين معسكري المادية والمثالية . ويعطي للمرة الاولى تعريفا كلاسيكيا للمسالة الاساسية في الفلسفة ، مسالة العلاقة بين التفكير والوجود ، بين الروح والطبيعة . وتبعا للجواب الذي يعطيه هذا الفيلسوف او ذاك عن هذه المسالة الاساسية في الفلسفة ، نعرف الى اي من هذين المعسكرين في الفلسفة ينتسب

ويشير انجلس الى بطلان المحاولات الرامية للتوفيق بين المادية والمثالية بانشاء فلسفة وسيطة (الاثنينية ، العجزية) ، ويدحض العجزية في جميع مظاهرها ويبين وان اعظم دحض حاسم لهذه الاحابيل الفلسفية ولجميع الاحابيل الاخرى هو العمل وعلى الاخص التجربة والصناعة» (راجع ص ٢٣) .

ويكشف انجلس جوهر الانقلاب الثوري الذي احدثه ماركس في الفلسفة نتيجة لوضعه المادية الديالكتيكية . ويدرس بالتفصيل كنه المادية التاريخية التي اكتشفت قوانين التطور العامة السارية المفعول في تاريخ المجتمع البشري ؛ ويشير الى ان التطور التاريخي يقوم على اساس العلاقات الاقتصادية التي تحدد طابع النظام السياسي والادراك الاجتماعي بجميع اشكاله وصوره ، بما فيها الدين والفلسفة ، ويؤكد في الوقت نفسه دور الابنية الفوقية الايديولوجية الفعال ، وقدرتها على التطور المستقل والتأثير المقابل في الاساس الاقتصادي .

ومن اكبر مآثر انجلس ، انه علل مبدأ حزبية الفلسفة بالاستناد الى مثال كل تاريخ الصراع بين التيارات الفلسفية التي تعكس صراع الطبقات والاحزاب . ثم ان مبحث انجلس هذا نفسه هو مثال على الحزبية البروليتارية وعلى المبدئية في الفلسفة . ــ ص ٥.

٢ ــ «Die Neue Zeit» (والازمنة الحديثة») ، مجلة نظرية للاشتراكية ـ الديموقراطية الالمانية ، صدرت في شتوتغارت في سنوات ١٨٨٣ ــ ١٩٢٣ وفي ١٨٨٥ ــ ١٨٩٥ نشر انجلس في المجلة بعض مقالاته . ــ ص ٦

٣ ــ في ١٨٣٣ ــ ١٨٣٤ نشر هينه مؤلفيه «المدرسة الرومانطيقية» و «عن تاريخ الدين والفلسفة في المانيا» ؛ وفيهما اورد الفكرة القائلة ان الثورة الفلسفية في المانيا ، التي كانت فلسفة هيغل آنذاك مرحلتها الختامية ، هي مقدمة الثورة الديموقراطية العتيدة في المانيا . ــ ص ٩

٤ ــ راجع هيغل «فلسفة الحق المقدمة» . ــ ص ٩

٥ ــ البيتيست (من الكلمة اللاتينية pietas ــ التقوى) ، انصار تيار ديني صوفي بين بروتستانت اوروبا الغربية في اواخر القرن السابع عشر والنصف الاول من القرن الثامن عشر ؛ ظهر في البدء في هولندة والمانيا لم ينشئ هذا التيار شيعة خاصة ، بل كان عبارة عن حركة رجعية موجهة ضد العقلانية والفلسفة التنويرية . ــ ص ١٧

٦ ــ «Deutsche Jahrbücher für Wissenschaft und Kunst» («والحولية الالمانية للعلم والفن») ، مجلة ادبية فلسفية للهيغليين الشباب صدرت بهذا الاسم من تموز (يوليو) ١٨٤١ الى كانون الثاني (يناير) ١٨٤٣ في ليبزيغ . ــ ص ١٧

٧ ــ «Rheinische Zeitung für Politik, Handel und Gewerbe» («والجريدة الرينانية في شؤون السياسة والتجارة والصناعة») ، جريدة يومية . صدرت في كولونيا من اول كانون الثاني (يناير) ١٨٤٢ الى ٣١ آذار (مارس) ١٨٤٣ . ابتداء من نيسان (ابريل) ١٨٤٢ ، عاون ماركس

في الجريدة ، وابتداء من تشرين الاول (اكتوبر) من السنة ذاتها ، اصبح احد محرريها . ــ ص ١٧

٨ ــ يقصد كتاب شتيرنر «Der Einzige und sein Eigenthum» («الوحيد وملكه») الذي صدر في ليبزيغ عام ١٨٤٥ . ــ ص ١٨

٩ ــ **«الاشتراكية الصحيحة»** ، تيار رجعي انتشر في المانيا في الاربعينيات من القرن التاسع عشر ، ولا سيما بين المثقفين البرجوازيين الصغار . وصف ماركس وانجلس «الاشتراكية الصحيحة» في «بيان الحزب الشيوعي» (راجع هذه المجموعة الجزء الاول ص ص ٨٣ــ٨٧) . ــ ص ١٩

١٠ ــ **الفلسفة الكلامية** Scolastique (السكولاستية) ، هي فلسفة دينية سادت في القرون الوسطى ، وتميزت باقصى التجريد وكامل الانفصال عن الواقع الحي ، وحاولت ان تعلل وتدعم عقائد الكنيسة المسيحية بشتى احابيل المنطق . ــ ص ٢٢

١١ ــ المقصود هنا الكوكب نيبتون الذي اكتشفه عام ١٨٤٦ ، يوهان غاله ، الفلكي الالماني . ــ ص ٢٤

١٢ ــ **العجزيون** ــ انصار العجزية ؛ **والعجزية** Agnosticisme **(اللاادرية ، الانكارية)** (من اليونانية : A ــ محروم ، لا ؛ و gnosis ــ معرفة) ، مذهب مثالي يزعم انه تستحيل معرفة العالم ، وان العقل البشري محدود ، وعاجز عن معرفة اي شيء يقع خارج الاحساسات تتجلى العجزية باشكال مختلفة بعضهم يعترف بالوجود الموضوعي للعالم المادي ولكنه ينكر امكانية معرفته ؛ وبعض آخر ينكر وجود العالم المادي باعتبار ان الانسان ، حسب زعمه ، عاجز عن معرفة ما اذا كان يوجد شيء ما خارج احساساته . ــ ص ٢٤

١٣ ــ المقصود هنا القرن الثامن عشر . ــ ص ٢٦

١٤ ــ وفقا للنظرات السائدة في الكيمياء في القرن الثامن عشر كانوا يعتبرون ان عملية الاحتراق مشروطة بوجود مادة خاصة في الاجسام هي الفلوغيستون التي تنفرز من الاجسام اثناء الاحتراق . اثبت العالم الكيماوي

الفرنسي البارز لافوازيه بطلان هذه النظرية واوضح بصورة صحيحة عملية الاحتراق بوصفها تفاعل بين المادة المحترقة والاوكسيجين . ـ ص ٢٧

١٥ ـ **التأليه السببي** Deisme (او التاليه الطبيعي) ، مذهب ديني فلسفي يقر بوجود الله بوصفه سببا اوليا عاقلا ، غير شخصي ، لوجود الكون ، ولكنه ينفي تدخله في حياة الطبيعة والمجتمع . ـ ص ٣٢

١٦ ـ تعبير انتشر جداً في الادب السياسي البرجوازي الالماني بعد انتصار القوات البروسية في معركة سادوفا (في الحرب النمساوية ـ البروسية عام ١٨٦٦) . وتبعا لمعناه ، كان انتصار بروسيا ، كما يزعم ، نتيجة لافضليات النظام البروسي في التعليم العام . ـ ص ٤٢

١٧ ـ المقصود هنا ثورة ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ البرجوازية ـ الديموقراطية في المانيا . ـ ص ٤٤

١٨ ـ **عودة الملكية ١٨١٤ ـ ١٨٣٠** ، المرحلة الثانية من حكم سلالة بوربون في فرنسا . اطاحت ثورة تموز (يوليو) ١٨٣٠ بنظام آل بوربون الرجعي الذي كان يمثل مصالح النبلاء والاكليريكيين . ـ ص ٥٧

١٩ ـ لا يقصد انجلس القانون المدني Code Civil الذي سنّه نابليون الاول في عام ١٨٠٤ والمعروف باسم «قانون نابليون» وحسب ، بل يقصد كذلك ، بمعنى التعبير الواسع ، كل نظام الحق البرجوازي ، المتمثل بالقوانين الخمسة (القانون المدني ، قانون اصول المحاكمات المدنية ، قانون التجارة ، قانون الجزاء ، قانون اصول المحاكمات الجزائية) التي صدرت في عهد نابليون الاول بين عامي ١٨٠٤ و١٨١٠ وقد طبقت هذه القوانين في المقاطعات التي احتلتها فرنسا النابليونية في المانيا الغربية والمانيا الجنوبية الغربية ، وظلت سارية المفعول في الاقليم الرين حتى بعد انضمامه الى بروسيا في ١٨١٥ . ـ ص ٦١

٢٠ ـ **الرينيسانس** (او «عهد النهضة») ، مرحلة في تطور جملة من بلدان اوروبا الغربية والوسطى في الحقلين الثقافي والايديولوجي ، اشترطها نشوء العلاقات الرأسمالية وشملت النصف الثاني من القرن الخامس عشر

والقرن السادس عشر . وعادة يقرنون مرحلة النهضة بازدهار الفن والعلم ازدهاراً عاصفاً ، وبتجدد الاهتمام بثقافة العالم القديم (ومن هنا جاء اسم هذه المرحلة) وصف انجلس عهد النهضة في مؤلفه «مقدمة «ديالكتيك الطبيعة» » (راجع المجموعة الحالية . الجز الثاني) .ـ ص ٦٢

٢١ ـ **المجمع النيقاوي** ، اول مجمع كنسي كوني لاساقفة الكنيسة المسيحية في الامبراطورية الرومانية ؛ انعقد عام ٣٢٥ بدعوة من الامبراطور قسطنطين الاول في مدينة نيقا (آسيا الصغرى) . وضع هذا المجمع قانوناً الزامياً على جميع المسيحيين اسمي «قانون الايمان» .ـ ص ٦٤

٢٢ ـ **الالبيجيون** (نسبة الى مدينة ألبي في جنوب فرنسا) ، اعضاء نحلة دينية انتشرت في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر في مدن جنوب فرنسا وشمال ايطاليا عارضوا الطقوس الكاثوليكية الفخمة والطغمة الكنسية ، واعربوا بشكل ديني عن احتجاج سكان المدن من حرفيين وتجار على الاقطاعية .ـ ص ٦٤

٢٣ـ من ١٤٧٧ الى ١٥٥٥ ، كانت هولنده جزءاً من الامبراطورية الرومانية المقدسة للامة الالمانية (راجع الملاحظة ٨٢) ؛ بعد تقسيم هذه الامبراطورية ، وقعت هولنده تحت سيطرة اسبانيا . في اواخر الثورة البرجوازية في القرن السادس عشر ، تحررت هولنده من السيطرة الاسبانية وصارت جمهورية برجوازية مستقلة .ـ ص ٦٥

٢٤ ـ اطلق اسم «الثورة المجيدة» في علم التاريخ البرجوازي البريطاني ، على الانقلاب الحكومي الذي وقع في عام ١٦٨٨ وادى الى الاطاحة بسلالة ستيوارت في انجلترا واقام نظاماً ملكياً دستورياً (عام ١٦٨٩) برئاسة وليام اورانج .ـ ص ٦٦

٢٥ ـ في جو الملاحقات السياسية والدينية التي اشتدت منذ العشرينيات من القرن السابع عشر ضد البروتستانت الكالفينيين (الهوغنوت) ، الغى لويس الرابع عشر في عام ١٦٨٥ امر نانت الصادر في عام ١٥٩٨ والذي كان يمنح الهوغنوت حرية العقيدة الدينية وممارسة الشعائر الدينية نتيجة الالغاء امر نانت ، هاجر بضع مئات الآلاف من الهوغنوت من فرنسا .ـ ص ٦٦ .

٢٦ ــ اثر انتصار بروسيا على فرنسا في الحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠ــ١٨٧١) ، نشأت الامبراطورية الالمانية ، ولكن دون ان تشمل النمسا ؛ ومن هنا جاء اسم «الامبراطورية الالمانية الصغرى» . ــ ص ٦٧

٢٧ ــ ان مبحث «مسألة الفلاحين في فرنسا والمانيا» هو من اهم وثائق الماركسية في المسألة الزراعية اما الدافع المباشر الذي دفع انجلس الى كتابة هذا المبحث ، فهو محاولة فولمار وغيره من الانتهازيين استغلال مناقشة مشروع البرنامج الزراعي في مؤتمر الاشتراكية ـ الديموقراطية الالمانية الذي انعقد في مدينة فرانكفورت عام ١٨٩٤ ، من اجل تمرير «نظريات» معادية للماركسية تقول بتحول العناصر الكولاكية في الريف تدريجيا الى الاشتراكية ، الخ . . وهناك دافع آخر دفع انجلس الى ابداء رأيه علنا في هذه المسألة على صفحات الصحف ، هو الرغبة في تصحيح اخطاء الاشتراكيين الفرنسيين الذين انحرفوا عن الماركسية واجروا تنازلات للانتهازية في برنامجهم الزراعي (الذي اقره مؤتمرهم في مرسيليا عام ١٨٩٢ واكمله مؤتمرهم في نانت عام ١٨٩٤)

والى جانب النقد ، يوضح انجلس في هذا المبحث الاسس الثورية لسياسة البروليتاريا حيال مختلف فئات الفلاحين ويطور فكرة التحالف بين الطبقة العاملة والفلاحين الكادحين . ــ ص ٧٠

٢٨ ــ المقصود هنا المرحلة الممتدة من ١٨٥٢/١٢/٢ الى ١٨٧٠/٩/٤ ، والمرتبطة بحكم الامبراطور نابليون الثالث . ــ ص ٧١

٢٩ ــ من ٢٤ الى ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٨٩٢ انعقد في مرسيليا المؤتمر العاشر لحزب العمال الفرنسي بحث المؤتمر القضايا المتعلقة بوضع الحزب ونشاطه ، وبالاحتفال باول ايار (مايو) وبالاشتراك في المؤتمر العمالي الاشتراكي العالمي في زوريخ عام ١٨٩٣ ، وبالاشتراك في الانتخابات النيابية المقبلة ، وغيرها من القضايا

كانت مسألة العمل في الريف اهم نقطة في جدول اعمال المؤتمر ، وقد فرضها نهوض الحركة الفلاحية في البلد والرغبة في الحصول على مساندة الفلاحين في الانتخابات النيابية . اقر المؤتمر برنامجا زراعيا طرح عدداً من

المطالب الملموسة في صالح البروليتاريا الريفية والفلاحين الصغار ولكن هذا البرنامج تضمن ايضا جملة من الانحرافات عن المبادئ الاشتراكية وتنازلات معينة لاوهام الفلاحين البرجوازية الصغيرة وامزجتهم القائمة على اساس الملكية وحتى لادعاءات الفئات الميسورة منهم بالاستثمار وهذه الاخطاء التي كانت تعكس تاثير الميول الانتهازية ، قد تفاقمت في حيثيات البرنامج التي اقرها مؤتمر الحزب في نانت وفي الاضافات على البرنامج .ـ ص ٧٦

٣٠ ـ ايبوتيكا Hypothéque ، الرهن العقاري ، قرض برهن الاموال غير المنقولة في المدينة او القرية ، ولا سيما الارض وكذلك البيوت . ـ ص ٨٩

٣١ ـ Sozialdemocrat (والاشتراكي ـ الديموقراطي») ، جريدة اسبوعية للحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي الالماني ؛ صدرت في برلين في ١٨٩٤ و١٨٩٥

تقرير لافارغ «الملكية الفلاحية والتطور الاقتصادي» الذي اشار اليه انجلس ، نشر في ملحق للجريدة في ١٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٤ .ـ ص ٩٥

٣٢ ـ البوتكر ، بمعنى الكلمة الضيق ، طبقة النبلاء ـ ملاكي الاراضي في بروسيا الشرقية بالمعنى الواسع ، طبقة الاقطاعيين العقاريين الالمان .ـ ص ٩٨

٣٣ ـ في سياق الكلام عن «الامبراطورية الالمانية للامة البروسية» يحور انجلس اسم الامبراطورية الرومانية المقدسة للامة الالمانية في القرون الوسطى ويشير بذلك الى ان توحيد المانيا ، اي تاسيس الامبراطورية الالمانية في عام ١٨٧١ اثر الانتصار على فرنسا ، قد جرى تحت زعامة بروسيا ورافقه ضم الاراضي الالمانية الى بروسيا .ـ ص ٩٨

٣٤ ـ مقدمة لكتاب كارل ماركس «النضال الطبقي في فرنسا من ١٨٤٨ الى ١٨٥٠» كتبها انجلس لأجل طبعة منفردة لهذا الكتاب صدرت في برلين عام ١٨٩٥ .

بعد تبيان كل اهمية التحليل الذي اعطاه ماركس في مؤلفه عن سير ثورة ١٨٤٨ـ١٨٤٩ ودروسها ، خصص انجلس قسما كبيراً من عمله هذا لتصميم الخبرة اللاحقة لنضال البروليتاريا الطبقي ، ولا سيما في المانيا وقد اشار انجلس في مقدمته الى ضرورة الاستفادة بطريقة ثورية من جميع الوسائل الشرعية لأجل اعداد البروليتاريا للثورة الاشتراكية ، والى ضرورة الجمع بمهارة بين النضال من اجل الديموقراطية والنضال من اجل الثورة الاشتراكية ، والى ضرورة اخضاع المهمة الاولى للثانية . ومن جديد ، علل انجلس في مقدمته الموضوعة الماركسية الاساسية القائلة بتبعية اختيار الطرائق التكتيكية واشكال النضال للوضع التاريخي الملموس ، وبضرورة الاستعاضة عن اشكال النشاط الثوري السلمية المفضلة بالنسبة للبروليتاريا بالاشكال غير السلمية في حال لجوء الطبقات السائدة الرجعية الى العنف

عند نشر المقدمة ، طلبت قيادة الحزب الاشتراكي-الديموقراطي الالماني من انجلس بالحاح ان يخفف لهجة عمله الثورية ، المتطرفة حسب رأي هذه القيادة ، وان يصوغه بشكل اكثر احتراسا ولكن انجلس انتقد قيادة الحزب على موقفها المائع ، وعلى سعيها الى «العمل في نطاق الشرعية بوجه الحصر» بيد انه اضطر الى مراعاة رأي القيادة ، فوافق على حذف بعض الفقرات في المسودة وعلى تعديل بعض الصيغ (هذه الفقرات المحذوفة والتعديلات اشير اليها في اسفل الصفحة المعنية . ان المسودات التي اجريت عليها هذه التعديلات ، ومخطوطة المقدمة تتيح بعث النص الاصلي كليا)

وفي الوقت نفسه ، قام بعض زعماء الاشتراكية-الديموقراطية بمحاولة لتصوير انجلس ، بالاستناد الى هذه المقدمة ، بصورة نصير لانتقال السلطة بشكل سلمي بوجه الحصر الى الطبقة العاملة في جميع الظروف ، كانما كان انجلس نصير «الشرعية باي ثمن كان» استاء انجلس فنديد الاستياء وانّح على نشر مقدمته في مجلة «Neue Zeit» . ولكن المجلة نشرت المقدمة بالتعديلات التي اضطر الى اجرائها في الطبعة المنفردة المنوه بها اعلاه . ولكن المقدمة احتفظت كليا بطابعها الثوري حتى مع نشرها معدلة .

وقد صدرت مقدمة انجلس بنصها الكامل للمرة الاولى في الاتحاد السوفييتي عام ١٩٣٠ وذلك في كتاب كارل ماركس «النضال الطبقي في فرنسا من ١٨٤٨ الى ١٨٥٠» .ـ ص ١٠١

٣٥ ـ «Neue Rheinische Zeitung. Organ der Demokratie»
(«الجريدة الرينانية الجديدة لسان حال الديموقراطية») ، صدرت يوميا في كولونيا بتحرير ماركس من اول حزيران (يونيو) ١٨٤٨ الى ١٩ ايار (مايو) ١٨٤٩ كان انجلس عضواً في هيئة تحريرها .ـ ص ١٠١

٣٦ ـ «Neue Rheinische Zeitung. Politisch-ökonomische Revue»
(«الجريدة الرينانية الجديدة عرض سياسي واقتصادي») ، مجلة ، لسان الحال النظري لعصبة الشيوعيين ، اسسها ماركس وانجلس صدرت من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٩ الى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٠ صدر منها ستة اعداد .ـ ص ١٠٤

٣٧ـ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ ، يوم الانقلاب الحكومي المعادي للثورة الذي قام به لويس بونابرت وانصاره في فرنسا .ـ ص ١٠٤

٣٨ ـ المقصود هنا الاعانات الحكومية التي يسميها انجلس ، سخراً وتهكما ، باسم عقار بيسمارك ، الذي اهداه اياه الامبراطور غليوم الاول ، والذي كان يقع في ساكسنفالد (غاب ساكسونيا) بجوار مدينة هامبورغ .ـ ص ١٠٦

٣٩ ـ In partibus infidelium (حرفيا «في بلاد الكفار») ، اضافة الى لقب الاساقفة الكاثوليكيين المعينين في مناصب الاساقفة الاسمية الصرف في البلدان غير المسيحية . وكثيراً ما يرد هذا التعبير عند ماركس وانجلس بصدد مختلف حكومات المهاجرين التي كانت تتشكل في الخارج دون حسبان الحساب للوضع الفعلي في البلد .ـ ١٠٧

٤٠ ـ المقصود هنا الليجيتيميون والاورليانيون

الليجيتيميون («Légitime» الشرعيون) ، انصار سلالة بوربون («الشرعية») التي اسقطت في عام ١٨٣٠ وكانت تمثل مصالح الملكية

العقارية الكبيرة الوراثية وفي الصراع ضد آل اورليان الحاكم ١٨٣٠ـ ١٨٤٨) والمعتمد على الاريستقراطية المالية والبرجوازية الكبيرة لجا قسم من الشرعيين في احيان كثيرة الى الديماغوجية الاجتماعية مصورين انفسهم مدافعين عن الشغيلة دون المستثمرين البرجوازيين

الاورليانيون ، انصار دوقات اورليان الذين هم الفرع الاصغر من سلالة بوربون الذي تسلم زمام الحكم منذ ثورة تموز (يوليو) ١٨٣٠ والذي اسقطته ثورة ١٨٤٨ ؛ عبر عن مصالح اريستوقراطية المال والبرجوازية الكبيرة .ـ ص ١١٢

٤١ ـ في عهد نابليون الثالث ، اشتركت فرنسا في حرب القرم (١٨٥٤ـ١٨٥٥) ، وخاضت الحرب ضد النمسا من اجل ايطاليا (١٨٥٩) واشتركت مع انجلترا في الحروب ضد الصين (١٨٥٦ـ١٨٥٨ ، و١٨٦٠) وبدأت تحتل الهند الصينية (١٨٦٠ـ١٨٦١) ، ونظمت التدخل المسلح في سوريا (١٨٦٠ـ١٨٦١) والمكسيك (١٨٦٢ـ١٨٦٧) ، واخيراً شنت الحرب على بروسيا (١٨٧٠ـ١٨٧١) .ـ ص ١١٢

٤٢ ـ يستعمل انجلس اصطلاحا اصبح تعبيراً عن احد مبادى السياسة الخارجية للاوساط الحاكمة في عهد الامبراطورية الثانية البونابرتية (١٨٥٢ـ١٨٧٠) ، وهو ما يسمى «مبدأ القوميات» ؛ وقد استغلت الطبقات السائدة في الدول الكبرى هذا المبدأ على نطاق واسع بصفة ستار ايديولوجي لخططها للغزو والفتح وفي مغامراتها في ميدان السياسة الخارجية ان «مبدأ القوميات» الذي لا يمت باي صلة الى مبدأ حق الامم في تقرير مصيرها قد استغل لتسعير العداوة القومية ، ولتحويل الحركة القومية ولا سيما حركات الشعوب الصغيرة الى اداة للسياسة المعادية للثورة التي كانت تنتهجها الدول الكبرى المتنافسة فيما بينها .ـ ص ١١٢

٤٣ ـ الحرب النمساوية ـ البروسية في ١٨٦٦ ، انتهت بانتصار بروسيا ، ووضعت حداً للتنافس الذي دام سنوات طويلة بين هاتين الدولتين ، وقررت سلفاً امر توحيد المانيا بزعامة بروسيا اشترك عدد من الدويلات الالمانية في هذه الحرب الى جانب النمسا ، وتحالفت بروسيا مع ايطاليا . بموجب معاهدة الصلح المعقودة في براغ ، تنازلت النمسا

لبروسيا عن حقوقها في شليسفيغ وهولشتين ، ودفعت لها غرامة صغيرة واحالت الى التاج الايطالي مقاطعة البندقية وزال من الوجود الحلف الالماني الذي انشىء في عام ١٨١٥ في مؤتمر فيينا ، والذي كان يضم اكثر من ٣٠ دويلة المانية ، وعوضا عنه انشىء حلف المانيا الشمالية بدون مشاركة النمسا وتحت زعامة بروسيا وبنتيجة الحرب الحقت كذلك بروسيا بها مملكة هانوفر وامارة هيسن-كاسل ، ودوقية ناساو الكبرى ، ومدينة فرانكفورت على الماين الحرة

ونظراً للازمة السياسية التي اشتدت بعد الهزيمة ، ونظراً لتنامي حركة التحرر الوطني ، اضطرت الاوساط الرجعية النمساوية الى الاقدام ، من جهة ، على الاتفاق مع المجر حول تاسيس مملكة ثنائية ــ هي النمسا-المجر ــ ومن جهة اخرى ، على عدد من التنازلات السياسية في صالح البرجوازية وسع الدستور الذي سن في عام ١٨٦٧ صلاحيات الهيئة التمثيلية ــ الريخسرات ــ واقر مسؤولية الوزراء ، والخدمة العسكرية الالزامية العامة ، ومركزية الادارة اشترك الليبراليون البرجوازيون في الحكومة الى جانب ممثلي الاريستقراطية .ــ ص ١١٢

٤٤ ــ **كومونة باريس عام ١٨٧١** ، حكومة ثورية للطبقة العاملة ، دامت من ٢٨ آذار (مارس) الى ٢٨ ايار (مايو) ١٨٧١ ، وهي اول تجربة تاريخية لديكتاتورية البروليتاريا بمعنى الكلمة الواسع ، يسمون كذلك كومونة باريس الثورة البروليتارية بالذات التي نشبت في ١٨ آذار ١٨٧١ ومرحلة ديكتاتورية البروليتاريا التي تلتها ويتناول مؤلف والحرب الاهلية في فرنسا» تاريخ كومونة باريس ويكشف جوهرها بالتفصيل (راجع الطبعة الحالية الجزء ٢ ص ص ١٢٢ــ٢٣٢) .ــ ص ١١٣

٤٥ ــ عن هذه الواقعة التي استثارت انتفاضة ١٨ آذار (مارس) ١٨٧١ ، راجعوا مؤلف والحرب الاهلية في فرنسا» (الطبعة الحالية الجزء الثاني . ص ص ١٧٦ــ١٧٧) .ــ ص ١١٣

٤٦ ــ المقصود هنا غرامة الـ ٥ مليارات فرنك التي كان ينبغي على فرنسا ان تدفعها لالمانيا بموجب معاهدة الصلح المعقودة في فرانكفورت على الماين في ١٠ ايار (مايو) ١٨٧١ .ــ ص ١١٥ .

٤٧ ـ من **القانون الاستثنائي ضد الاشتراكيين** في المانيا في ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٧٨. بموجب هذا القانون منعت جميع منظمات الحزب الاشتراكي الديموقراطي ومنظمات العمال الجماهيرية والصحف العمالية ؛ وصودرت المطبوعات الاشتراكية ، وتعرض الاشتراكيون الديموقراطيون للملاحقات وتحت ضغط الحركة العمالية الجماهيرية الغي القانون في اول من تشرين الاول عام ١٨٩٠ ـ ص ١١٥

٤٨ ـ الحق الانتخابي العام طبقه بيسمارك في ١٨٦٦ لأجل انتخابات الريخستاغ في المانيا الشمالية ، وفي ١٨٧١ لأجل انتخابات الريخستاغ في الامبراطورية الالمانية الموحدة . ـ ص ١١٦

٤٩ ـ يستشهد انجلس بالمقدمة النظرية التي كتبها ماركس للبرنامج الذي اقره حزب العمال الفرنسي في مؤتمره المنعقد في مدينة الهافر عام ١٨٨٠ . ـ ص ١١٧

٥٠ ـ في ٤ ايلول (سبتمبر) ١٨٧٠ ، قامت الجماهير الشعبية في باريس ، بعد وصول نبأ هزيمة الجيش الفرنسي في سيدان ، بانتفاضة ثورية ادت الى سقوط نظام الامبراطورية الثانية واعلان الجمهورية برئاسة حكومة الدفاع الوطني البرجوازية .

في ٣١ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٧٠ ، علم عمال باريس والقسم الثوري من الحرس الوطني بقرار حكومة الدفاع الوطني الشروع بمفاوضات مع البروسيين ، فقاموا بانتفاضة واستولوا على مبنى البلدية وانشاوا هيئة للسلطة الثورية هي لجنة الانقاذ العام برئاسة بلانكي . تحت ضغط العمال ، اضطرت حكومة الدفاع الوطني الى الوعد بالاستقالة وتعيين الانتخابات الى الكومونة في اول تشرين الثاني (نوفمبر) ولكن الحكومة استغلت النقص في تنظيم القوى الثورية في باريس والخلافات بين البلانكيين قادة الانتفاضة وبين الديموقراطيين اليعاقبة البرجوازيين الصغار ، فاستولت على مبنى البلدية بمساعدة كتائب الحرس الوطني التي ظلت الى جانبها ، وبعثت سلطتها . ـ ص ١٢٣ .

٥١ ــ وقعت معركة وغرام في ٥ و٦ تموز (يوليو) ١٨٠٩ . وفي هذه المعركة ، هزمت القوات الفرنسية بقيادة نابليون الاول الجيش النمساوي بقيادة الارشيدوق شارل . ــ ص ١٢٣

٥٢ ــ في ١٨ حزيران (يونيو) ١٨١٥ هزمت القوات الانجلو-هولندية بقيادة ويلينغتون والجيش البروسي بقيادة بلوخر جيش نابليون الاول في واترلو (بلجيكا) . ــ ص ١٢٤

٥٣ ــ يقصد انجلس الصراع الذي دام زمنا طويلا بين السلطة الدوقية والنبلاء في دوقيتي مكلنبورغ-شفيرين ومكلنبورغ-ستريليتس والذي انتهى بتوقيع معاهدة دستورية في مدينة روستوك ، عام ١٧٥٥ ، بصدد حقوق وراثة النبلاء . أكدت المعاهدة تسهيلاتهم وامتيازاتهم السابقة ، وعززت مركزهم القيادي في لاندتاغاتهم (مجالسهم) المراتبية ، واعفت من الضرائب نصف اراضيهم ، وثبتت مقدار الضرائب على التجارة والحرف ، وكذلك حصصهم في نفقات الدولة . ــ ص ١٢٦

٥٤ ــ في ٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٤ ، قدم الى الريخستاغ الالماني مشروع قانون جديد ضد الاشتراكيين . وفي ١١ ايار (مايو) ١٨٩٥ رفض الريخستاغ هذا المشروع . ــ ص ١٣٠

٥٥ ــ المقصود هنا المبحث الذي اعتزم ماركس كتابته «نقد السياسة والاقتصاد السياسي» . ــ ص ١٤٨

٥٦ ــ في شباط (فبراير) ١٨٧١ ، تشكلت اللجنة المركزية للحرس الوطني في باريس ؛ والى الحرس الوطني انضمت الجماهير الديموقراطية الواسعة في ظروف حصار باريس ابان الحرب الفرنسية-البروسية (١٨٧٠-١٨٧١) تراست اللجنة انتفاضة ١٨ آذار (مارس) ١٨٧١ وقامت ، حتى اعلان كومونة باريس في ٢٨ آذار ، بوظائف اول حكومة بروليتارية في التاريخ . ــ ص ١٥٠

٥٧ ــ المقصود هنا كتاب هاكستهاوزن «Über den Ursprung und die Grundlagen der Verfassung in den ehmals slavischen Ländern Deutschlands im allgemeinen und des Herzogthums Pomern im besondern», (وفي اصل واسس النظام الاجتماعي في الاراضي السلافية

السابقة بالمانيا عموما وفي دوقية بوميرانيا خصوصا) الذي صدر في برلين عام ١٨٤٢ .ـ ص ١٥١

٥٨ ـ في ١٣ حزيران (يونيو) ١٨٤٩ ، نظم حزب «الجبل» البرجوازي الصغير مظاهرة سلمية في باريس احتجاجا على ارسال القوات المسلحة الفرنسية الى ايطاليا من اجل قمع الثورة فيها فرقت القوات المسلحة المظاهرة وقد تعرض عدد كبير من زعماء «الجبل» للاعتقال والنفي او اضطروا الى مغادرة فرنسا .ـ ص ١٥٢

٥٩ ـ **الموتواليتيون** («التعاضديون») (mutuel ـ تعاضدي) بهذا الاسم تسمى في الستينيات من القرن التاسع عشر البرودونيون الذين تقدموا بخطة اصلاحية برجوازية صغيرة لتحرير الشغيلة عن طريق تنظيم التعاضد (انشاء التعاونيات وجمعيات التعاضد ، الخ .) .ـ ص ١٥٤

٦٠ ـ **حلف الديموقراطية الاشتراكية** ، منظمة اسسها باكونين في جنيف في عام ١٨٦٨ نادى اعضاء الحلف في برنامجهم بالمساواة بين الطبقات وبالغاء الدولة وانكروا ضرورة النضال السياسي من قبل الطبقة العاملة لقي برنامج الحلف الفوضوي البرجوازي الصغير التأييد في المقاطعات الضعيفة التطور من الناحية الصناعية في ايطاليا وسويسرا واسبانيا وغيرها من البلدان في ١٨٦٩ ، تقدم الحلف من المجلس العام بطلب قبوله في الاممية . فوافق المجلس العام على قبول فروع الحلف شرط حله كمنظمة مستقلة اما في الواقع ، فان اعضاء الحلف الذين انضموا الى الاممية حافظوا على تنظيمهم السري داخل جمعية الشغيلة العالمية ، وناضلوا برئاسة باكونين ضد المجلس العام . وقد اشتد نضال الحلف ضد الاممية بعد قمع كومونة باريس عندما عارض باكونين وانصاره معارضة قوية جدا فكرة ديكتاتورية البروليتاريا وتوطيد حزب الطبقة العاملة السياسي المستقل ، القائم على مبادئ المركزية الديموقراطية وفي ايلول (سبتمبر) ١٨٧٢ ، اتخذ مؤتمر الاممية الاولى المنعقد في لاهاي ، باغلبية الاصوات الساحقة ، قرارا بفصل زعيمي الحلف باكونين وغليوم من الاممية .ـ ص ١٥٥ .

٦١ ـ المقصود هنا قرارات مؤتمر الاممية الاولى الذي انعقد في لندن من ١٧ الى ٢٣ ايلول (سبتمبر) ١٨٧١ «وبصدد اسماء المجالس الوطنية والخ ..» (القرار الثاني ، الفقرات ١ ، ٢ ، ٣) ، «وبصدد نشاط الطبقة العاملة السياسي» (القرار التاسع) ، «وبصدد حلف الديموقراطية الاشتراكية» (القرار السادس عشر) ، «وبصدد الانشقاق في سويسرا الرومانية» (القرار السابع عشر) . ـ ١٥٥

٦٢ ـ «Der Volksstaat» («والدولة الشعبية») لسان الحال المركزي لحزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي الالماني (الايزيناخيين) صدرت من ٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٦٩ حتى ٢٩ ايلول (سبتمبر) ١٨٧٦ في ليبزيغ اشرف ليبكنخت على ادارة الجريدة العامة ، واشرف بيبل على طبعها «اعون ماركس وانجلس في الجريدة ، وساعدا دائما في تحريرها حتى عام ١٨٦٩ صدرت الجريدة باسم «Democratisches Wochenblatt» ـ ص ١٥٨

٦٣ ـ «Neuer Social-Demokrat» («والاشتراكي-الديموقراطي الجديد») ، جريدة المانية ، صدرت في برلين من ١٨٧١ الى ١٨٧٦ لسان حال اتحاد العمال الالماني العام اللاسالي ؛ ناضلت ضد القيادة الماركسية للاممية وضد حزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي الالماني ؛ دعمت الباكونينيين وممثلي التيارات الاخرى المعادية للبروليتاريا ـ ص ١٥٨

٦٤ ـ **اتحاد العمال الالماني العام** ، منظمة سياسية للعمال الالمان تاسست في ١٨٦٣ بمشاركة لاسال النشيطة دام الاتحاد حتى ١٨٧٥ عندما اتحد في مؤتمر غوتا اللاساليون والايزيناخيون (حزب الايزيناخيين الذي يراسه ليبكنخت وبيبل) في حزب العمال الاشتراكي الالماني . ـ ص ١٥٨

٦٥ ـ تاسس حزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي الالماني المعروف فيما بعد باسم حزب الايزيناخيين في المؤتمر العام للاشتراكيين-الديموقراطيين في المانيا والنمسا وسويسرا في ٧ـ٩ آب (اغسطس)

١٨٦٩ في مدينة ايزيناخ كان البرنامج الذي اتخذه المؤتمر يتفق ككل مع روح مطالب الاممية .ـ ص ١٥٩

٦٦ ـ **الاممية الاولى** (جمعية الشغيلة العالمية) ، اول منظمة عالميه جماهيرية للبروليتاريا ؛ عملت بقيادة ماركس وانجلس (من ١٨٦٤ الى ١٨٧٦) اوصلت الاممية الى وعي العمال الطليعيين في اهم البلدان الراسمالية افكار الاشتراكية العلمية وواجهت اساس تنظيم العمال العالمي من أجل اعداد الهجوم الثوري على الراسمال» (لينين) راجعوا في هذه المجموعة وصف الاممية في مقدمة انجلس للطبعة الالمانية من «بيان الحزب الشيوعي» عام ١٨٩٠ وفي رسالة ماركس الى بولته بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧١ (راجع هذه الطبعة الجزء الاول ص ص ٤٣ـ٤٧ ، وهذا الجزء ص ص ١٥٣ـ١٥٧) .ـ ص ١٦٠

٦٧ ـ انعقد **مؤتمر جمعية الشغيلة العالمية في لاهاي** من ٢ الى ٧ ايلول (سبتمبر) ١٨٧٢ . وقد حضره ٦٥ مندوبا عن ١٥ منظمة وطنية اشرف ماركس وانجلس على عمل المؤتمر في المؤتمر بلغ النضال الذي خاضه ماركس وانجلس وانصارهما طوال سنوات عديدة ضد الانعزالية البرجوازية الصغيرة بجميع صورها في الحركة العمالية ، غايته فقد شجب المؤتمر نشاط الفوضويين الانشقاقي وفصل زعماءهم من الاممية ارست قرارات مؤتمر لاهاي الاساس لانشاء احزاب سياسية مستقلة للطبقة العاملة في مختلف البلدان .ـ ص ١٦٠

٦٨ ـ هيغل «ظاهريات الروح» ، فصل «حقيقة التنوير» ـ ص ١٦٢

٦٩ ـ في ١٨٧٢ و ١٨٧٣ طلب ليبكنخت وغوبنر غير مرة من ماركس ان يكتب كراسا او مقالا لأجل «Volksstaat» ينتقد فيه آراء لاسال .ـ ص ١٦٢

٧٠ ـ في رسالة الى ماركس بتاريخ ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) ـ ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٧ ، سال بلوس ، قاصداً تهجمات اتباع دوهرينغ في مؤتمر غوتا المنعقد عام ١٨٧٧ ، ما اذا كان ماركس وانجلس غاضبين فعلا على الرفاق الحزبيين في المانيا . وقد اشار بلوس الى ان العمال الالمان

يهتمون بمقالات ماركس وانجلس في الصحافة اكثر مما في اي وقت مضى ، وكتب ان ماركس وانجلس حظيا ، بفضل نشاط الاشتراكيين-الديموقراطيين التحريضي ، بشعبية تفوق ما يمكنهما ان يتصورا .ـ ص ١٦٣

٧١ ـ المقصود هنا النظام الداخلي لعصبة العادلين اشترك ماركس وانجلس اشتراكا فعالا في وضع النظام الداخلي لعصبة الشيوعيين وضع النظام في حزيران (يونيو) ١٨٤٧ في مؤتمر العصبة الاول بعد مناقشته من قبل محافل العصبة ، بحثه المؤتمر الثاني من جديد وصادق عليه نهائيا في ٨ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٧ .ـ ص ١٦٣

٧٢ ـ المقصود هنا كتاب بارت «Die Geschichtsphilosophie Hegels und Hegelianer bis auf Marx und Hertmann» (« فلسفة التاريخ عند هيغل والهيغليين قبل ماركس وهارتمان ضمنا ») الذي صدر في ليبزيغ عام ١٨٩٠ .ـ ص ١٦٥

٧٣ ـ «Deutsche Worte» (« الكلمة الالمانية ») ، مجلة اقتصادية وسياسية واجتماعية نمساوية صدرت في فيينا من ١٨٨١ الى ١٩٠٤
نشرت المجلة في العدد ٥ لعام ١٨٩٠ مقالة فيرت « الاساءة الى هيغل واضطهاده في المانيا الحديثة » .ـ ١٦٥

٧٤ ـ «Berliner Volks-Tribüne» (« منبر برلين الشعبي ») ، جريدة اشتراكية-ديموقراطية اسبوعية قريبة من جماعة « الشباب » نصف الفوضوية ؛ صدرت من ١٨٨٧ الى ١٨٩٢
نشرت الجريدة من ١٤ حزيران (يونيو) الى ١٢ تموز (يوليو) ١٨٩٠ مواد المناقشة في مسالة « لكل فرد نتاج عمله كاملا » .ـ ص ١٦٦

٧٥ ـ راجع الملاحظة رقم ٧٦ .ـ ص ١٦٨

٧٦ ـ «Züricher Post» (« بريد زوريخ ») ، جريدة يومية سويسرية ، ديموقراطية الاتجاه ، صدرت من ١٨٧٩ الى ١٩٢٦ .ـ ص ١٧٥ .

٧٧ ـ مقالة مهرينغ «في المادية التاريخية» صدرت عام ١٨٩٣ كملحق لكتابه «اسطورة ليسينغ» . ـ ص ١٨٥

٧٨ ـ حسب نظرية روسو التي طورها في كتابه «العقد الاجتماعي» كان الناس يعيشون اولا في حالة طبيعية كانوا فيها جميعهم متساوين وقد اشترط ظهور الملكية الخاصة وتطور التفاوت في التملك انتقال الناس من الحالة الطبيعية الى الحالة المدنية وادى الى تشكل الدولة القائمة على عقد اجتماعي . ولكن تطور التفاوت السياسي يقود فيما بعد الى مخالفة العقد الاجتماعي والى نشوء حالة جديدة هي حالة الاستبداد وان هذه الحالة الاخيرة انما يجب ان تقضي عليها الدولة الحكيمة القائمة على عقد اجتماعي جديد . ـ ص ١٨٧

٧٩ ـ انصار المركنتيلية (mercantilisme) اي نظام من اقتصادية تطورت في عهد التراكم البدائي كان نظريو المركنتيلية يمثلون الرأسمال التجاري ، فاعتبروا ان ثروة البلد لا تقوم الا في تراكم النقود ، ولم يروا مصدر هذه الثروة الا في التجارة الخارجية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، اثرت المركنتيلية تاثيراً كبيراً في السياسة الاقتصادية التي انتهجتها الدول ذات الحكم المطلق

الفيزيوقراطيون ، اتجاه من اتجاهات الاقتصاد السياسي الكلاسيكي البرجوازي ظهر في الخمسينيات من القرن الثامن عشر في فرنسا كان الفيزيوقراطيون يناصرون قطاع الزراعة الرأسمالية الكبيرة ، والغاء الامتيازات المراتبية ، والغاء الحماية الجمركية ادرك الفيزيوقراطيون ضرورة القضاء على النظم الاقطاعية ولكنهم ارادوا ان يجري ذلك عن طريق التحويلات السلمية ، دون الاضرار بالطبقات السائدة ونظام الحكم المطلق اقترب الفيزيوقراطيون بنظراتهم الفلسفية من المنورين البرجوازيين الفرنسيين في القرن الثامن عشر . في عهد الثورة البرجوازية الفرنسية ، تحققت جملة من التحويلات الاقتصادية التي اقترحها الفيزيوقراطيون . ـ ص ١٨٧

٨٠ ـ **الحروب الصليبية** ، حركة استعمارية حربية باتجاه بلدان الشرق قام بها كبار الاقطاعيين والفرسان من اوروبا الغربية ، والمدن

الايطالية التجارية في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر ، تحت راية الدين لاجل تحرير المقدسات المسيحية في القدس وسائر «الاماكن المقدسة» من حكم المسلمين كانت الكنيسة الكاثوليكية والكرسي البابوي الساعي الى السيطرة العالمية ايديولوجيي وملهمي الحروب الصليبية ، وكان الفرسان قوتها العسكرية الرئيسية كذلك اشترك الفلاحون في الحملات ، سعيا وراء الخلاص من اضطهاد الاقطاعيين اقترنت هذه الحملات باعمال النهب والعنف سواء حيال المسلمين ام حيال السكان المسيحيين في البلدان التي مر بها الصليبيون ولم تقتصر مطامع الصليبيين الفتوحية على الدول الاسلامية في سوريا وفلسطين ومصر وتونس ، بل شملت ايضا الامبراطورية البيزنطية الارثوذكسية ولكن فتوحات الصليبيين في القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط لم تكن وطيدة ، وسرعان ما عادت الاراضي التي استولوا عليها الى المسلمين .ـ ص ١٨٨

٨١ ـ **حرب الثلاثين سنة** (١٦١٨ـ١٦٤٨) حرب اوروبية عامة نشبت من جراء الصراع بين البروتستانت والكاثوليك كانت المانيا الميدان الرئيسي لهذا الصراع ، وموضع نهب حربي وادعاءات اغتصاب واستيلاء من قبل المشتركين في الحرب انتهت الحرب في ١٨٤٨ بعقد صلح وستفال الذي دعم تجزؤ المانيا السياسي .ـ ص ١٩٠

٨٢ ـ المقصود هنا **الامبراطورية الرومانية المقدسة للامة الالمانية** ، امبراطورية قروسطية (من القرون الوسطى) تاسست في عام ٩٦٢ وشملت اراضي المانيا وقسما من ايطاليا فيما بعد ، دخلت ايضا في قوام الامبراطورية بعض الاراضي الفرنسية وبلاد التشيك والنمسا وهولنده وسويسرا وبلدان اخرى لم تكن الامبراطورية دولة مركزية وكانت عبارة عن اتحاد واهن بين امارات اقطاعية ومدن حرة تعترف بسلطة الامبراطور العليا زالت الامبراطورية في عام ١٨٠٦ عندما اضطر آل هابسبورغ ، بعد هزيمتهم في الحرب ضد فرنسا ، الى التخلي عن لقب اباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة .ـ ص ١٩١ .

٨٣ ــ هذه الرسالة نشرها للمرة الاولى بدون الاشارة الى عنوان المرسل اليه في مجلة «Der Sozialistische Akademiker» (« العالم الاشتراكي ») ، العدد ٢٠ ، عام ١٨٩٥ المحرر فيها شتاركنبورغ ونظراً لهذا ، اشير خطأ في الطبعات السابقة الى انها كانت مرسلة الى شتاركنبورغ ــ ص ١٩٢

٨٤ ــ راجع الملاحظة رقم ٥ . ــ ص ١٩٤

٨٥ ــ المقصود هنا عمل غوليخ من عدة مجلدات «Geschichtliche Darstellung des Handels, der Gewerbe und des Ackerbaus der bedeutendsten handeltreibenden Staaten unserer Zeit» (« وصف تاريخي للتجارة والصناعة والزراعة في أهم الدول التجارية في زمننا ») الذي صدر في يينا من ١٨٣٠ الى ١٨٤٥ . ــ ص ١٩٦

دليل الاسماء

ابيانوس (اواخر القرن الاول ـ السبعينيات من القرن الثاني) ـ مؤرخ روماني . ـ ص ١٩٥

انجلس فريدريك (١٨٢٠ـ١٨٩٥)

انتكوف باڤيل فاسيلييفيتش (١٨١٢ ـ ١٨٨٧) ـ ملاك عقـــاري ليبيرالي روسي . اديب .ـ ص ص ١٣٢ـ١٤٨

اوغسطوس (٦٣ ق . م .ـ١٤ م .) ـ امبراطور روماني (٢٧ ق . م .ـ ١٤ م .) ص ١٩٥

ايم تورن ايفيرارد فردينـــاند (١٨٥٢ـ١٩٣٢) ـ موظف بريطـــاني في المستعمرات . رحالة وانتروبولوجي (عالم في السلالات البشرية) . ـ ص ٢٠

بارت باول (١٨٥٨ـ١٩٢٢) ـ فيلسوف وعالم اجتماع برجوازي الماني . معلـم في جامعـــة ليبزيـــخ .ـ ص ص ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٨

باڤو اوديلون (١٧٩١ـ١٨٧٣) ـ سياسي برجوازي فرنسي . قبل ضباط (فبراير) ١٨٤٨ ، رئيس المعارضة الاسرية الليبيرالية من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٨ الى تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٩ ، ترأس الوزارة المعتمدة على حزب النظام .ـ ص ١٦٧

باكونين ميخائيل الكسندروفيتش (١٨١٤ـ١٨٧٦) ـ ديموقراطي روسي ، كاتب سياسي واجتماعي . اشترك في ثورة ١٨٤٨ـ١٨٤٩ في المانيا . من ايديولوجيي الفوضويـــة . برز في الاممية الاولى عدواً لدوداً

للماركسية ؛ في مؤتمر لاهاي عام ١٨٧٢ ، فصل من الاممية الاولى لنشاطه الانشقاقي . ــ ص ص ١٨ ، ٤٥ ، ١٥٤ ــ ١٥٥

باور برونو (١٨٠٩ــ١٨٨٢) ــ فيلسوف مثالي الماني ، واحد من ابرز ممثلي الهيغليين الشباب ، راديكالي برجوازي بعد ١٨٦٦ ، ليبرالي قومي ص ص ١٧ ، ١٩ ، ٤٥

بايل بيير (١٦٤٧ــ١٧٠٦) ــ فيلسوف ارتيابي فرنسي . ــ ص ٦٦

برنشتين ادوارد (١٨٥٠ــ١٩٣٢) ــ اشتراكي-ديموقراطي الماني كاتب سياسي واجتماعي رئيس تحرير جريدة «Sozialdemokrat» («والاشتراكي-الديموقراطي») (١٨٨١ــ١٨٩٠) مندوب في مؤتمري العمال الاشتراكيين العالميين في ١٨٨٩ و ١٨٩٣ ؛ بعد وفاة انجلس ، شرع يحرف الماركسية بصورة سافرة من مواقف اصلاحية . ــ ص ١٨٤

برودون بيير جوزيف (١٨٠٩ــ١٨٦٥) ــ كاتب سياسي واجتماعي فرنسي ، اقتصادي وعالم اجتماعي ايديولوجي البرجوازية الصغيرة من مؤسسي الفوضوية . ــ ص ص ٤٥ ، ١٣٢ ــ ١٤٨ ، ١٥٥

بلوخ يوسف ــ محرر في مجلة «Sozialistische Monatshefte» ــ ــ ص ص ١٧١ــ١٧٤

بلوس ولهلم (١٨٤٩ــ١٩٢٧) ــ اشتراكي-ديموقراطي الماني صحافي ومؤرخ في ١٨٧٢ــ١٨٧٤ احد محرري «Volksstaat» («والدولة الشعبية») عضو الريخستاغ ابان الحرب العالمية الاولى ، اشتراكي شوفيني . ــ ص ١٦٣

بوخنر لودفيغ (١٨٢٤ــ١٨٩٩) ــ فيزيولوجي وفيلسوف برجوازي الماني ممثل المادية المبتذلة . ــ ص ٢٦

بوربون ــ سلالة ملكية في فرنسا (١٥٨٩ ــ ١٧٩٢ ، ١٨١٤ ــ ١٨١٥ و١٨١٥ــ١٨٣٠) . ص ٥٦

بودفيوس ف . ــ ص ص ١٩٢ــ١٩٦ .

بوغوسلافسكي البرت (١٨٣٤ـ١٩٠٥) ـ جنرال الماني وكاتب عسكري . ـ ص ص ١٢٦ ، ١٢٩

بولته فريدريك ـ قائد في حركة العمال الاميركية . الماني الجنسية امين المجلس الاتحادي لفروع الاممية في اميركا الشمالية (١٨٧٢) . عضو المجلس العام للاممية (١٨٧٢ـ١٨٧٤) . في ١٨٧٤ طرد من المجلس العام . ـ ص ١٥٣ـ١٥٧

بونابرت ـ راجع نابليون الثالث

بونيفك اوتو ، بارون فون ـ شخصية اجتماعية المانية القى محاضرات في الاشتراكية في جامعة بريسلو . ـ ص ١٦٩ـ١٧٠

بيبل اوغست (١٨٤٠ـ١٩١٣) ـ قائد بارز في الحركة العمالية العالمية والالمانية ابتداء من عام ١٨٦٧ ، قاد اتحاد جمعيات العمال الالمان عضو الاممية الاولى ابتداء من عام ١٨٦٧ ، نائب في الريخستاغ احد مؤسسي وزعماء الاشتراكية ـ الديموقراطية الالمانية. صديق ماركس وانجلس ورفيقهما في النضال قائد في الاممية الثانية . ـ ص ص ١١٦ ، ١٥٧ـ١٦٢

بيرتلو بيير اوجين مارسيلين (١٨٢٧ـ١٩٠٧) ـ كيميائي فرنسي مشهور سياسي برجوازي . ـ ص ٣٦

بيسمارك اوتو ، امير (١٨١٥ـ١٨٩٨) ـ رجل دولة وديبلوماسي بروسي والماني ممثل اليونكر البروسيين وزير ـ رئيس بروسيا (١٨٦٢ـ ١٨٧١) ، مستشار الامبراطورية الالمانية (١٨٧١ـ١٨٩٠) . ـ ص ص ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٢٩ ، ١٨٩

توريتشيلي ايفانجيليستا (١٦٠٨ـ١٦٤٧) ـ فيزيائي وعالم رياضيات ايطالي بارز . ـ ص ١٩٣

تيير ادولف (١٧٩٧ـ١٨٧٧) ـ مؤرخ ورجل دولة برجوازي فرنسي نائب في الجمعية التشريعية (١٨٤٩ـ١٨٥١) ، اورلياني رئيس الجمهورية (١٨٧١ـ١٨٧٣) ، جلاد كومونة باريس . ـ ص ص ٥٦ ، ١١٣ .

تيري اوغستان (١٧٩٥ـ١٨٥٦) ، مؤرخ ليبيرالي برجوازي فرنسي ص ٥٦ ، ١٩٥

جيفن روبرت (١٨٣٧ـ١٩١٠) ـ اقتصادي واحصائي برجوازي بريطاني اختصاصي في شؤون المالية . رئيس قسم الاحصاء في وزارة التجارة (١٨٧٦ـ١٨٩٧) . ـ ص ٨٦

داروين تشارلز روبرت (١٨٠٩ـ١٨٨٢) ـ بحاثة انجليزي كبير في الطبيعة . مؤسس البيولوجيا التطورية العلمية . ـ ص ص ٢٩ ، ٥١ .

دوتسفين يوسف (١٨٢٨ـ١٨٨٨) ـ اشتراكي ـ ديموقراطي الماني . فيلسوف متعلم بنفسه . توصل من تلقاء نفسه الى اسس المادية الديالكتيكية مهنته دبّاغ . ـ ص ٤٨

ديدرو ديني (١٧١٣ـ١٧٨٤) ـ فيلسوف فرنسي بارز ممثل المادية الميكانيكية . الحادي . احد ايديولوجيي البرجوازية الثورية الفرنسية . منوّر . رئيس الموسوعيين . ـ ص ٣٢

ديكارت رينيه (١٥٩٦ـ١٦٥٠) ـ فيلسوف ثنائي ، عالم رياضيات وطبيعيات فرنسي بارز . ـ ص ص ٢٤ ، ٢٧ ، ١٦٦

ديوقليسيانوس (حوالي ٢٤٥ـ٣١٣) ـ امبراطور روماني (٢٨٤ـ ٣٠٥) . ص ١٣٠

روبسبير ماكسيميليان (١٧٥٨ـ١٧٩٤) ـ قائد بارز في الثورة البرجوازية الفرنسية في اواخر القرن الثامن عشر . زعيم اليعاقبة . رئيس الحكومة الثورية (١٧٩٣ـ١٧٩٤) . ـ ص ٣٧

روسلر قسطنطين (١٨٢٠ـ١٨٩٦) ـ كاتب سياسي واجتماعي الماني بوصفه رئيس المكتب الادبي شبه الرسمي في برلين (١٨٧٧ـ١٨٩٢) اخذ جانب الدفاع عن سياسة بيسمارك . ـ ص ١٢٩

روسو جان جاك (١٧١٢ـ١٧٧٨) ـ منور فرنسي بارز ديموقراطي ، ايديولوجي البرجوازية الصغيرة ، فيلسوف مؤلّه طبيعي . ـ ص ص ٣٢ ، ١٨٧ .

ريتشارد الاول قلب الاسد (١١٥٧-١١٩٩) ـ ملك انجليزي (١١٨٩-١١٩٩) .ـ ص ١٨٧

رينان ارنست (١٨٢٣-١٨٩٢) ـ عالم لغوي فرنسي . مؤرخ المسيحية . فيلسوف مثالي .ـ ص ٤٠

زولير غيورغ ادولف (١٨١٤-١٨٩٢) ـ اقتصادي واحصائي برجوازي الماني .ـ ص ١٧٦

سميث آدم (١٧٢٣-١٧٩٠) ـ اقتصادي انجليزي.من اكبر ممثلي الاقتصاد السياسي البرجوازي الكلاسيكي .ـ ص ص ١٣٧ ، ١٨٧

شتاركه كارل نيقولاي (١٨٥٨-١٩٢٦) ـ فيلسوف وعالم اجتماع برجوازي دانماركي .ـ ص ص ٦ ، ٨ ، ٢٤ ، ٣١-٣٤ ، ٣٩ ، ٤٠

شتراوس دافيد فريدريك (١٨٠٨-١٨٧٤) ـ فيلسوف وكاتب سياسي واجتماعي الماني احد الهيغليين الشباب البارزين بعد ١٨٦٦ ليبيرالي قومي .ـ ص ص ١٧ ، ١٨ ، ٤٥

شتوم كارل (١٨٢٦-١٩٠١) ـ صناعي الماني كبير . محافظ . عدو لدود للحركة العمالية .ـ ٩٨

شتيرنر ماكس (الاسم المستعار الادبي لغاسبار شميدت) (١٨٠٦-١٨٥٦) ـ فيلسوف الماني . من الهيغليين الشباب . احد ايديولوجيي الفردية البرجوازية والفوضوية .ـ ص ص ١٨ ، ٤٥

شفيتسر يوهان بابتيست (١٨٣٣-١٨٧٥) ـ احد ممثلي اللاسالية البارزين في المانيا ؛ رئيس اتحاد العمال الالماني العام (١٨٦٧-١٨٧١) ؛ عارض انضمام العمال الالمان الى الاممية الاولى ، وناضل ضد حزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي ؛ في ١٨٧٢ ، طرد من الاتحاد بعد كشف القناع عن صلاته بالسلطات البروسية .ـ ص ١٥٤

شميدت كونراد (١٨٦٣-١٩٣٢) ـ اقتصادي وفيلسوف الماني . مؤلف

اعمال كانت احد المصادر الفكرية للتحريفيـــة . ـ ص ص ١٧٥ـ ١٨٤

شيلر فريدريك (١٧٥٩ـ١٨٠٥) ـ كاتب الماني كبير . ـ ص ٣١

غاله يوهان غوتفريد (١٨١٢ـ١٩١٠) ـ فلكي الماني ، في ١٨٤٦ اكتشف بالاستناد الى حسابات ليفيريه الكوكب نبتون . ـ ص ٢٤

غراكوس الاخوان غايي سمبروني (١٥٣ـ١٢١ قبـــل الميلاد) وتيبيري سمبروني (١٦٣ـ١٣٣ قبل الميلاد) ـ خطيبان شعبيان في رومـا القديمة . ناضلا من اجل سن قوانين زراعية في مصلحة الفلاحين ص ١٢٨

غرون كارل (١٨١٧ـ١٨٨٧) ـ كاتب سياسي واجتماعي برجوازي صغير الماني في اواسط الاربعينيـات ، من كبـار ممثلي ما يسمـى «الاشتراكية الصحيحة» . ـ ص ١٩

غلادستون وليام يوارت (١٨٠٩ـ١٨٩٨) ـ رجل دولة بريطـاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، احد زعمـاء الحزب الليبرالي (حزب الاحرار) . مستشار الخزانة (وزير المالية) (١٨٥٢ـ١٨٥٥ و١٨٥٩ـ١٨٦٦) ورئيـس وزارة (١٨٦٨ـ١٨٧٤ ، ١٨٨٠ـ ١٨٨٥ ، ١٨٨٦ ، ١٨٩٢ ، ١٨٩٤ـ١٨٩٤) . ـ ص ١٥٧

غليوم الاول (١٧٩٧ـ١٨٨٨) ـ امير بروسي ملك بروسيا (١٨٦١ـ ١٨٨٨) ، امبراطور المانيا (١٨٧١ـ١٨٨٨) . ـ ص ص ١١٢ ، ١٨٩

غوبنر ادولف (١٨٤٦ـ١٩٢٣) ـ اشتراكي ـ ديموقراطي المـاني احـد محرري جريدة «Volksstaat» (والدولة الشعبية) . مندوب في مؤتمر الاممية في لاهاي (١٨٧٢) فيمـا بعد ، اشتراكي شوفيني . ـ ص ١٥٧

غوته يوهان ولفغانغ (١٧٤٩ـ١٨٣٢) ـ كاتب ومفكر المـاني كبير . ـ ص ص ١١ ، ١٤ ، ٢٨

غولد جاي (١٨٣٦ـ١٨٩٢) ـ مليونير اميركي مالي من اصحاب السكك الحديدية . ـ ص ١٧٧

غوليخ غوستاف (١٧٩١ـ١٨٤٧) ـ اقتصادي ومؤرخ برجوازي الماني مؤلف عدد من الاعمال في تاريخ الاقتصاد الوطني . ـ ص ١٩٦

غيزو فرانسوا بيير غيوم (١٧٨٧ـ١٨٧٤) ـ مؤرخ ورجل دولة برجوازي فرنسي من عام ١٨٤٠ حتى ١٨٤٣ ، اشرف عمليا على السياسة الداخلية والخارجية في فرنسا . ـ ص ٥٦ ، ١٩٥

فريدريك الثاني (الملقب «بالكبير») (١٧١٢ـ١٧٨٦) ـ ملك بروسيا (١٧٤٠ـ١٧٨٦) . ـ ص ١٢٣

فريدريك وليام (١٦٢٠ـ١٦٨٨) ـ دوق برندنبورغ (١٦٤٠ـ١٦٨٨) ـ ص ١٨٩

فريدريك وليام الثالث (١٧٧٠ـ١٨٤٠) ـ ملك بروسيا (١٧٩٧ـ ١٨٤٠) . ـ ص ص ٩ ، ١٤

فريدريك وليام الرابع (١٧٩٥ـ١٨٦١) ـ ملك بروسيا (١٨٤٠ـ ١٨٦١) . ـ ص ١٧

فندربيلت ـ سلالة من كبار الماليين الاميركيين وطواغيت الصناعة الاميركية . ـ ص ١٧٧

فورباخ لودفيغ (١٨٠٤ـ١٨٧٢) ـ فيلسوف مادي الماني كبير في مرحلة ما قبل ماركس . ـ ص ص ٥ـ٧ ، ١٨ـ١٩ ، ٢٣ـ٢٦ ، ٢٩ـ ٤٥ ، ١٨٣

فوريه شارل (١٧٧٢ـ١٨٣٧) ـ اشتراكي طوبوي فرنسي كبير ـ ص ١٣٣

فوغت كارل (١٨١٧ـ١٨٩٥) ـ عالم طبيعيات الماني ، مادي مبتذل ديموقراطي برجوازي صغير اشترك في ثورة ١٨٤٨ـ١٨٤٩ في المانيا في الخمسينيات والستينيات ، عميل سري ماجور للويس بونابرت في المهجر . ـ ص ص ٢٦ ، ١٥١ .

فولتير فرانسوا ماري (كنيته الحقيقية اروبه) (١٦٩٤-١٧٧٨) - منور فرنسي بارز فيلسوف مؤلّه طبيعي ، كاتب ساخر هجاء مؤرخ .-ص ص ٣٣ ، ٦٦

فيخته يوهان غوتليب (١٧٦٢-١٨١٤) - ممثل الفلسفة الالمانية الكلاسيكية مثالي ذاتي .-ص ١٨٧

فيدمايير يوسف (١٨١٨-١٨٦٦) - قائد في حركة العمال الالمانية والاميركية عضو عصبة الشيوعيين اشترك في ثورة ١٨٤٨-١٨٤٩ في المانيا وفي الحرب الاهلية في الولايات المتحدة الاميركية في صف الشمال ؛ دشن عهد ترويج الماركسية في الولايات المتحدة الاميركية ؛ صديق ماركس وانجلس ورفيقهما في النضال .-ص ١٤٩

فيرث موريس (١٨٤٩ - توفي بعد ١٩١٦) - كاتب سياسي واجتماعي الماني اقتصادي .-ص ١٦٥

قسطنطين (حوالي ٢٧٤-٣٣٧) - امبراطور روماني (٣٠٦-٣٣٧) - ص ١٣٠

قيصر (غايي يوليوس قيصر)(حوالي ١٠٠-٤٤ ق.م.) - قائد عسكري ورجل دولة روماني شهير .-ص ١٩٥

كارل الجريء (١٤٣٣-١٤٧٧) - دوق بورغوندي (١٤٦٧-١٤٧٧) - ص ١٩١

كالفين جان (١٥٠٩-١٥٦٤) - قائد بارز في عهد الاصلاح . مؤسس احد تيارات البروتستانتية ، تيار الكالفينية الذي كان يعبر عن مصالح البرجوازية في مرحلة التراكم البدائي للراسمال .-ص ص ٦٥ ، ١٨٧

كانط عمانويل (١٧٢٤-١٨٠٤) - مؤسس الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، مثالي - ص ص ١١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٤٣ ، ١٨٢ ، ١٨٧ .

كاتيدر هانس ولهلم الكسندر ، الكونت (١٨٤١-١٩١٣) - سياسي الماني. احد زعماء حزب المحافظين . نائب في اللاندتاغ البروسي والريخستاغ الالماني .-ص ٨٣ .

كاوتسكي كارل (١٨٥٤ـ١٩٣٨) ـ اشتراكي ـ ديموقراطي الماني كاتب سياسي واجتماعي . محرر مجلة «Neue Zeit» (والازمنة الحديثة) (١٨٨٣ـ١٩١٧) ، في الثمانينيات ، التحق بالماركسية . فيما بعد ، انتقل الى مواقف الانتهازية وصار ايديولوجي الوسطية في الاشتراكية-الديموقراطية الالمانية وفي الاممية الثانية .ـ ص ١٦٤ـ١٦٥

كروب فريديريك الفرد (١٨٥٤ـ١٩٠٢) ـ اكبر طواغيت صناعة الفولاذ والصناعة الحربية في المانيا .ـ ص ٩٨

كروموبل اوليفر (١٥٩٩ـ١٦٥٨) ـ زعيم البرجوازية والنبلاء المتبرجزين ابان الثورة البرجوازية الانجليزية في القرن السابع عشر ابتداء من ١٦٥٣ ، اللورد حامي انجلترا واسكتلنده وارلنده .ـ ص ١٩٥

كوب غيرمن فرانتس موريس (١٨١٧ـ١٨٩٢) ـ عالم الماني . كيميائي.ـ ص ٣٦

كوبرنيك نيقولاي (١٤٧٣ـ١٥٤٣) ـ فلكي بولوني كبير ، مؤسس المذهب القائل بان الشمس مركز العالم .ـ ص ٢٣

كوغلمان لودفيغ (١٨٣٠ـ١٩٠٢) ـ طبيب الماني اشترك في ثورة ١٨٤٨ـ١٨٤٩ عضو الاممية مندوب في عدد من مؤتمرات الاممية . صديق عائلة ماركس .ـ ص ١٤٩ـ١٥٣

كيلر ارنست ماتياس (١٨٤١ـ١٩٢٨) ـ رجل دولة رجعي الماني نائب في الريخستاغ (١٨٨١ـ١٨٨٨) في ١٨٩٤ـ١٨٩٥ ، وزير الداخلية في بروسيا طبق سياسة مطاردة الحزب الاشتراكي-الديموقراطي .ـ ص ١٣٠

لاسال فرديناند (١٨٢٥ـ١٨٦٤) ـ كاتب سياسي واجتماعي برجوازي صغير الماني محام في ١٨٤٨ـ١٨٤٩ اشترك في الحركة الديموقراطية في اقليم الراين في مستهل الستينيات ، التحق بالحركة العمالية احد مؤسسي اتحاد العمال الالماني العام (١٨٦٣) . دعم سياسة توحيد المانيا «من فوق» بزعامة بروسيا .

ارسى بداية الاتجاه الانتهازي في الحركة العمالية الالمانيـــة
ص ص ١١٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣

لافارغ بول (١٨٤٢ـ١٩١١) ـ قائد بارز في الحركة العمالية العالمية داعية بارز للماركسية . عضو المجلس العام للاممية . الامين المراسل لاسبانيا (١٨٦٦ـ١٨٦٩) . اشترك في انشاء فروع الاممية في فرنسا (١٨٦٩ـ١٨٧٠) واسبانيا والبرتغال (١٨٧١ـ١٨٧٢) مندوب في مؤتمر لاهاي (١٨٧٢) احد مؤسسي حزب العمال في فرنسا تلميذ ماركس وانجلس ورفيقهما في النضال . ـ ص ص ٩٥ ، ١٤٩

لافارغ لورا (١٨٤٥ـ١٩١١) ـ من العاملين في الحركة العمالية الفرنسية زوجة بول لافارغ وابنة ماركس . ـ ص ١٤٩

لوثر مارتن (١٤٨٣ـ١٥٤٦) ـ مـن رجال الاصلاح البارزين مؤسس البروتستانتية (اللوثرية) في المانيا ايـديولوجي البرجـوازيـة الالمانية . ـ ص ص ٦٥ ، ١٨٧

لوك جون (١٦٣٢ـ١٧٠٤) ـ فيلسوف ثنائي انجليزي بارز . حاسي ـ ص ١٨٢

لويس الرابـع عشر (١٦٣٨ـ١٧١٥) ـ ملـك فـرنـسـا (١٦٤٣ـ ١٧١٥) . ـ ص ٦٦

لويس بونابرت ـ راجع نابليون الثالث

لويس نابليون ـ راجع نابليون الثالث .

ليبكنخت ولهلم (١٨٢٦ـ١٩٠٠) ـ من رجالات الحركة العمالية الالمانية والعالمية البارزين اشترك في ثورة ١٨٤٨ـ١٨٤٩ عضو عصبة الشيوعيين والاممية الاولى احد مؤسسي وزعمـاء الاشتراكيـة الديموقراطية الالمانية صديق ماركس وانجلس ورفيقهمـا في النضال . ـ ص ص ١٤٩ ، ١٥٧

ليفيريه اورين جان جوزف (١٨١١ـ١٨٧٧) ـ فلكي ورياضي فرنسي بارز . ـ ص ٢٣ .

ماركس كارل (١٨١٨ـ١٨٨٣)

ماك ـ ماهون ماري ادم باتريس موريس (١٨٠٨ـ١٨٩٣) ـ سياسي وعسكري رجعي فرنسي. بونابرتي. من جلادي كومونة باريس. رئيس الجمهورية الثالثة (١٨٧٣ـ١٨٧٩) .ـ ص ١١٣

مورينغ فرانتس (١٨٤٦ـ١٩١٩) ـ من المناضلين البارزين في حركة العمال الالمانية مؤرخ وكاتب سياسي واجتماعي في الثمانينيات اصبح ماركسيا . كتب جملة من البحوث في تاريخ المانيا والاشتراكية-الديموقراطية الالمانية مؤلف سيرة حياة كارل ماركس ؛ كان احد محرري مجلة «Neue Zeit» («الازمنة الحديثة») . من زعماء ونظريي الجناح اليساري في الاشتراكية-الديموقراطية الالمانية اضطلع بدور بارز في انشاء الحزب الشيوعي الالماني .ـ ص ص ١٨٥ـ١٩٢

مورغان لويس هنري (١٨١٨ـ١٨٨١) ـ عالم اميركي بارز مؤرخ المجتمع البدائي مادي عفوي .ـ ص ١٩٥

موير غيورغ لودفيغ (١٧٩٠ـ١٨٧٢) ـ مؤرخ برجوازي الماني بارز درس النظام الاجتماعي في المانيا في الازمنة القديمة والقرون الوسطى .ـ ص ١٦٨

موليشوت يعقوب (١٨٢٢ـ١٨٩٣) ـ فيزيولوجي وفيلسوف برجوازي ممثل المادية المبتذلة علّم في مؤسسات التعليم في المانيا وسويسرا وايطاليا .ـ ص ٢٦

مونتسكيو شارل (١٦٨٩ـ١٧٥٥) ـ عالم اجتماعي برجوازي فرنسي بارز اقتصادي وكاتب ممثل حركة التنوير البرجوازية في القرن الثامن عشر ، نظري النظام الملكي الدستوري .ـ ص ١٨٧

ميسنر اوتو كارل (١٨١٩ـ١٩٠٢) ـ ناشر من هامبورغ اصدر «رأس المال» وجملة من ابحاث ماركس والجلس الاخرى .ـ ص ص ٤٨، ١٠٤.

ميتيه فرانسوا اوغست ماري (١٧٩٦ـ١٨٨٤) ـ مؤرخ برجوازي ليبرالي فرنسي اقترب من فهم دور النضال الطبقي في تاريخ تكوّن المجتمع البرجوازي .ـ ص ص ٥٦ ، ١٩٥ .

ميولبرغر ارتور (١٨٤٧ـ١٩٠٧) ـ كاتب سياسي واجتماعي برجوازي صغير الماني برودوني . مهنته طبيب .ـ ص ١٥٩

نابليون الاول بونابرت (١٧٦٩ـ١٨٢١) ـ امبراطور فرنسا (١٨٠٤ـ ١٨١٤ و١٨١٥) .ـ ص ص ٣٤ ، ٧١ ، ١٨٠ ، ١٩٥

نابليون الثالث (لويس نابليون بونابرت) (١٨٠٨ـ١٨٧٣) ـ ابن اخي نابليون الاول ، رئيس الجمهورية الثانية (١٨٤٨ـ١٨٥١) امبراطور فرنسا (١٨٥٢ـ١٨٧٠) . ص ص ١٠٤ ، ١١٢ ، ١١٣ ١٥١

نيقولاي الثاني (١٨٦٨ـ١٩١٨) ـ امبراطور روسيا (١٨٩٤ـ١٩١٧) ـ ص ١٢٥

هاكستهاوزن اوغست (١٧٩٢ـ١٨٦٦) ـ موظف بروسي كاتب . وضع مؤلفا وصف فيه بقايا النظام المشاعي في العلاقات الزراعية في روسيا . ـ ص ١٥١

هوبس توماس (١٥٨٨ـ١٦٧٩) ـ فيلسوف بريطاني بارز . ممثل المادية الميكانيكية .ـ ص ٢٤ ، ١٨٢

هيغل غيورغ ولهلم فريدريك (١٧٧٠ـ١٨٣١) ـ اكبر ممثل الفلسفة الكلاسيكية الالمانية . مثالي موضوعي .ـ ص ص ٥ـ١٧ ، ٢٠ـ٢٥ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٥ـ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ١٣٦ ، ١٦١ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٧

هينه هنريخ (١٧٩٧ـ١٨٥٦) ـ شاعر ثوري الماني كبير .ـ ص ص ٩ ، ١٦٣

هيوم دافيد (١٧١١ـ١٧٧٦) ـ فيلسوف انجليزي ، مثالي ذاتي ، لاادري مؤرخ واقتصادي برجوازي .ـ ص ٢٤

يورك تيودور (توفي في ١٨٧٥) ـ قائد في حركة العمال الالمانية . لاسالي . في ١٨٧١ـ١٨٧٤ ، امين حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الالماني .ـ ص ١٥٧

يوفينال (ديتسيم يوني يوفينال) (ولد حوالي عام ٦٠ ـ توفي بعد عام ١٢٧) . شاعر هجّاء روماني شهير .ـ ص ١٢٨ .

الشخصيات الادبية والاسطورية

رادامانت ـ في الميثولوجيا الاغريقية ، قاض حكيم وعادل . ـ ص ٤٣

زفس ـ الاله الاكبر في الميثولوجيا اليونانية القديمة . ـ ص ١٤

ميفيستو ـ احد الاشخاص الرئيسيين في ماساة غوته «فاوست» . ـ ص ١١

محتويات

انجلس لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانيـــة ٥
مقدمة لطبعـــة عام ١٨٨٨ ٥
لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانيـــة ٨
١ ٨
٢ ٢٠
٣ ٣٣
٤ ٤٥
انجلس مسالة الفلاحين في فرنسا والمانيا ٧٠
١ ٧٢
٢ ٨٨
انجلس . مقدمة لكتاب كارل ماركس «النضال الطبقي في فرنسا من ١٨٤٨ الى ١٨٥٠» ١٠١
ماركس وانجلس . رسائل ١٣٢
من ماركس الى باڤل ڤاسيلييڤيتش انڤكوف ، ٢٨ كانون الاول [عام ١٨٤٦] ١٣٢
من ماركس الى يوسف ڤيديماير ، ٥ آذار ١٨٥٢ ١٤٩
من ماركس الى لودفيغ كوغلمان ، ١٢ نيسان ١٨٧١ ١٤٩
من ماركس الى لودفيغ كوغلمان ، ١٧ نيسان ١٨٧١ ١٥٢
من ماركس الى فريدريك بولته ، ٢٣ تشرين الثاني ١٨٧١ ١٥٣
من انجلس الى اوغست بيبل ، ٢٠ حزيران ١٨٧٣ ١٥٧
من ماركس الى وليم بلوس ، ١٠ تشرين الثاني ١٨٧٧ . . ١٦٣

من انجلس الى كارل كاوتسكي ، ١٢ ايلول ١٨٨٢ ١٦٤
من انجلس الى كونراد شميدت ، ٥ آب ١٨٩٠ ١٦٥
من انجلس الى اوتو بونيفك ، ٢١ آب ١٨٩٠ ١٦٩
من انجلس الى يوسف بلوخ ، ٢١ [ـ ٢٢] ايلول ١٨٩٠ ١٧١
من انجلس الى كونراد شميدت ، ٢٧ تشرين الاول ١٨٩٠ ١٧٥
من انجلس الى فرانتس مهرينغ ، ١٤ تموز ١٨٩٣ ١٨٥
من انجلس الى ف بورغيوس ، ٢٥ كانون الثاني ١٨٩٤ ١٩٢
ملاحظات ١٩٧
دليل الاسماء ٢١٧
الشخصيات الادبية والاسطورية ٢٢٩

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم
وابديتم لها ملاحظاتكـــم حول ترجمة الكتاب ،
وشكل عرضـــه ، وطباعته ، واعربتم لهـــا عن
رغباتكم .

العنوان: زوبوفسكي بولفار ، ٢١
موسكو ـ الاتحاد السوفييتي

Подписано к печати 24/I 1974 г. Формат 84×108¹/₃₂. Бум. л. 3³/₄. Печ. л. 12,18. Уч.-изд. л. 12,03. Изд. № 16386. Заказ 1227. Цена 71 коп. Тираж 15 000 экз.

Издательство «Прогресс» Государственного комитета Совета Министров СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли. Москва Г-21, Зубовский бульвар, 21.

Ордена Трудового Красного Знамени Калининский полиграфический комбинат Союзполиграфпрома при Государственном комитете Совета Министров СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли, г. Калинин, пр. Ленина, 5.

HX 39
.5
A212
1975
vol. 4

Orien
Arab